

الواحات المفقودة



المشروع القومى للترجمة

تأليف :

أحمد محمد حسنين بك

ترجمة :

أمير نبيه و عبد الرحمن حجازى

مراجعة :

طلعت الشايب

880

المشروع القومى للترجمة

الواحات المفقودة

تأليف

أحمد محمد حسنين بك

ترجمة

أمير نبيه و عبدالرحمن حجازى

مراجعة

طلعت الشايب



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٨٠
- الواحات المفقودة
- أحمد محمد حسنين بك
- أمير نبيه
- عبد الرحمن حجازى
- طلعت الشايب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

هذه ترجمة كتاب:

THE LOST OASES
A. M. HASSANEIN BEY
THORNTON BUTTERWORTH LIMITED
FIRST PUBLISHED, 1925

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القـومى للترجمـة إلـى تقـديم مختلـف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بهـا، والأفكـار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

مقدمة المترجمين:..9
شكر وتقدير:...15
الصحـــراء:..19
الفصل الأول: التخطيط للرحلة...27
الفصل الثانى: مباركة الأمتعة..31
الفصل الثالث: المؤن والتجهيزات......................................35
الفصل الرابع: الخطط والنذر...47
الفصل الخامس: السنوسية..57
الفصل السادس: سلام جغبوب..73
الفصل السابع: الغذاء والدواء..83
الفصل الثامن: الطريق إلى جالو والعواصف الرملية..................91
الفصل التاسع: فى واحة جالو...103
الفصل العاشر: الرحلة...123
الفصل الحادى عشر: الطريق إلى بئر زيغن............................143
الفصل الثانى عشر: الصحراء المتغيرة وتصويب الخرائط.........167
الفصل الثالث عشر: الكفرة.. الأصدقاء القدامى وتغيير الخطة....181
الفصل الرابـــع عشر: الكفرة وموضعها على الخريطة..............195
الفصل الخامس عشر: واحة أركينو المفقودة.........................211
الفصل السادس عشر: واحة العوينات المفقودة......................227

الفصل السابع عشر: السير ليلاً إلى إردى................................243
الفصل الثامن عشر: الدخول إلى السودان................................263
الفصل التاسع عشر: إلى فوراويا مع نقص المؤن.....................281
الفصل العشرون: نهاية الرحلة...297

إهداء إلى:

الأستاذة الدكتورة شهرت العالم

السـيدة الأستاذة حيـــــاة على

عرفانًا وتقديرًا..

المترجمان

مقدمة المترجمَين

عندما كنا صغارًا كان الأطفال يحدثوننا عن "صندوق القصص"، وهو صندوق تخرج منه وتختفى فيه كل القصص الغريبة والطريفة، ولا ندرى لماذا تذكرنا ذلك الصندوق العجيب عندما قرأنا - للمرة الأولى؛ هذا الكتاب؛ فقد اكتشفنا أننا أمام عالم من القصص الغريبة، أو قل إنه زخم منها، ورغم أن المؤلف لم يروِ سوى الحقيقة - بكل ما فيها من طرافة وجمال فى بعض الأحيان، وقسوة وآلام فى أحيان أخرى ؛

فقد جعلنا نتساءل: ما كل هذا؟! فالصحراء - كما نعرفها - هى تلك المساحة القفر التى لا تحوى سوى الفراغ، أو الأطلال، أو السراب، بينما جعلنا أحمد محمد حسنين بك نشعر أننا أمام اكتشاف جديد! فقد صحبنا إلى عالم لم نألف مفرداته، وفتح لنا أبوابًا لم نحسب أن لها وجودًا.

وعندما بحثنا عن هذا الرجل، جاءت الإجابة لتعيدنا من جديد لذكرى صندوق الطفولة؛ فحياته قصة غريبة بحق، بل هى عشرات القصص، حتى إننا وجدنا أنفسنا بعد فترة ندعوه فيما بيننا "رجل القصص" أو "سيد المتناقضات"؛ فهو ابن أحد شيوخ الأزهر، لكنه درس وتخرج فى أوكسفورد، فى زمنٍ لم يكن فيه هذا الأمر مألوفًا على الإطلاق. عمل فى وزارة الحربية والداخلية والخارجية، وتدرج فى مناصب القصر الملكى ليصبح فى سنوات قليلة الأمين الثانى للملك فؤاد، ورائد الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد، ثم أمينه

الرجل الذى يُغيِّر الوزارات ويُسقطها رغم أنه كان حريصًا علـــى أن يبدو فى صورة الزاهد المترفع عن أمور الساسة والسياسة. عُدَّ بحكم مولده من عامة الشعب، لكنه تزوج من السيدة لطيفـــة يســـرى ابنـــة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد وحفيدة محمد على باشـــا مؤســـس الأسرة العلوية، وطلقها رغم أنه كان يحبها، ورغم أنه كان مقدرًا لها أن ترث الملايين بعد وفاة والدتها، ليتزوج – عُرفيًّـــا – مـــن والـــدة الملك فاروق – الملكة نازلى – بناء على رغبتها، وبناء على طلـــب الملك فاروق نفسه، علَّه يستطيع أن يكبح جماح نزواتها التى كانـــت تسىء للأسرة المالكة. حاول فى يوم من الأيام أن يكون أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من أوروبا إلى مصـــر، وســـقطت بـــه الطائرة مرتين فى فرنسا وإيطاليا، ونجا من الموت فيهما بأعجوبـــة، وأصلح عطب الطائرة وقرر استئناف رحلته، لولا أن الملـــك فـــؤاد أرسل إليه برقية يأمره فيها بالعدول عن الطيران والعودة إلى مصـــر على أول باخرة. كان بطل مصـــر فـــى لعبـــة " ســـلاح الشـــيش"، والمصرى الوحيد الذى اشترك فى الدورة الأوليمبية الخامســـة التـــى أقيمت فى أستوكهولم عام ١٩١٢، ورئيس النادى الأهلى المصـــرى. كان كل هذا وأكثر، لكن الأوراق لا تتسع للحديث عن هذا الرجل، إلا أنه من بين كل قصصه التى شارك فى صـــنعها أو حُكيـــت عنـــه لا نستطيع إغفال قصة بعينها لعلها هى السبب الرئيسى فى هذه الرحلـــة وهذا الكتاب. ففى عام ١٩٢١ قرر أحمد محمد حسنين بك التوجه فى رحلة إلى واحــــة "الكفرة" التى تقع فى قلب الصحراء الليبية، وكان صاحب الفكرة ومنظم الرحلة وقائدها، وفى أثناء إعداده لهـــا طلبـــت منه السيدة "روزيتا فوربس" الإنجليزية أن تذهب معه، ونظرًا لأنهـــا

كانت تحمل خطاب توصية من صديق عزيز عليه وافـق علـى أن ترافقه فى هذه الرحلة؛ فتستر عليها وزعم أنها زوجته وأنها مسـلمة، وألبسها ثيابًا عربية، وأسدل على وجهها حجابًا كثيفًا، وإلا لما سـمح البدو لهذه الأجنبية بالتوغل فى عالمهم، وعاش أحمـد حسـنين مـع "روزيتا فوربس" أسابيع عديدة، تجمعهما خيمة واحدة، لكنه لم يحاول الاقتراب منها، أما هى فقد حاولت، لكنه أبَى وترفع، وعندما سُئِل هل قُدَّ قميصك من دبرٍ، أجاب ضاحكًا بأن المسألة لم تصل إلى هذا الحد، وعندما تعجب السائل من هذا الرد وقال لـه "ولكن كيف هـذا؟ فقد كنت فى عنفوان شبابك وروزيتا امرأة جميلة، وكنتما فى الصـحراء أسابيع عديدة تجمعكما خيمة واحدة كثيرًا من الليالى، والبـدو الـذين يرافقونك يعتقدون أنها زوجتك وما أنت بولىٍّ أو قديس"، فضحك قائلاً لأن الأزهر انتصر هذه المرة على أوكسفورد؛ أى أن نشأته وجذوره غلبت على ثقافة صباه وموطن علمه، وعندما عادت روزيتـا إلـى إنجلترا وضعت كتابين هما "سر صحراء الكفـرة"، و"الطريـق إلـى الكفرة عبر الصحراء الليبية"، نسـبت فيهمـا فضـل هـذه الرحلـة لنفسها،وادَّعت أن أحمد حسنين كان أجيرها ومترجمها فقط، وأخـذت برأيها صحف عديدة فى أوروبا وأمريكا، وألحَّ بعض الإنجليز - من أصدقاء أحمد حسنين الذين كانوا يعرفون حقائق الرحلة، وأنه صاحب الدور الرئيسى والفضل الأول والأخير فيها - على أن يرد على هذه الادعاءات ويفند مزاعم روزيتا، لكنه رفض. فقد شعر وقتها أنـه إن تكلم فكأنما يتسول حقه، وهو من تأبى كرامته مثل هذا السلوك، كمـا رفض أن يجتر أحزانه ويمكث بجوارها ينعى حظه؛ فهـو المقاتـل بالغريزة، وقـام فى العـام التالى - بمفرده - برحلة ثانيـة، ولكـن

بالغريزة، وقـــام فى العـــام التالى - بمفرده - برحلة ثانيـــة، ولكـــن هذه المرة قرر أن يعبر مناطق لم يألف البدو أنفسهم عبورها، ونجـــح فى رصد الكثير من الظواهر الطبيعية والبشرية، وكان لهذا الاكتشاف دوى كبير فى مصر وجميع أنحاء العالم، حتى إنه قد نظمـــت حفلـــة على شرفه فى دار الأوبرا الملكية، حضرها الملك فؤاد الأول، وألقى فيها أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة مدح فيها أحمد محمد حســنين بك كان مطلعها:

أَقدِمْ، فليـــــسَ علَى الإِقْدامِ مُمتنع ... واصنَعْ بهِ المجدَ فهو البارعُ الصنِعُ
لِلناسِ فى كُلِّ يَوْمٍ مِنْ عجائبـــــهِ ... ما لَمْ يَكُنْ لامْرِئ فى خاطِرٍ يقـــعُ

وأفاض شوقى بك فى وصف هذا الإنجاز الذى تحقق خاصة فى قوله:

أكبَرْتُ مِنْ (حَسنين) هِمَّةً طمَحتْ ... تـَرومُ ما لا يَرومُ الفِتيـَــةُ القنــعُ
وَما البُطولَةُ إلا النَّفْــسُ تَدفعُهــا ... فيمــا يُبلِّغُهـــــا حَمـدًا فَتَنْدَفِــع
وَلا يُبـــالى لَهـــا أَهْلٌ إذا وَصلوا ... طاحوا علَى جَنباتِ الْحَمْدِ أَمْ رجَعوا
رَحَّالةَ الشَّرقِ، إنَّ الْبيدَ قَدْ عَلِمَتْ ... بِأنــكَ اللَّيثُ لَمْ يُخْلَــقْ لَهُ الفــزَع
ماذا لَقيتَ مِنَ الدَّوِّ السَّحيقِ، وَمِنْ ... قَفْرٍ يَضيقُ علَى السّارى، وَ يتَّسع؟
وَهَل مَــررْتَ بأقْــوامٍ كَفِطْرتِهِمْ ... مِــنْ عَهْدِ آدَمَ لا خُبْثٌ وَلا طبـــع؟
وَمِنْ عَجيبٍ لِغَيْرِ اللهِ ما سَجَــدوا ... علَى الفَـــــلا، ولِغَيْرِاللهِ ما رَكَعــوا
كَيْفَ اهْتَدى لَهُم الإسلامُ، وَانْتَقَلتْ ... إليهِمُ الصّلَواتُ الخَمْــسُ وَالجُمَـــع؟
جَزَتْك مِصرُ ثَناءً أَنْتَ مَوْضِعـُهُ ... فَلا تَذُبْ مِنْ حَاءٍ حينَ تَسْـــتَمِـــعُ
وَلَوْ جَزَتْكَ الصَّحارى جِئتنا مَلِكًا ... مِنَ الْمُلوكِ، علَيك الرّيشُ وَالوَدَع

كما تسابقت الدول والمؤسسات لتكريمه والاحتفاء به؛ فاجتمعت الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن ومنحته ميداليتها الذهبية، وهى أسمى وسام يمكن للجمعية أن تقدمه لكبار المستكشفين، وانهالت عليه الأوسمة والأنواط والنياشين من دول العالم المختلفة تقديرًا لهذا الاكتشاف، ومنها وسام "سان لازار" الذى منحته إياه الحكومة الإيطالية، وهو يعد من أرفع الأوسمة الإيطالية شأنًا. وفى إحدى المناسبات التى نظمت على شرفه، التقى أحمد حسنين مع روزيتا فوربس، وكان يضع على صدره وسام "سان لازار" فسألته فى سخرية "عن أى عمل استحققت عليه هذا الوسام؟" فأجابها أنه استحقه لطهارته وعفته، ورغم أنه اعترف فيما بعد أنه ندم على هذا القول، فإنه وجد نفسه مدفوعًا لقوله إزاء ترفعها وادعائها، وقرر أن يكتب كتابًا باللغة الإنجليزية يصف فيه رحلته الأخيرة ليكون بمثابة ردٍّ على كتابات فوربس.

وقبل أن ننهى حديثنا عن أحمد حسنين بك فلابد أن نشير إلى أن القدر أبَى أن يترك هذا الرجل يرحل عن عالمنا دون أن يجعل من نهايته قصة عجيبة تُضاف إلى رصيد القصص التى ارتبطت به؛ ففى ١٩فبراير ١٩٤٦ تُوفى أثر حادث سيارة فوق كوبرى قصر النيل، أشار كثيرون إلى الشبهات التى كانت تحوم حوله، وبمجرد أن وصل الخبر إلى الملك فاروق توجه على الفور إلى دار أحمد حسنين، وأمر بجمع كل أوراقه الخاصة، ومن بينها عقد زواجه العرفى من الملكة نازلى، وأنعم على أحمد حسنين بالوشاح الأكبر " نيشان محمد على"،

ورغم أن هذه المقدمة القصيرة قد لا تفى المؤلف حقه، فإننا حاولنا - قدر الإمكان - أن نترك للقارئ الفرصة الأكبر ليرافقنا داخل أحد صناديق القصص الحقيقية أو عوالمها.

وقبل أن نبدأ رحلتنا ينبغى أن نوضح للقارئ أن هذه الرحلة امتدت عبر أربع دول هى على الترتيب وفق الوضع السيادى الحالى: مصر، وليبيا، وتشاد، والسودان.

وعلى الله قصد السبيل،

المترجمان

شكر وتقدير

أدين كثيرًا للدكتور جون بول JOHAN BALL مدير المساحة الصحراوية المصرية الذى تفضل بإيجاز النتائج العلمية لبعثتى، كما كانت نصائحه وتعليماته التى أعطانى إياها لاستخدام الأدوات العلمية لا تقدر بثمن؛ إذ كنت بالفعل سعيد الحظ أن أعتمد على علمه الغزير.

فخريطة رحلتى - أحد مرفقات هذا الكتاب - تفضل بإعدادها كل من الدكتور بول والسيد برون BROWN بالإضافة إلى الزملاء الآخرين فى إدارة المساحة المصرية.

كما قام كل من الدكتور هيوم HUME والسيد مون MOON من إدارة المساحة الجيولوجية المصرية بتصنيف العينات الجيولوجية التى أحضرتها معى، وأعدا تقريرًا جيولوجيًا مهمًا. ومن خلال مساعدتهما الطوعية أضافا الكثير إلى نتائج بعثتى.

بينما كان اللواء سبينكس SPINKS باشا، وميشلانى MESHALANI بك من إدارة المدفعية بوزارة الحربية مسئولين عن إعداد الصناديق والحاويات وكل تجهيزات التخييم التى استخدمتها، والتى أثبتت كفاءتها فى كل الأحوال، وأنا ممتن للعناية من الأفكار التى بذلاها فى الإعداد لهذا الأمر.

أما صديقى القديم السيد الشريف الإدريسى، وابنه السيد مرغنى الإدريسى فقد واصلا مشورتهما الأمينة ومساعدتهما الحاضرة دائمًا، والتى سبق أن حظيت بها منهما فى أثناء رحلتى للكفرة عام ١٩٢١.

وخلال بعثتى تلقيت أكثر المساعدات فاعليةً وودًّا من كـــل مـــن الكولونيل هنتر HUNTER باشا مدير إدارة المناطق الحدودية السابق، والكولونيل م.ماكدونيل M.MACDONNELL مدير الصحراء الغربيـــة السابق، والميجور ألبرت HALPERT والكابتن أتون HUTTON مـــن قيادة السلوم، والكابتن هاريسون المسئول عن السيارات المدرعة فـــى السلوم، وكل من السيد عبد العزيز فهمى أفندى، والسيد أ.كامل أفندى مأمورىّ السلوم وسيوة، والملازم لاولر LAWLER من سيوة.

وعندما وصلت إلى السودان كان طريقى أكثر سهولةً ويسرًا من خلال عطف صاحب السعادة الفريق لى ســتاك LEE STACK باشـــا السردار والحاكم العام للسودان، ولا أستطيع أن أترك هـــذه الفرصـــة تمر دون أن أعبرَ عن شكرى الحار لكل الموظفين الرســميين فـــى الحكومة السودانية على امتداد طريقـــى، خاصـــة اللـــواء ميـــدوينتر MIDWINTER باشا نائب الحاكم العام للسودان، واللـــواء هودلســـتون HUDDLESTON باشا نائب السردار، والقائم مقام م. حافظ بـــك مـــن الفرق العسكرية فى الخرطوم، والسيد هـــ.أ. ماك مايكل H. A. MAC MICHAEL وكيل مساعد الوزارة المدنية، والكابتن ج. إى. فيليـــبس J.E. PHILIPPS و صموئيل عطية بك، وأحمد السيد من الخدمة المدنية السودانية، والسيد شارلز دوبويسCHARLES DUPUIS نائب الحـــاكم فى دارفور، والصاغ أ. حلمى فى الفاشـــــر، والسيد ج. د. كـــرايج J.D. CRAIG حاكم كردفـــان، والبمباشـــى أ. خليـــل فـــى الأبـــيض، والضباط، والمسئولين، والأعيان فى "الفاشر" و"الأبيض".

كما أننى ممتن للبمباشى ج. ف. فولى G.F FOLEY. من وحـــدة المدفعية فى "الفاشر".

وأدين على وجه الخصوص لكل من السـيد هارولــد هولانــد HAROLD HOWLAND والسيد و. هـ. ل. واطسون W.H.L.WATSON صديقىّ القدامى فى أوكسفورد لمســاعداتهما التــى لا تقــدر بــثمن ونصائحهما القيمة فى إعداد هذا الكتاب.

الصحراء

«فى رحلتى الأولى للصحراء الليبية[1] أخذت على نفسى عهدًا بأننى لن أعود إليها مرة أخرى».

كنا قد ضللنا طريقنا وفقدنا كل آمالنا، ولم تبدُ أية إشارة للواحة التى ننشدها أو علامة على وجود أية بئر قريبة، بدت الصحراء قاسيةً لا ترحم أو تقبل اللين، ووقتها أقسمت ألا أعود إليها مرة أخرى إذا ما كُتِب لنا أن نخرج منها على قيد الحياة.

وبعد سنتين من هذا التاريخ كنتُ قد عدتُ إلى الصحراء ذاتها، وإلى الموضع نفسه الذى ضللنا فيه طريقنا، وتحديدًا عند البئر ذاتها التى أنقذت حياتنا فى المرة السابقة؛ فالصحراء تدعوك إليها، ولكن ليس من السهل سبرغور فتنتها وسحرها.

ولعل أروع ما فى حياة الصحراء هو ليلها؛ فأنت تسير طوال اليوم بأقدام متقرحة؛ لأن السير أقل ألمًا من امتطاء الإبل، وتجارى القافلة بأعين نصف مغلقة، وتتبع إيقاع خطوات الإبل على نحو آلى، وحلقك يحترق ظمأً، ولا توجد بئر مياه على مرمى البصر. أما الرجال الذين يتبعونك فلا مزاج لهم للغناء، وجوههم مجهدة، وأعينهم محتقنة بالدم، وهى تتطلع - بلا تعبير، وبلا هدف - إلى تلك التدرجات اللونية الباهتة التى تتراوح بين صفرة الرمال الشاحبة وزرقة السماء، بينما قرب المياه مدلاة على جانبى الإبل.

---

(١) كانت هذه الرحلة عام ١٩٢١.

إننا لا نتحدث كثيرًا في الصحراء؛ فهي تُنجب الصمت وتعلمه، وعندما نكون في مشكلة ما فإننا نتجنب النظر إلى أعين الآخرين؛ فلا حاجة بنا إلى الخُطب أو الكلمات الرنانة. فالكل يعرف ما يحدث، والكل يتحمله بجلد وكبرياء؛ لأنك لو تذمرت فأنت تلقى باللوم على الله، سبحانه وتعالى، وهو الأمر الذى لا يجرؤ أن يقترفه أى بدوى، فهذه هى الحياة التى أعدت من أجله. إنه الطريق الذى كتبه الله عليه أن يسلكه؛ لذا يجب عليه أن يقبله، ربما يقوده إلى الموت الذى اختاره له الله سبحانه وتعالى، إلا أنه لا يوجد من يستطيع الفرار مما كتبه سبحانه وتعالى، والبدوى يردد دائمًا قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾،[٢] لكن فى مثل هذا الوقت قد تُقسم أنك لو نجوت بحياتك، فإنك لن تعود إلى هذه الصحراء مرة أخرى.

عندما يصل يوم العمل إلى نهايته، يُنصب المخيم، ولا ترتفع أية خيمة؛ فالرجال منهكون للغاية، ولا يُبالون بما أصاب أجسادهم. ويُرخى الليل سدوله، وقد تكون ليلة ترصعها النجوم، وقد يكون هناك قمر، وتدريجيًا تعمُّ السكينة، ويبدأ الحديث بعد يوم من الصمت، تتقارع النكات الواهنة وتتبادل، وفجأة يغامر أحد الرجال - ربما أصغرهم سنًا - بإلقاء نكتة أكثر بهجة من الآخرين بصوت أعلى من أصواتهم، وبلا وعي يرفع البدو أصواتهم بالضحك، وتزداد طبقة الصوت وارتفاعه. إنها الصحراء وهى تمارس سحرها!

نسمات الليل الرقيقة تنعش أرواح القافلة، وخلال دقائق تُستخدم الفناطيس الفارغة كطبول ليبدأ الرقص والغناء.

---

(٢) سورة النساء: آية ٧٨.

ومع أول صوت للموسيقى قد يكون الرجال فى عملهم: يعتنــون بالإبل أو يصلحون أحمالهم أو سروج إبلهم، ولكن أول نغمة موسيقية تجلب القافلة بأثرها حول لهيب النار المتقد. كل فــرد يبحــث عــن رفيقه، ليتأكد أنه لا يزال سعيدًا وعلى قيد الحياة، يحاول أن يبدو أكثر مرحًا من جاره ليمنحه مزيدًا من الثقة. إنها لعبة الثقة عنــدما تبــدو شاحبةً فى بدايتها؛ فنحن نجبر أنفسنا على أن تبتهج، نستخف بمشاكلنا ومعاناتنا فيقول أحدهم "الإبل كلها بخير ... لقد رأيت ذلــك الجــرح، وهو ليس خطيرًا كما كنت أظن"، ويقول آخر "إن بوحسان قال إنـــه لمح علامة تشير إلى وجود بئر ليس بعيدًا من يميننا"، نجهــد أنفســنا أكثر وأكثر حتى نوهمها أن كل شيء على ما يُرام بالفعل. إن الأمــر برمته خدعة – ربما من بدايته إلى نهايته – لكنه ســحر الصـــحراء عندما يهيمن.

إن الأمر أشبه برجل متيم بامرأة فاتنة، لكنهــا قاســية، تعاملـــه معاملة سيئة والعالم ينهار بين يديه، بينما تبتسم لـــــه فـــى المســاء ليصبح العالم كله جنةً. وعندما تبتسم الصحراء فلا يوجد موضع على الأرض يعادل العيش فيها.

يستنزف الرقص والغناء من أفراد القافلة ما تبقى مــن النشـــاط الذى سلبه اليوم منهم، تنهك أرواحهم حتى يسقطوا نيامًـــا، ينـــامون تحت قبة السماء الجميلة التى ترصعها النجوم، وقليــل مــن أفــراد الحضر يعرفون متعة الجلوس والتطلع للنجوم. ولا عجب أن العرب برعوا فى علم الفلك! فعندما ينتهى يوم العمل فإن البدوى الوحيــد لا يتبقى لـــه شيء سوى الجلوس ومراقبة حركـــة النجــوم، والشـــعور بالسمو والسكينة التى تمنحها للروح.

وهذه النجوم تصبح مثل الأصدقاء الذين يقابلهم المرء كل يـوم، وعندما يرحلون فإن الأمر ليس مؤلمًا كإيلام الرجال عنـدما يـودع بعضهما بعضًا عند الفراق، بل إنه أشـبه بمشـاهدة صـديق يغيـب تدريجيًّا عن البصر مع الأمل فى رؤيته مرة أخرى فى الليلة القادمة.

"حى على الصلاة ... الصلاة خير من النوم"

كانت هناك بضعة نجوم لا تزال صامدة فـى السـماء، عنـدما انطلق تكبير أول رجلٍ استيقظ فى القافلة، نهض الجميع، وليس هناك عبارة تصف حالهم أكثر من القول إنهـم كـانوا يجمعـون شـتات أجسادهم؛ فأوصالهم تؤلمهم، وحلوقهم لا تزال جافة، ومع هذا فمـاذا غيَّر حالهم على النحو الذى أصبحوا عليه؟ أصبح هناك أمل لـديهم، بل ربما ثقـة، أو قل يقين داخلى أن كل شىء سوف يصير على مـا يُرام.

فى هذه الأثناء كان العالم لا يزال رماديًّا فارغًا، ولا توجد سوى نيران الصباح وهى تقاوم نسمات الشمال البـاردة، وعيوننـا تتجـه غريزيًّا صوب الشرق حيث تُشرق الشمس، وإذا لم تكن هناك سحب فإن السماء تتلون بصفرة باهتة تلقى ظلالاً طويلة محيرة خلف الإبـل والرجال، شاحبة للغاية حتى تستطيع بالكاد تسميتها ظلالاً، ثم يـأتى اللون الضارب إلى الحمرة الذى يمنح الدفء للمكان والألوان تظهـر بالضبط فى الفترة ما بين بزوغ الفجر وشروق الشمس؛ إذ بمجرد أن تشرق الشمس لن تجد شيئًا سوى امتدادات لا تنتهـى مـن اللـونين الأصفر والأزرق، ويظل اللون الأزرق يتلاشى ويتلاشى حتى تصبح السماء – فى منتصف النهار تقريبًا – بلا ألوان.

يجلب الصباح معه النشاط، بينما يجلب الليل السلام والسكينة، وهو الوقت الذى يعرف فيه المرء سحر الصحراء.

ففى صمت هذا الفضاء الشاسع المفتوح تصبح الحواس البشرية أكثر حدةً، وفى النهاية يستطيع المسافر فى الصحراء أن يشعر باقترابه من بعض الواحات المأهولة بالسكان، بمثل ما تخبره غريزته عن وجود أى كائن حى على بعد بعض مئات من الأميال. وفى الصمت اللامتناهى للصحراء يتطهر الجسد والعقل والروح، ويشعر المرء أنه قريب من الله – سبحانه وتعالى – يشعر بحضرة قوته الجبارة، التى لا يستطيع أى شىء بعد ذلك أن يحول انتباهه عنها، وتدريجيًّا تُفضى هذه الجبرية الحتمية والإيمان الراسخ بحكمة الله – سبحانه وتعالى – إلى الترفع؛ حتى إنه قد يقدم حياته للصحراء دون تذمر. نعم هناك أوقات يشعر فيها المرء بالفعل أن الأمر لا يهم!.

تُخرج الصحراء أفضل ما فى الإنسان، بينما تدفع الحضارة البشر إلى مجابهة الخطر، حتى يقاتل كل فرد من أجل نفسه ومن أجل سلامته، بينما فى الصحراء تصبح الذات أقل أهمية؛ فالكل يحاول أن يقدم أقصى ما يستطيعه من أجل رفاقه. دع كارثةً تهدد قافلةً ما، وقد يكون لدى أحد الرجال فرصة لأن ينجو بنفسه، لكننى لا أصدق أن هناك بدويًّا يهجر رفاقه حتى ينقذ حياته، ومن أكثر الأمور المروعة التى قد تحدث فى الصحراء نقص المياه، وقد تعتقد فى هذه الحالة أنك سوف تحاول الاحتفاظ بما معك من مياه من أجل نفسك، إلا أنه بدلاً من ذلك سوف تجد نفسك مع زمزميتك المفضلة، تأخذها بيديك، وتدور بها على الرجال متسائلاً إن كان أى منهم يبغى الشرب

أم لا، تفعل ذلك بشكل غير مبالٍ كما لو كان هناك الكثير من الماء ومخزونه؛ فمسألة السلامة الشخصية تتضاءل، وأيًّا كان ما يحدث.. فليحدث للقافلة بأسرها؛ فأنت لا تريد أن تفر بمفردك؛ ذلك هو الشعور الذى يتملكك.

لذا لم أكف مطلقًا عن الإعجاب بسكينة البدو وشجاعتهم اللتين لا يعكرهما شىء.

* * *

عند السفر فى الصحراء هناك ثلاثة عناصر رئيسية هى: الإبل والماء والدليل؛ أما **الإبل** – فهى أهمها، إذ قد تفقدها دون أن تدرى سببًا لذلك، كما حدث عندما مات أحد أفضل إبلى فى الليلة التالية لمغادرتى "الكفرة"، بينما فى المقابل صمد أضعف إبل القافلة لمسافة تربو على ٩٥٠ ميلاً قطعها من "الكفرة" إلى "الفاشر" وهو يترنح تحت وطأة حمولته، وعلى الرغم من توبيخى لمالكه لأنه ضم للقافلة مثل هذا الحيوان الذى يُرثى له، فقد أجاب وقتها بأن الله سوف يحرسُه، وللحقِ فقد حماه الله، إلا أن موت أحد الإبل فى الصحراء يعد خطبًا جللاً؛ لأنه يعنى ضياع معظم أو كل حمولته.

أما **الماء** فيحمل – فى الغالب الأعم – فى قِرب مصنوعة من جلد الضأن، ومعظم هذه القِرب تُختبر لأيام وأسابيع عديدة قبل استخدامها، وقد تكتشف فجأة أن الماء بدأ يتسرب أو يتبخر من بعضها، أو قد يرتطم جملان ببعضهما خلال رحلة الليل مما ينجم عنه انفجار قربة أو اثنتين.

أما **الدليل** فقد يقول لأسباب عدة إن " رأسه قــد دارت ودارت"، وهو ما يعنى أنه قد ضل وجهته، خصوصًا إذا ما كانت هناك سحب قد أخفت الشمس لبضع ساعات، أو قد يؤدى خطأ مــا فــى إحــدى العلامات الأرضية إلى أن يضل الدليل طريقه.

ولكن هناك أمرًا يظل أكثر أهمية من هذه العــناصــر الثلاثــة - الإبل، والمياه، والدليل - وهو **الإيمان**، الإيمان العميــق الــذى لا حدود له.

* * *

يمكن للصحراء أن تكون جميلة وكريمة حين تسير القافلة نشيطة وسعيدة، إلا أنها يمكن أيضًا أن تكون قاسية ومهلكة، والقافلة التعســة التى ضربها سوء الحظ تتقدم وهى تترنح فى يأس. يحدث ذلك عندما تتدلى رءوس إبلك من الإجهاد والعطش، وعندما ينفد مخزون مياهك، ولا تلمح أية إشارة أو علامة للبئر التالى، وعندما تفتر همة رجالــك ويصبحون بلا أمل، وعندما تجد الخريطة التى تحملها بيضــاء؛ لأن الصحراء التى تجتازها لم يطرقها أحد من قبل، وعندما تسأل دليلــك عن الطريق فيجيبك بهز كتفيه: "الله أعلم"، وعندما تمسح الأفق وكــل ما يحيط بك وأينما تنظر فلا تجد سوى خطوط متدرجة بــين زرقــة السماء الشاحبة وصفرة الرمال، وعندما لا توجد أية علامة أرضــية أو إشارة تعطى شيئًا طفيفًا للأمل، وعندما يبدو هذا المدى الفسيح مثل دائرة يزداد إحكامها حول حلقك الجاف، عندها يشعر البدوى أنه فــى حاجة إلى قوة أكبر حتى من هذه الصحراء متحجرة القلب، وعنــدها سوف يصلى البدوى لربه القوى لينقذه، وعندما يتلو صلاته الأخيــرة

ولا تُقبل، يلف "جيرده" حوله، ويغوص فى الرمـــل منتظـــرًا – فـــى رباطة جأش مذهلة – الموت المحتوم، هذا هو **الإيمان** الذى يجب أن تتخذه الرحلة التى تعبر الصحراء.

لكل هذا فالصحراء قاسية لا ترحم، إلا أن كل مَنْ عرفهـــا ذات مرة لابد أن يعود إليها.

الفصل الأول

التخطيط للرحلة

«هذه هى قصة الرحلة التى قمت بها عام ١٩٢٣، من "السلوم" على ساحل البحر الأبيض المتوسط، إلى "الأبيض" فى السودان، "وتبلغ تلك المسافة نحو ٢٢٠٠ ميل"، وخلالها أسعدنى الحظ أن أكتشف واحتين مفقودتين هما: "أركينو"، و"العوينات" اللتان كانتا فى السابق مجهولتين للجغرافيين تمامًا».

ورغم أن رحلتى هذه كانت فى المقام الأول رحلة للاستكشاف العلمى، فقد حاولت - فى هذا الكتاب - ألا أضجر القارئ بالأمور التقنية، وأن أسرد الأحداث على نحو مباشر، والتى قد تكون فى بعض أجزائها شيقة حتى لأولئك الذين لا يعرفون شيئًا عن مصر أو السودان أو الصحراء الليبية.

كان أقصى طموحاتى أن أصل إلى "الكفرة" - مجموعة الواحات التى توجد فى الصحراء الليبية - التى لم يزرها أى مستكشف من قبل سوى الرحالة الألمانى الجسور رولفس ROHLFS الذى نجح فى الوصول إليها عام ١٨٧٩، ولكنه استطاع بالكاد أن ينجو بحياته، ودُمرت كل مذكراته وملاحظاته العلمية.[٣]

---

(٣) فى عام ١٨٧٣ قام المستكشف الألمانى جيرارد رولفس Gerhard Rolfs بدعم من الخديو إسماعيل بمحاولة عبور بحر الرمال العظيم لكى يصل إلى "الكفرة" عبر واحة "الدخلة"، إلا أن جمله المحمل بأحمال ثقيلة عجز عن عبور الكثبان الرملية العالية،=

وفى عام ١٩١٥ أسعدنى الحظ أن ألتقى فى القاهرة بالسيد إدريس السنوسى الزعيم الشهير لإخوان السنوسية، بينما كان فى طريق عودته من مكة بعد أدائه مناسك الحج، و"الكفرة" هى عاصمة السنوسية. وفى عام ١٩١٧ ذهبت فى مهمة رسمية لمقابلة السيد إدريس بمرافقة الكولونيل ميلو تالبوت MILO TALBOT – الضابط المتميز الذى تقاعد من الجيش المصرى ثم عاد إلى الخدمة مرة أخرى إبان الحرب العالمية – فى " زويتينا"، ذلك الميناء الصغير القريب من واحة "جدابيا" التى تقع فى "برقة"، ووقتها جددت تعارفى بهذا الرجل البارز، وانتهزت الفرصة وصارحته بطموحى، وكان السيد إدريس بالغ المودة معى، وطلب منى أن أخبره بالموعد الذى أعتزم فيه القيام برحلتى، حتى يقدم لى المساعدة والدعم اللذين قد تكون الرحلة إلى "الكفرة" دونهما أمرًا بعيد المنال.

قابلته مرة أخرى فى " أكراما " بالقرب من " طبرق"، وأخبرته وقتها أننى سوف أبدأ الرحلة بمجرد أن أتحرر من مسئولياتى العسكرية، وكان معى فى " طبرق " آنئذٍ السيد فرانسيس رود FRANCIS RODD أحد أصدقاء الدراسة القدامى فى باليول[٤] BALLIOL، وقررنا وقتها أننا سوف نذهب سويًا.

=وأجبرته القبائل على أن يستدير صوب الشمال، وأن يسافر بين ممرات الكثبان الرملية إلى " سيوة " لينجو بحياته، وفى النقطة التى أجبر فيها على تغيير اتجاهه، أطلق عليها Regenfeld أو حقل المطر إذ أمطرت السماء بشدة فى هذا اليوم، وهناك شيد رولفس نصبًا تذكاريًا كتب عليه أنه زار هذه المنطقة عام ١٨٧٤، ورغم فشله فى هذه المحاولة فإنه أعاد تكرارها من جديد وسلك اتجاهًا مغايرًا هذه المرة؛ إذ بدأ رحلته من الشمال وسار صوب الجنوب إلى أن وصل إلى "الكفرة" ليصبح أول رجل أوروبى يصل إلى هناك وذلك فى عام ١٨٧٩. "المترجمان"

(٤) إحدى كليات جامعة أوكسفورد. "المترجمان"

وعندما انتهت الحرب، حملت إلىَّ السيدة روزيتا فوربس ROSITA FORBES " (التى تدعى الآن السيدة أ. ماك جراث) خطاب توصية من السيد رود وطلبت الإذن فى أن ترافقنا؛ لذا شرعنا ثلاثتنا فى التخطيط لتلك الرحلة، ولكن عندما حل موعد الرحيل وانضمام السيد رود إلينا حالت الظروف دون ذلك، وفى النهاية نجحت أنا والسيدة فوربس وبالتعاون الصدوق من السلطات الإيطالية، وبدعم السيد إدريس ومساعدته – الذى زودنا بقافلتنا – فى أن نخرج للرحلة عام١٩٢٠، وأن نصل إلى "الكفرة" فى يناير ١٩٢١.

لكن رحلتى إلى "الكفرة" بما حملته من إثارة أغرتنى باكتشاف تلك الصحراء المجهولة الشاسعة التى تمتد خلفها، كما كانت هناك شائعات أيضًا عن واحات مفقودة لا يعرف عنها سكان "الكفرة" أنفسهم شيئًا سوى ما يقال ويتردد فيما بينهم. عدت إلى القاهرة عازمًا على أن أجهز حملة أخرى، تتوجه مباشرة صوب الجنوب عبر صحراء غير معروفة إلى أن تصل إلى الوادى والسودان بدلاً من العودة مباشرة إلى "الكفرة" كما فعلت أنا والسيدة فوربس من قبل.

إلى جانب هذا، كان كل ما معى فى رحلتى الأولى من أدوات علمية يقتصر على بارومتر معدنى،[٥] وبوصلة

(٥) جهاز يُستخدم لقياس الضغط الجوى، ونظرًا لأن الضغط الجوى يختلف من منطقة إلى أخرى بحسب منسوب ارتفاعها عن سطح البحر، فتستخدم قراءة هذا الجهاز لمعرفة مناسيب الأماكن المختلفة، وعلى الرغم من أن النتائج المتحصلة من هذا القياس لا تعد دقيقة للغاية إلا بعد معالجتها بالكثير من المعاملات الحسابية، فإنها تعد من أفضل الطرق وأسهلها فى عمليات استكشاف المناطق غير المأهولة بالعمران، خاصة تلك المناطق التى لا تتوفر لها خرائط طبوغرافية دقيقة. "المترجمان"

منشوريــة؛[٦] لذا لم أتمكن من جمع ملاحظات علمية دقيقة، وكل ما عدت به كان بضع نقاط عن أحداثيات للطريق رصــدتها بالبوصـــلة تعتمد على القياسات التى قمت بها. وكنت متلهفًا على التحقــق مـــن صحة ملاحظات "رولفس"، وأن أحدد بصورة قاطعة موضع "الكفرة" على الخريطة.

وفى عام ١٩٢٢ عرضت خطتى - لرحلة تعبر الصحراء مـــن ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى السودان - على صاحب الجلالـــة الملك فؤاد الأول، الذى كان كريمًا للغاية بما أبداه من اهتمام بـــأولى رحلاتى، ومنحنى وسام الاستحقاق، وتعاطف بشدة مـــع مشـــروعى، وأمر بمنحى إجازة طويلة من واجباتى الرسمية، وبعد ذلك أمر بـــأن تتحمل الخزانة المصرية تكاليف الرحلة بالكامل، وبالفعل فإن رحلتى ما كان لها أن تلقى النجاح الذى لاقته لولا دعم جلالته الذى لايقـــدر بثمن.

استكملت استعداداتى، وبحلول شهر ديسمبر عام ١٩٢٢، كنت قد جمعت حقائبى فى منزل والدى بالقاهرة كى يتم مباركتها طبقًا للعرف القديم لبنى جلدتى قبل أن أخرج لرحلتى عبر الصحراء الليبية.

---

(٦) بوصلة يمكن بواسطتها قياس زوايا انحراف أى جسم فـــى الطبيعـــة عـــن الشـــمال المغنطيسى؛ لذا يمكن استخدامها فى توقيع أية ظاهرة جغرافية على سطح الخريطـــة، وقد سميت بهذا الاسم نظرًا لأنه من ضمن مكوناتها منشور ثلاثـــى مـــن الزجـــاج. "المترجمان"

الفصل الثانى

مباركة الأمتعة: "الله يسدد خطاك"

كانت الكلمات العربية تخبو فى جلال هواء الحجرة الكبيرة – الخالية من الأثاث – حيث أضواء الشموع وسُحب البخور المتصاعدة يتنافسان على السيادة، بينما تكومت بطول الحوائط مجموعات غريبة من الأمتعة: صناديق كبيرة، صناديق صغيرة، قِرَب من جلد الأغنام، فناطيس معدنية لحمل المياه، أكياس مليئة بالأطعمة المحفوظة، بالات من الخيام، حقائب جلدية ومعدنية تحتوى على معدات علمية وأدواتى الشخصية، وبعد صخب محاولة جعل كل شىء ملفوفًا ومحكم الربط ومرتبًا فى نظام، أطبق الصمت علينا حيث كنا نقف فى منتصف الغرفة، وفى الخارج كان الليل المصرى قد أرخى سدوله بالفعل، وعَبَرت الحديقة همهمات باهتة من حياة ليل القاهرة لتدخل من نافذتنا.

كنا ثلاثة: أنا، وعبد الله – وهو نوبى من أسوان، وكان من أكثر من كنت أثق فيهم من الرجال – وأحمد – وهو من أسوان أيضًا، وإن بدا نصف محطم بعد أن نادته حياة المدينة، بينما كان يقف بجوارنا، رغم أنه برهن بعد ذلك على أنه طاهٍ ماهر، وأنه من يضفى البهجة والحيوية على الرحلة.

كان يقف أمامنا رجل عجوز طويل القامة ذو لحية بيضاء، يرتدى قفطانًا حريريًّا برتقاليًّا داكن اللون، ملامحه ذات التجاعيد الرقيقة تتحدث عن السلام الذى يأتى من الورع، وكانت أصابعه النحيفة الطويلة تقبض برفق على حبات مسبحة من الكهرمان، بينما تتصاعد حلقات رقيقة من الدخان الأبيض تنبعث من مبخرة فضية تزينها النقوش يحملها أحد الخدم الواقفين بجواره، وضع الرجل الورع مسبحته جانبًا ورفع كفيه وذراعيه عاليًا صوب السماء، وبصوت أوهنه الزمن، وإن كان يشع إيمانًا، بدأ يردد الدعاء من أجل أولئك الذين كانوا على مشارف الرحيل:

"ربنا يسدد خطاكم، ويتوج جهودكم بالنجاح، ويردكم إلينا سالمين غانمين".

ثم بدأ يدور داخل الغرفة وهو يحرك المبخرة فى إيقاع منتظم أمام كل كومة من الأمتعة، ويتلو بعض الأدعية. كانت تلك هى المراسم التقليدية لمباركة الحقائب، تكرست عبر عقود من خروج العرب في القوافل، وعلى الرغم من هجر ذلك التقليد فى هذه الأيام الأخيرة، فإنه فى دار والدى الذى أمضى حياته فى تشرب هذه الثقافة وسير الرسل والأنبياء، كان ذلك من أكثر الأمور الطبيعية فى العالم التى يجب أن تُمارس عندما يزمع ابنه الوحيد على السفر إلى الصحراء.

وبينما كنت أقف أمام الرجل الورع لأتلقى مباركته، شعرت بأننى لم أعد بعد الآن مصريًّا من أبناء اليوم، بل صرتُ بدويًّا بصدد العودة للصحراء، حيث نصب آباء آبائه خيامهم. وتأملت والدى؛ فمنذ

خمسة عشر عامًا، أرسلنى إلى أوروبا لأدرس وأتعلم، ونـادرًا مـا التقت طرقنا منذ ذلك الحين، وفى بعض الأحيان كنت أتمنى لو أننـى درست شيئًا يدخل فى دائرة اهتمامه فربما استطعت الانتفـاع بعلمـه العميق، إلا أنه قال يومًا لأحد زملائه فى الدراسة: " إنه سوف يعيش فى جيل آخر، دعه يحظَ بالتعليم الذى سوف يحتاج إليه آنذاك"، ولكن الآن بينما أتأهب للعودة إلى الصحراء التى جاء منها آباؤنا، يعـرف كلانا ما يجول بذهن الآخر ويفهمه.

وبعد دقيقة من الصمت، وضع يده على كتفى ودعا لـى قـائلاً: "تصحبك السلامة، وربنا يرشد خطاك، ويقويك، وينجـح مقصدك". وهكذا بوركت الأمتعة.

أخذ أحمد وعبد اللـه الأمتعة الثقيلة وتوجهـا إلى "السـلوم"، وتركا معى المعدات العلمية والكاميرات التى تتطلب عناية خاصة فى حملها.

وفى ١٩ ديسمبر غادرت الإسكندرية بالسـفينة متوجهًـا إلـى السلوم.

الفصل الثالث

المؤن والتجهيزات

«بحلول يوم الحادى والعشرين كنت أهبط سلَّم السفينة فى السلوم، ذلك الميناء الصغير الذى يقع بالقرب من الحدود الغربية لمصر، وهناك كنا سنأخذ الإبل ونتوجه عبر طريق "جغبوب" إلى "جالو"، ذلك المركز المهم فى تجارة الصحراء، حيث سيتم تجهيز قافلتنا، وتبدأ الرحلة الكبيرة صوب الجنوب».

ورحلة مثل رحلتى هذه دائمًا ما يكون لها العديد من نقاط البداية، تقترن بكل منها مشاعر وخبرات متباينة؛ ففى الحجرة ذات الضوء الشاحب ورائحة البخور الذكية بمنزل والدى كانت المغامرة نوعًا من الحلم الجميل فاتنًا فى احتمالاته، ولكن بالكاد يمكن اعتباره حقيقة، بينما فى السلوم جاءت الحقيقة العملية من خلال تجميع المؤن والتجهيزات، وحزمها وإعادة حزمها حتى يصبح كل شىء فى أصغر حجم، وأفضل شكل للحمل، والتحقق منها جميعًا للتأكد من أننا لم ننسَ شيئًا، والترتيب مع مالكى الإبل من أجل المرحلة الأولى من الرحلة، بينما فى "جالو" سوف تأتى البداية الثالثة مع قافلتى الخاصة والطريق إلى "الكفرة"، الذى على الرغم من أننى قد سبق أن اجتزته من قبل فإنه لا يزال غير مألوف لى، ثم تأتى البداية الأخيرة لكل ما سبق عندما أنطلق من "الكفرة" وأتوجه صوب المجهول الذى لم يُكتشف بعد.

كان عبد الله وأحمد قد سبقاني بالفعل إلى " السلوم " مع الحقائب الثقيلة، وتم ترتيب أمر الإبل، إلا أن الاتفاق كان ينتظر تصديقي عليه، وشرعنا بعد ذلك في ترتيب تجهيزاتنا ومؤننا.

* * *

ولعله قد يكون من الشيق أن أقدم بعض الوصف للمصريين اللذين رافقاني خلال هذه الرحلة.

عبد الله: نوبي من أسوان، قوى البنية، مفتول العضلات، ذو عينين صغيرتين عميقتين، تخفيان ما يتسم به من مكر ودهاء بالإضافة إلى قدر كبير من اللامبالاة أو قل السمو. كان الرجل في نحو الأربعين، جيد التعليم، يعرف القرآن جيدًا، التقيت به للمرة الأولى عام ١٩١٤، عندما كان مرافقًا لعائلة الإدريسي في مصر، وقد أعجبت به كثيرًا؛ نظرًا لروح المرح المتأصلة فيه وولائه لسيده. وكان أمينًا بكل ما تعنيه الأمانة من معنى؛ لذا أوكلت إليه مسئولية المؤن. وفي صندوق أدوات عبد الله، يستطيع المرء دائمًا أن يجد كل ما يحتاج إليه، بدايةً من قطع الجلد ومسلات البدو البدائية التي تستخدم في إصلاح الأحذية، إلى الاختراعات المعقدة اللازمة لإصلاح عمود خيمة محطم، علاوة على ذلك كان مستعدًا بالأكاذيب ليسوِّي كل المواقف، سواء أكان يريد مني أن أتخذ مظهر البدوي الرحالة من مصر، أم التاجر الجائل، أم رجل الدولة ذي المكانة العالية عندما حللنا وسط طبقة الموظفين في "السودان". وكان عبد الله يتسم بشيء فريد؛ فبين غروب الشمس وساعة أو ساعتين بعد ذلك، كان يبدو أنه من العسير أن تبقيه مستيقظًا، حتى ولو كان يجلس

ويشارك فى مناقشة ما، فسوف ينعس قليلاً فى أثناء جلوسه؛ ففى إحدى المناسبات، وكنا قد انتهينا للتو من تناول طعام الغداء، ومضت ساعة تقريبًا، وكنوع من المزاح أخذ زروالى - وهو أحد البدو الأوفياء الذين انضموا إلى قافلتنا فى "جالو" -- كمية كبيرة من الزعتر (معطر قوى يستخدم لإضافة نكهة إلى الشاى) ووضعها فى شاى عبد الله خلال إغفائه، وعندما استيقظ الأخير وتذوق شايه أدرك ما حدث، إلا أنه لم يقل شيئًا، لكنه ببساطة شديدة أعاد كوبه إلى موضعه، وبعد فترة التفت عبد الله حوله ثم قال لزروالى: "أحسب أنك تنتظر أحدهم، أظن أننى سمعته قادمًا"، وعندما نهض زروالى ليستطلع الأمر، قام عبد الله فى هدوء باستبدال الأكواب حتى يعود زروالى ويشرب من كوب الشاى الذى به نسبة كبيرة من الزعتر، بينما عاد عبد الله للنعاس فى سلام مرة أخرى.

وقد برزت غريزة عبدالله الوظيفية على أفضل نحو عندما وصلنا إلى إحدى المناطق المأهولة بالقرب من نهاية الرحلة، وكان هناك نقص فى الطعام؛ فقد جمع كل بقايا القافلة بما فيها الصفائح الفارغة، وزجاجات الدواء، بل حتى أمواس الحلاقة المستعملة، واستبدلها مع السكان المحليين: بزبد، ولبن، وبهارات، وجلود.

وعبدالله أيضًا هو ذلك الشخص الذى استاء للغاية عندما عرضت فيلمى السينمائى الخاص ببعثتى الاستكشافية خلال المحاضرة التى ألقيتها فى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول بدار الأوبرا الملكية فى القاهرة؛ فعندما وجد عبدالله أنه يظهر فى كثير من المشاهد وهو يرتدى قميصًا باليًا، ساءه أن يظهر فى ثوب غير لائق

أمام مليكه، وسأل إن كان هناك شيء من الممكن فعله حتى يظهر في قميص نظيف وليس باليًا على هذا النحو!.

أما **أحمد** فهو أيضًا نوبي من أسوان، نحيل القوام، لا يعرف الاستسلام مطلقًا، كان خادمي وطباخي الخاص، ورغم أنه كان جيد التعليم، فقد أصبح طاهيًا لأنه أحب أن يحيا حياة حرة كما قال؛ إذ إنه لو أصبح رجل دين كما كان والده يتمنى، لكان لزامًا عليه أن يحيا وفق نمط معين، وهو ما كان جليًا أنه لا يتفق مع طبيعته؛ فقد كان مرحًا دائمًا، وعلى الرغم من أن أحدًا في القافلة لم يلق لعنات منه، فإن البدو لم يلقوا إليه بالاً، بينما لو صدرت كلمة مثل التي قالها أحمد من أي شخص آخر، لكانت هناك إراقة دماء، ولكن البدو اعتادوا على طريقته في الحديث، ولم يتشاجروا معه سوى مرة واحدة.

وقد اعتاد أحمد بعد أن ينتهي من الطهي أن يجلس مع البدو ويزدري معلوماتهم عن الدين، ويبرهن على تفوقه بتلاوة مقاطع – من الذاكرة – من الشعر العربي وبعض الأحاديث النبوية الشريفة. ولم يفشل أحمد مرة واحدة في أن يعد لي قدحًا من الشاي حتى في أحلك الظروف، حتى إنه في إحدى المرات كان يعاني آلامًا مبرحة في قدميه نتيجة للسير طوال الليل، وبينما كنا ننصب الخيام أخبرته أنني لا أريد أي إفطار أو شاي حتى أنام، وأمرته بأن يتوجه إلى الفراش على الفور، ومع ذلك وبينما كنت أتأهبّ للذهاب إلى مخدعي وصل أحمد ومعه كوب من الشاي الساخن.

وعلى الرغم من أنه لعن البدو جميعًا وآباءهم وأجدادهم، فإنه ما سقط بدوي منهم مريضًا إلا وكان أحمد يبذل كل ما في وسعه حتى

يسعفه؛ فقد تعلم تدريجيًا استخدام مثل هذه الأدوية كما تعلمتها، وكثيرًا ما كان يحضر لي زجاجة صغيرة ليسألني - عندما يختلط عليه الأمر - هل هذا هو الكينين أو أنه الأسبرين؟

* * *

متطلبات الترحال في الصحراء بسيطة، وقائمة الأشياء التي يجب أن يصحبها المرء معه تكاد أن تكون شائعة؛ فبالنسبة للطعام هناك قبل كل شيء: الدقيق، والأرز، والسكر، والشاي. وعلى الرغم من أن كل سكان الصحراء متيمون باللحم، فإنه بالطبع لا يمكن حمله وعلى المرء إما أن يصيده في طريقه أو يرحل بدونه. أما الشاي فهو يعد مشروب الصحراء الليبية قياسًا بالقهوة، ومرد ذلك إلى سببين: الأول ديني والثاني عملي. فقد حرَّم السيد بن علي السنوسي - مؤسس الطريقة السنوسية التي تتحكم في الإقليم الذي كنت أسافر خلاله - على أتباعه كل وسائل الرفاهية، واشتمل تحريمه على التبغ والقهوة، ولكن لسبب ما لم يحرم الشاي؛ لذا فإن أتباعه يعدون من" شاربي الشاي " إذا جاز لنا أن ندعو بالاسم ذاته السائل الباهت الرقيق المعطر الذي يزين موائد الشاي في أوروبا وأمريكا، وذلك السائل داكن اللون المر الذي يؤازر البدوي في أثناء سيره وينعشه في نهاية يومه. أما السبب الثاني فهو أن الشاي مشروب منبه للعمل، بينما القهوة ليست كذلك. والشاي هو ذلك الشيء الذي تنتهي به كل وجبة في الصحراء، وهو الذي ينعش المسافر المرهق في نهاية يوم سفر شاق، بينما القهوة فهي للحياة الأقل قسوة في الواحة والدار.

وبعد هذه المؤن يأتى التمر أو ربما يجب أن يوضع فى البداية؛ فالإبل تعيش على التمر بمثل ما تعيش عليه القافلة بأسرها، عندما تنفد الأطعمة الأخرى أو لا يكون هناك وقت للتوقف وطهى الطعام. ولكن التمر ليس هو ذلك الدسم الحلو الذى اعتاد المرء تناوله كحلوى أو فى أثناء النزهات الرقيقة فى الغرب؛ إذ إن التمر الذى يجب على المرء أن يستخدمه عند السفر فى الصحراء به نسبة قليلة من السكر؛ لأن السكر يسبب العطش، وحيث الآبار تبعد أيامًا فإن مؤن المياه لا يسرف فى استخدامها.

كما اصطحبت معى أيضًا بعض المعلبات " بلوبيف، خضراوات، فاكهة"، إلا أن المعلبات كانت ثقيلة الوزن، واصطحاب عدد كاف منها لرحلة طويلة، كان سيتطلب عشرين جملاً إضافيًّا أو أكثر لحملها. كما ضم مخزوننا القليل من القهوة، إلا أنه نادرًا ما كنا نشرب القهوة، واستخدمت معظمها كهدايا للأصدقاء الذين اكتسبناهم طوال الطريق، وكان معى بعض زجاجات من الحبوب الجافة الممزوجة باللبن، التى أثبتت فائدتها كوجبة للطوارئ عندما كان الطعام يقل، ومع ذلك فقد كان البدو غير متيمين بها؛ فقد قالوا " إنها تشعرهم بالامتلاء دون لذة التذوق".

تلك هى قائمة المؤن التى كانت معنا باستثناء بعض الملح والتوابل خاصة الفلفل من أجل العصيدة، وهى مزيج من الدقيق المغلى والسمن يجعلها الفلفل حارة المذاق.

كان هناك بعض التنوع، إلا أن التنوع أمر يجب على المرء أن يقلع عنه عندما تحمل مؤنه دواب عليها أن تحيا هى ذاتها – بصفة رئيسية – على ما تستطيع حمله.

لم تكن هناك أية رفاهيات فى الطعام، مهما كان مقدار السرور الذى قد تبعثه للتخلص من رتابة الأرز، والخبز الجاف، والتمر، والشاى. فإذا ما كان لدى المرء خبرة بالسفر فى الصحراء، والحكمة المستخلصة منها، فعليه ألا يأخذ معه أى طعام لا يكفي لإطعام كل فرد فى القافلة؛ فعند السفر فى الصحراء لا يوجد تميز حسب المكانة أو الطبقة سواء أعلى أو أدنى.

إلا أن الاستثناء الوحيد لقاعدة " الرفاهية " تلك كان هو التبغ؛ فطالما أنه كان لا يصاحبنى سوى رجل واحد فى أثناء السير فقد كان يدخن معى متى عنَّ لى ذلك، وعلى أية حال فإن ذلك لا يعد انتهاكًا حقيقيًّا لتلك القاعدة. وقد وفر لى مخزون السجائر المصرية والتبغ الذى كان معى متعة بالغة طوال الرحلة.

بعد ذلك يأتى الماء، وهو المشكلة الكبيرة والمتواصلة عند السفر فى الصحراء؛ فالرجال قد يصمدون دون طعام لأيام لا يمكن تصور عددها، سواء أكان للضرورة أم لغرابة الأطوار، ولكن الرجل الذى يستطيع الاستمرار لمدة أربعة أيام دون مياه يعد أعجوبة؛ فالصحراء تُسمى صحراء فقط بسبب ندرة الماء؛[٧] لذا على المسافر إلى الصحراء أن يفكر أولاً – وقبل كل شىء – فى مؤن شربه.

وقد حملنا الماء معنا بوسيلتين: المؤن المألوفة حُملت فى خمس وعشرين قربة، وهى وسيلة حمل المياه التقليدية فى الصحراء وتصنع من جلد الضأن، ويتسع كل منها لما يتراوح بين أربعة وستة

---

(٧) يعرف الجغرافيون الصحراء بأنها ذلك النطاق من الأرض الذى يقل فيه معدل سقوط الأمطار عن ١٠مم فى العام ويندر به الماء. "المترجمان"

جالونات، وكان من السهل انفجارها إذا ما اصطدم جملان من الـذين يحملون تلك القرب فى الظلام على أحد الطرق الصخرية؛ لـذا فقـد حملت مؤن المياه الاحتياطية الخاصة بالطوارئ فى فناطيس، وهـى عبارة عن حاويات طويلة مـن القصـدير ذات شـكل مسـتطيل أو بيضاوى، ومقطع عرضى يسمح بأن تعلق منها بسهولة على جـانبى الإبل، وكان لدينا أربعة فناطيس يتسع كل منها لحمل أربعة جالونات، وأربعة أخرى يتسع كل منها لحمل اثنا عشر جالوناً؛ لذا كانت مؤننـا الكاملة نحو مائتى جالون تقريبًا. كانت تكفى لإعالة قافلتنا – عندما تم إعدادها فى النهاية – فى المسافة الممتدة من بئر إلى أخرى، والتـى كُنَّا نأمل أن نصادفها. وقد حملنا مؤننا الاحتياطية فى الفناطيس فقط، فإلى جانب أنها أقل عرضة للتلف، فقد كانت القرب تأخذ مساحة قليلة عندما تصبح فارغة، حتى إنه كان يمكن حمل خمسة وعشرين قربـة كلها فوق جمل واحد، بينما لا يوضع سوى فنطاسين على كل جمـل سواء كانا فارغين أو مملوءين.

كانت هناك أيضًا بعض زجاجات المياه الفردية، ولكن سـرعان ما تم التخلص من معظمها لأن الرجال أنفوا حملهـا، وقـد احـتُفظ ببعضها من أجل مائها البارد؛ فقد كان تبخر الرطوبـة مـن قمـاش الخيام الذى يحيط بالزجاجات أو الحقائب يجعل درجة حرارة المـاء فى داخلها مستساغاً؛ خاصة عندما أصبح الجو حارًّا بعد ذلك.

أما الخيام فقد كانت أربعًا: اثنتان على شكل الجـرس، واثنتـان على شكل المستطيل، بالإضافة إلى العديد من أوانى الطهى، والتـى يأتى على رأسها "حلة" نحاسية ضخمة لغلى الأرز.

وللطوارئ الصحية كان هناك صندوق للأدوية به " كينين، ويود، وقطن، وضمادات، وساليسيلات البزموت لعلاج الدوزنتاريا، وأقراص مورفين، وسرنجات حقن، ومصل مضاد للدغ العقارب – الذى ألقانى فى مأزق خطير ثم أنقذنى منه – ومرهم زينك لعلاج الإكزيما، وحبوب لعلاج عسر الهضم، وملح إبسوم. كما كان معى أدوات جراحية بسيطة، وأدوات وأدوية لعلاج الأسنان أعطانى إياها أحد أصدقائى من أطباء الأسنان. كنت مجهزًا للعناية بالأمراض اليومية البسيطة، أما إذا حدث شيء أكثر خطورة فكان علىَّ أن أقول: "الله هو الشافى".

وللصيد والدفاع عن النفس أخذت معى ثلاث بنادق، وثلاثة مسدسات أوتوماتيكية، بالإضافة إلى بندقية رش، أهديتها خلال رحلة العودة، أما باقى الأسلحة فقد زادت إلى ست بنادق، ومسدس واحد، ومن الطريف أنه عندما وصلت البنادق إلى ميناء السلوم فى صناديقها الخشبية ذات الشكل المميز، سرت على الفور إشاعة فى البلدة مفادها أننى أحمل معى مدفعًا أوتوماتيكيًّا لغرض غامض، أسهب المثرثرون فى تفسيره.

وبهدف إعداد تقرير قوى وصادق – قدر الإمكان – عما وجدته ورأيته أخذت معى خمس كاميرات، كانت ثلاث منها من إنتاج شركة "كوداك"، وقد ظلت تعمل على الوجه الأكمل حتى نهاية الرحلة، وواحدة أخرى كانت متطورة بعض الشيء ذات عدسة مسطحة – دُمرت نتيجة لتسرب الرمال إليها، أخيرًا كانت هناك ماكينة تصوير سينمائى، ولكل هذه الكاميرات اصطحبت معى أفلامًا من إنتاج شركة

أفلام إيست مان كوداك EASTMAN KODAK FILMS، وقد حُزِّمت بعناية مدروسة؛ إذ لُفَّت أولاً بقصدير لعزلها عن الهواء، وبعد ذلك وضعت فى عبوات من القصدير مليئة بنشارة الخشب، وفى النهاية فى صناديق خشبية، إلا أن هذا الحرص فى التغليف أثبت أنه لم يكن جيدًا للغاية، بالنظر إلى درجة الحرارة الشديدة التى تعرضنا لها فى الجزء الأول من الطريق، والمطر والرطوبة التى واجهناهما بعد ذلك فى "السودان". وقد أخذت معى نحو ٩٠٠٠ قدم من الأفلام من أجل كاميرا التصوير السينمائى، وقد حالفنى الحظ فى العمل الفوتوغرافى كله، وعلى الرغم من أن الأفلام لم تحمض إلا بعد أن عدت إلى مصر بعد ثمانية أشهر من ذلك، فإن نسبة الفشل كانت ضئيلة ومعقولة.

وبالنسبة للملبس أخذت معى الزى البدوى التقليدى، الذى يتكون من القمصان البيضاء والسراويل الطويلة، وكلها مصنوعة من القطن، بالإضافة إلى "جيرد"(٨) صوفى، وجاكت حريرى، وصديريات وبنطلونات من القماش مثل تلك التى تُستخدم عند ركوب الخيل ولكنها تصل إلى رسغ القدم، والأخيرة كنت أستخدمها فقط فى المناسبات الرسمية عند دخول الواحة ومغادرتها.

لم أرغب فى ارتداء ملابس الصحراء حتى نهاية المرحلة الأولى من الرحلة؛ فقد تركت السلوم فى معطف كاكى وبنطلون ولِّى بالفعل

---

(٨) قطعة طويلة من القماش يبلغ طولها نحو ثلاثة أمتار، بينما يبلغ عرضها نحو مائة وعشرين سنتيمترًا، وهى تصنع فى الغالب الأعم من الصوف الناعم، وتلف حول الجسم بطريقة خاصة بغرض التدفئة والحماية من رياح الصحراء. "المترجمان"

أيام مجدهما، وكان فى قدمى خف بدوى أصفر اللون، وهو الوحيد الذى يصلح ارتداؤه عند السفر فى الصحراء، وعلى رأسى قبعة مصنوعة من جلد النمر، نظرًا لأن الجو كان قارص البرودة فى ذلك الوقت، ولا شك أن شكلى كان مضحكًا للغاية عندما بدأنا رحلتنا.

عند السفر إلى أرض مجهولة – خاصة فى الشرق – من المهم أن تكون قادرًا على تقديم هدايا إلى الأشخاص البارزين الذين سوف تقابلهم، وقد اصطحبت معى ما كان يبدو كمية هائلة من الحرائر، والأوعية النحاسية، والمباخر المزينة بالفضة، وزجاجات العطر، والمناديل الحريرية، والأباريق الفضية، وأكواب الشاى، والأجراس الفضية التى كان البدو يسرون باستخدامها فى استدعاء عبيدهم بدلاً من التصفيق المعتاد بالأيدى. وعندما رأيت كل هذه الهدايا وهى تحزم، شعرت – بيقين – أننا سوف نعود بنصفها، ولكن عندما وصلنا إلى "الكفرة" اكتشفت أن أمر الهدايا لا يقتصر على من كانوا فى الحسبان، بل إن كل فرد قدَّم لى خدمة تافهة خلال رحلتى السابقة، كان يتوقع أن يُكافأ على الخدمة التى سبق أن قدمها. ولم يكن لدينا الكثير من البضائع التى ذكرتها من أجل هذه الهدايا، وعلى الرغم من ذلك فلم أشعر أن تلك الهدايا كان لها دور فعال فى جعل رحلتى أكثر سهولة، بقدر أنها كانت مجاملة من البدوى الذى جاء من الحضر إلى أخيه البدوى فى الصحراء.

ثم تأتى بعد ذلك الأدوات العلمية التى كانت أكثر أهمية من كل ما سبق جميعًا لقيمتها فى رصد الظواهر الطبيعية التى مررنا بها خلال الرحلة.

امتلأ الأسبوعان اللذان أمضيتهما فى " السلوم " بالأيام المزدحمة والبسيطة كما كانت أدواتنا؛ فكل شىء يجب أن يكــون أقــرب إلـــى الصواب ويلقى العناية اللازمة؛ فالأشياء سوف تحمل فــوق ظهــور الإبل فى كل صباح، وتوضع عنها كل مســـاء، وتــرص كحـــواجز لمواجهة الطقس والهجوم المحتمل؛ لذا يجب أن تُحزم بشــكل محكــم وآمن، كما أنه فى نهاية يوم الترحال غالبًا ما يــؤدى عــدم مبـــالاة الجمَّالين أو إجهادهم إلى أن يتركوا الصناديق والأحمال تســقط مــن فوق الإبل دون عناية بدلاً من أن يتعاملوا معها بالاهتمام اللائق.

الفصل الرابع

الخطط والنذر

«لقد وضعتُ خططى كلها على أساس التوجه مباشرة صوب الجنوب إلى "جغبوب"، إلا أنه حدث أمر ما - قبل موعد الرحيل بيومين - قد أزعجنى».

ففى إحدى الأمسيات كنت أجلس فى حجرتى بإحدى الاستراحات الحكومية الصغيرة مشغولاً بتأمل ملاحظاتى العلمية، حيث سمعت طرقًا على الباب، لم أستطع تصور من ذا الذى يريدنى فى هذه الساعة، لكنى توجهت إلى الباب وفتحته قليلاً، فوجدتُ أحد البدو الذين لا أعرفهم يقف هناك وهو يلف نفسه - وفق الطريقة البدوية - بجيرده، أغلقت الباب سريعًا، وسألته " من أنت؟"

فأجاب "صديق"، ولا أدرى لماذا لم أطمئن إلى رده.

سألته ما اسمك؟ وماذا تريد؟

فأردف زائرى عبر الباب الموصد " أنا صديق ولدى شىء أريد إخبارك به، ويجب أن تعرفه".

فتحت الباب وسألته عما يريد إخبارى به.

فدخل وقال "سوف تأخذ الطريق المباشر إلى جغبوب؟" قالها متسائلاً.

أومأت بالإيجاب.

فوجدته يقول بقوة " لاتذهب".

سألته " لماذا؟".

فأجاب "البيه رجل غنى، يحمل معه قدرًا كبيرًا مـــن نعـــم الله، والإشاعات تقول إن معك صناديق كثيرة مليئـــة بالـــذهب، والبـــدو جشعون".

ورأيت أنه نصف مصدق لهذه الإشاعات على الرغم من تظاهره بعدم تصديقه لها.

"وقد اتفق الجمَّالون مع بعض أصدقائهم على الطريق أن يكمنوا لك ليسرقوك، وسوف تفقد مالك، إن لم تكن حياتك".

فأجبته ملوحًا " يستطيع المرء دائمًا القتال".

فوافقنى قائلاً "ربما يكون ذلك ممكنًا إذا كان معك عدد كبير من الرجال".

ولم يكن معى عدد كاف من الرجال؛ لذا سألته عـــن معلوماتـــه الأخرى؛ فقد بدت القصة مقنعة إلى حد ما، وعندما علمت أن زائرى قريب لأحد الأفراد الذين سبق أن أسديت إليه صـــنيعًا فـــى مهمتـــى السابقة للسنوسى، شعرت أنه قد يكون من الحكمة تصديقه؛ لذا شكرته على تحذيره، وبعدها رحل فى ظلام الليل، وجلست أقلب أمـــر هـــذا الموقف الميلودرامى الذى لم يكن فى الحسبان.

فأهل الصحراء سريعون فى تعقب دوافعك إذا ما استطاعوا، وإذا لم يستطيعوا فسرعان ما تنسج الأقاصيص المتخيلة ليقدروا مَنْ أنت؟

وما معك؟ وماذا تنوى فعله؟ ونظرًا لأن معظم أمتعتنا كانت فى صناديق، والصناديق لعقل البدوى تعنى كنوزًا، وإذا كانت ثلاث بنادق فى صناديقها تُرجمت إلى مدافع حربية، فما المانع من أن تُترجم صناديق الكاميرات والأدوات العلمية إلى ذهب وأوراق بنكنوت؟ لذا لم يكن غريبًا أن أصحاب الإبل التى استأجرناها، كانوا مقتنعين أننى ذاهب إلى الصحراء بثروة طائلة لسبب غير معلوم، وليس من المستبعد أن يكونوا قد خططوا لسرقتى، وكان الشجار – مهما نكن موفقين فيه – قد يعد بداية رديئة لمشروعنا؛ لذا رأيت أنه من الأفضل تجنب هذه العقبة عوضًا عن مواجهتها.

ومن غير إبطاء – فى اليوم التالى – وجد أصحاب الإبل الذين اكتشفتُ خطتهم الصغيرة أنهم قد أعفوا من الرحلة، وتم استئجار آخرين مع إبلهم ليقلونى إلى "سيوة " بدلاً من الطريق المباشر إلى "جغبوب"، فقد كنا سنسير بطول ضلعى مثلث يشغل رءوسه كل من "السلوم"، و"سيوة"، و"جغبوب". وكان هذا الأمر بالفعل يزيد من طول الجزء الأول من رحلتنا، إلا أن أمر الطول والزمن كانا أقل أهمية من الوصول بسلام؛ فالطريق عبر "سيوة" به العديد من المميزات؛ فهو يمتد داخل الحدود المصرية وليس داخل إقليم مأهول بالقبائل التى ينتمى إليها الجمَّالون السابقون، الأمر الثانى أنه يمتد عبر حدود يمر بها كثيرون؛ حيث سيصبح كمون المتآمرين على قافلتنا أمرًا محفوفًا بالمخاطر، أما النقطة الأخيرة فهى أن سرعة رحيلنا بعد تعديل خططنا على هذا النحو لن يتيح الوقت للمتآمرين أن يُعدوا خطة جديدة إذا ما أرادوا ذلك، لكل هذا بدت الخطة آمنة، وقد أثبتت أنها آمنة بالفعل.

مع حلول الأول من يناير سبقتنى القافلة، وبعد ثلاثة أيام من ذلك تفضل الملازم أول باثر BATHER باصطحابى فى سيارة لألحق بها، وقد وجدناها عند " ديجنيش " التى تبعد نحو ستة وثلاثين ميلاً، وبعد أن ودعت الملازم استأنفت الرحلة.

كان لا يزال هناك نحو ستة أيام سفر قبل أن نصل إلى "سيوة"؛ لذا استثمرنا وقت فراغنا خلال هذه الفترة فى تمويه صناديقنا وحقائبنا لتشبه أمتعة البدو المألوفة، والحادثة الوحيدة الجديرة بالذكر خلال هذه الأيام الستة هى حدوث أول فأل حسن من ثلاثة أمور اعتُبرت مؤشرًا على أن رحلتنا سوف تتوج بالنجاح.

ففى ظهيرة اليوم الخامس، رأيت غزالاً يرعى على مسافة قريبة من قافلتنا، فسعيت خلفه دون أى تفكير مسبق سوى الأمل فى الحصول على لحم طازج، وفى هذه الأثناء سمعت صياح الرجال من خلفى يحاولون أن يُثنونى عن هذا الأمر، لم أستطع فهم سبب معارضتهم فى الذهاب خلف هذا الصيد، خاصة وأن البدو يعشقون اللحم، وتخيلت أنهم يخشون من أن ذهابى بعيدًا عنهم قد يوقف تقدم القافلة، ولم يبدُ لى هذا السبب كافيًا؛ لذا تابعت سعيىّ، وبعد عدة مطاردات صوبت بندقيتى نحو الغزال وأصبته فى مقتل.

وبينما كنت أقترب من القافلة عائدًا بما اصطدته، دهشت مرة أخرى؛ فقد وجدت الرجال يعدون نحوى وهم يلوحون بأذرعهم ويصيحون مرحًا وتهنئةً، لم أستطع فهم سلوكهم الحالى بقدر عجزى عن فهم سلوكهم السابق، حتى جاءنى التفسير، وعلمت عندها أن من تقاليد البدو أن أول طلقة نار تطلق نحو صيد ما بعد رحيل القافلة

تعد طلقة حرجة؛ لأنها لو طاشت فإنه سوف تحل كارثة ما بالقافلة – بلا شك – قبل أن تنتهى الرحلة، أما إذا أصابت الهدف فإن الحظ السعيد سوف يبتسم للمهمة بأسرها؛ لذا كان رجال القافلة كارهين أن يرونى أضع حظنا على المحك بهذه السرعة، ووقتها قلت لنفسى إننى لو تذكرت قواعد السفر عند البدو لكنت ادخرت أولى طلقاتى لأطلقها عندما نصل إلى " الفاشر"، بعد ستة أشهر من ذلك.

أمضينا ثلاثة أيام فى " سيوة"،[٩] حيث استأجرنا إبلاً أخرى للرحلة إلى "جغبوب"، بالإضافة إلى استكمال بعض الاستعدادات النهائية؛ فقد كانت "سيوة " هى النقطة الأخيرة من العالم الذى سوف أتركه خلفى؛ فهنا سوف تنتهى الخدمات البريدية والبرقية، وبعد هذه النقطة لا يوجد شىء يُشترى سوى منتجات الصحراء، وبعض الأرز أو القماش، وربما كان ثمنها باهظًا جدًّا.

خلال هذه الأيام الثلاثة استمتعت بالضيافة والمساعدة الكريمة التى حظيت بهما من إدارة المناطق الحدودية ممثلة فى شخص المأمور كامل أفندى والموظفين الرسميين فى المدينة والملازم أول لولر LWLER قائد القوات هناك.

* * *

تعد "سيوة" أكبر الواحات وأكثرها سحرًا: بينابيع مائها الرائعة، وفاكهتها الممتازة، وتمرها الذى يعد أفضل نوع فى العالم، بما يجعلها

---

(٩) تقع سيوة على خط طول ٢٥,٣٠° وخط عرض ٢٩,١٢°، وهى تبعد عن السلوم جنوبًا بنحو ٢٠٠ ميل وعن القاهرة فى الاتجاه الجنوبى الغربى بنحو ٣٥٠ ميلاً، ويبلغ مستوى منسوبها قياسًا لمنسوب سطح البحر نحو ٤٢ مترًا. "المترجمان"

جديرة بأن تكون مشهدًا لصورة رائعة، كما أن بهـــا أكثـــر التقاليـــد غرابةً وطرافةً؛ فعلى سبيل المثال إذا فقدت امرأة زوجها فإنها تظـــل أربعين يومًا دون اغتسال ودون أن يراها أحد؛ حيث يُلقـــى الطعـــام إليها من خلال شق فى باب مسكنها، وعندما تنتهى هذه الفترة تـــذهب للاغتسال عند إحدى الآبار، وفى رحلتها هذه يحاول كل فرد تجنـــب مسارها؛ لأنها تُدعى فى هذا الوقت " غولـــة"، ويُعتقد أنهـــا تجلـــب الحظ السيئ لكل من يراها فى هذا اليوم " اليوم الأول لاستحمامها".

وفى سوق التمر الذى يُسمى "مسطاح" تعرض كل أنواع الـــبلح معًا - أفضلها وأردأها - فى أكوام، ولا يُفكر أحد فى لمس أى بلح لا يخصه، أو فى خلط البلح الجيد بالبلح الردىء لتحقيق ربح أكبر، بينما فى المقابل يستطيع أى فرد أن يدخل الـــسوق ويأكل ما شاء لـــه من أفضل الأنواع دون أن يدفع مليمًا واحدًا، ولكن عليه فقـــط ألا يأخـــذ معه أى شىء إلى خارج السوق.

كما يوجد فى "سيوة" ضريح لأحد الأولياء يضع عنـــده الأفـــراد متعلقاتهم كأمانة؛ فإذا كان المرء ذاهبا إلـــى أحـــد الأمـــاكن البعيـــدة يستطيع اصطحاب حقائبه وأكثر الأشياء قيمة ويضعها بـــالقرب مـــن هذا المقام، ولا يستطيع أى فرد حتى أن يحلم بلمســـها، وحرفيًّـــا إذا ترك أى فرد سُرَّة مليئة بالذهب هناك فلن يلمسها أحد، ومـــرد ذلـــك اعتقاد بسيط - لكنه غير قابل للدحض - فيما بيـــنهم، بأنـــك إذا مـــا لمست أى شىء قريب من الضريح وهو لا يخصك، فإن سوء الحـــظ سوف يصيبك ما حييت.

عندما كنت أتأهب لمغادرة "سيوة" كانت مجموعتى الصغيرة من الرجال قد تضاعف عددها؛ ففى "السلوم" أضفت إلى عبد الله وأحمـــد

رجلاً يُدعى حامد من قبيلة "مونافا"، وقد تميز بأنه كان أكثر من يعمل بمفرده فى القافلة بأثرها؛ فلم أره يومًا متعبًا، وقد كلفته بالعناية بجملي، ثم بعد ذلك بالفرس الذى حصلت عليه فى "الكفرة"، والشخص الرابع فى المجموعة كان إسماعيل وهو من " سيوة"، ورغم أنه كان يبدو ضعيف الجسم، فقد كان آخر من يستسلم على الطريق ويمتطى الإبل، وإسماعيل هو ذلك الشخص الذى اعتدت أن أصطحبه معى عندما كنت أذهب لاستطلاع مواضع العينات الجيولوجية، أو عندما كنت أجمع بعض الملاحظات العلمية عن بعض المواضع؛ فقد جاء من واحة تقع عند الحدود المصرية، حيث البريد والتلغراف هناك جعلاه على اتصال بالعالم الخارجى؛ لذا كانت شكوكه البدوية الفطرية أقل من الشكوك الفطرية التى يتسم بها البدو الآخرون، تلك التى قد تحيل كل فعل بسيط غير مفهوم إلى شيء ذى دوافع مختلفة، ذات مرة سألنى "لماذا يجمع البيه شظايا الصخور؟" ما لم يكن هناك ذهب فى داخلها أو ينوى العودة ليحتل البلاد؟ وعندما قلت له الأمر ليس كذلك يا إسماعيل؟ أجاب " إذا كان البيه يريد بعض الصخور، فما على البيه إلا أن يطلبها منّا.

رحلت مع قافلتى الجديدة عن "سيوة " يوم ٤ ايناير، لنقطع بذلك آخر صلة لنا بالعالم الخارجى، وعند أول توقف، نزعت عنى سترتى الكاكى وارتديت الزى البدوى، وعندها شعرت أننى أصبحت جزءًا من حياة الصحراء، وكان أثر ذلك على الرجال فوريًا؛ فقبل ذلك كانوا يقتربون منى بحرج وتكلف، أما الآن فقد عادوا إلى طبيعتهم يُقبِّلون يدى على الطريقة البدوية، ويقولون "الآن أصبحت واحدًا منّا".

أما الفأل الحسن الثانى فقد حدث لنا علي بعد بضعة أميال خارج "سيوة"؛ إذ وجدنا بعض التمر فى طريقنا، خلّفه أحد التجار سيئى الحظ الذى أصابته حادثة بينما كان متوجهًا بحمولته إلى السوق. والتمر على الطريق بمثابة وعد بحظ جيد فى الرحلة المزمعة؛ فمن الشائع عندما يرحل بدوى مع قافلته أن يسبقه أصدقاؤه سرًّا ويلقون بعض التمر فى الطريق الذى يُفترض أن يمر به.

لذا فمع طلقتى الأولى والغزال الذى اصطدته، والتمر الذى عثرنا عليه على الطريق أصبح لدينا مبرر جيد لأن نكون متفائلين، لكن أفضل هذه البشائر على الإطلاق كان على وشك الحدوث. فقد سبق وأن أرسلت رجلين ليسبقانا برسالة إلى السيد إدريس فى "جغبوب" أُعلمه فيها باقترابى؛ فالمرء فى الصحراء لا يتوجه لزيارة شخص ذى مقام رفيع، أو حتى صديق له فجأة وعلى نحوٍ غير متوقع؛ فلابد أن يكون هناك وقت لكليهما ليرتديا ملابس جديدة لائقة، ويذهبا إلى اللقاء كسيدين كريمين.

وبعد أن غادرنا "سيوة " بيومين، كنت أسير خلف القافلة على مسافة ما، عندما فوجئت بتوقفها، وعندما سألت عن سبب ذلك التوقف غير المعتاد جاءنى الرد بأن الرسولين جاءا يقولان إن السيد إدريس سوف يكون هنا خلال ساعة، وكان مجيء رئيس السنوسية بنفسه للقائنا فى بداية رحلتنا هو أسعد مبشر بيمن الطالع، أما بقية الرسالة فكانت تعكس آداب السلوك فى الصحراء؛ فقد تضمنت الطلب بأن نخيم حتى يحضر إلينا الرجال.

وفى التو نصبنا خيامنا، وقبل مرور فترة طويلة ظهرت طليعة قافلة السيد إدريس وهي تقترب، وخيمت على مسافة قريبة منا، وبعد

نصف ساعة من ذلك تقدم السيد إدريس بنفسه ترافقه حاشيته صوب خيمتى، وذهبت للقائه.

قابلنى السيد إدريس بمودة بالغة، واستأنفنا التعارف الذى تم فى اللقاء السابق، مع تقدير بالغ من جانبى وسعادة ظاهرة من جانبه، فما كان لرحلتى السابقة أن تنجح مطلقًا لولا مؤازرته ومساعداته التى قدمها لنا.

تغدينا فى خيمته؛ حيث تناولنا الأرز، والدجاج المطهى، والكعك البدوى الحلو، ثم شربنا الشاى المعطر بالنعناع وماء الورد، وأبلغته بخططى، وأخبرته عن أنباء العالم الخارجى، وكان مهتمًا بأن يعرف النتائج النهائية لمؤتمر السلام فى فرساى.

وبناء على اقتراحه أحضرت كل رجال قافلتى إلى خيمته لينالوا بركته، وبينما كنت أصغى معهم إلى الكلمات المألوفة التى تقال فى هذه الظروف وهى تتدفق من بين شفتيه، تبادر إلى ذهنى فى تلك اللحظة صورة الحجرة التى كان يعبقها البخور فى القاهرة وصورة أبى وهو يبارك رحلتى، وكيف قفز خيالى آنئذ صوب الصحراء والإبل وحياة البدو، أما الآن فالحاجة للتخيل قد ولّت؛ فقد كنت فى ملابس بدوية وخلفى إبل قافلتى، بينما يمتد أمامى الطريق إلى الهدف الذى أنشده.

أما الرجال فقد كانت تجربة أن يُباركوا من السيد إدريس ذاته، دليلاً قاطعًا على النجاح الذى سوف نحققه؛ فلا شىء يمكن أن يؤذينا الآن ولا شىء يُضارع مقابلته.

عند الغروب ودَّع كل منَّا الآخر، وتم تفكيك المخيمين، لتمضـــى كل قافلة فى مسيرتها؛ حيث اتجه السيد إدريس شرقًا إلى مصر، بينما اتجهت غربًا إلى "جغبوب"، داخل الصحراء، وحيثما كنا نسير أصـــرَّ رجالى على تتبع الآثار التى خلفتها قافلة السيد إدريس، حتـــى ينـــالوا أكبر قدر من حسن الطالع الذى حدث لنا.

الفصل الخامس

السنوسية

«ربما لا تكتمل أية قصة عن الصحراء الليبية ما لم تتضمن جزءًا عن السنوسية، صاحبة النفوذ الأعظم فى هذا الإقليم، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع معقد، وأن الإنصاف يقتضى تناوله فى مُؤلَّف كامل، فإننا فى هذا الفصل المحدود سوف نمر مرور الكرام على النقاط المهمة من تاريخ السنوسية».

السنوسية ليست عرقًا، أو وطنًا، أو كيانًا سياسيًّا، أو دينًا، على الرغم من أنها تجمع فى ثناياها بعضًا من هذه الخصائص الأربع؛ ففى الواقع يعد السنوسيون - على وجه الحصر - بدوًا مسلمين، يتركز معظمهم فى الصحراء الليبية، ويمتد نفوذهم على مساحة كبيرة من هذا الإقليم، كما تعترف بهم الحكومات المحيطة باعتبارهم قوة حقيقية فى شئون النطاق الشمالى الشرقى من أفريقيا، وربما كان أفضل وصف موجز للسنوسية هو **أنها سلطة دينية، قيادتها وراثية، تهيمن على البشر فى الصحراء الليبية.**

ويمكن تقسيم تاريخ إخوان السنوسية إلى أربع مراحل اتخذت كل منها ملامحها من شخصية قائدها؛ هم على التوالى: السيد بسن على السنوسى وهو مؤسس الطريقة، ثم السيد المهدى ابنه، ثم السيد أحمد ابن أخى الأخير، وأخيرًا السيد إدريس وهو ابن المهدى والرئيس الحالى لإخوان السنوسية (فى هذا الوقت).

السيد محمد بن على السنوسى: يُعرف بالسنوسى الكبير، ولد فى الجزائر[١٠] عام ١٢٠٢ هجريًّا الموافق ١٧٨٧ ميلاديًّا، ويعود نسبه إلى رسول الله ﷺ،[١١] نال تعليمًا دينيًّا رفيع المستوى فى جامع القرويين بفاس بالمغرب، وفى مكة المكرمة؛ حيث تتلمذ على يد الإمام العالم سيدى أحمد بن إدريس الفاسى، وقد طورت نزعته ومال نحو الزهد والتصوف، وزادت قناعته بأن ما يحتاج إليه دينه هو العودة إلى الصورة النقية للإسلام كما تتمثل فى تعاليم رسول الله ﷺ.

وفى الواحد والخمسين من عمره أُرغم على ترك مكة بناء على معارضة الشيوخ الكبار الذين تحدوا تشدده؛ لذا عاد إلى برقة – مارًّا بمصر – وبدأ فى إنشاء مراكز لنشر تعاليمه بين البدو.

وفى هذه النقطة سوف نوضح معنى ثلاث كلمات سوف ترد بعد ذلك فى النص، وهى: "الزاوية"، "الإخوان"، "الوكيل".

الزاوية:[١٢] هى بناية تتكون من ثلاث حجرات، وغالبًا ما يرتبط

---

(١٠) بلدة " مستغانم"." المترجمان "

(١١) يرد ذكره بأنه الإمام المجتهد الولى الصالح الداعية سيدى محمد بن على السنوسى بن العربى بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن القطب الشهير السيد يوسف بن القطب السيد عبد الله بن الخطاب بن على بن زيّان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا على بن أبى طالب وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت إمام المرسلين ﷺ." المترجمان "

(١٢) يقول الإمام السنوسى فى إحدى رسائله " والزاوية فى الحقيقة إنما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة،وتعمر بها البلاد، ويحصل بها النفع لأهل الحضر والباد، ولأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان"، وقد وضع الإمام السنوسى مجموعة قواعدٍ لتشييد الزوايا وعملها، من بينها:

أ – تشيد الزاوية على قطعة من الأرض يتم الاتفاق عليها مع القبيلة أو القبائل=

حجمها بأهمية المنطقة التى توجد فيها: تخصص الأولـى للدراسـة حيث يتلقي فيها أبناء البدو تعاليمهم على يد الإخوان، بينما تسـتخدم الثانية نزلاً للزائرين حيث يتلقى فيها المسافرون الضيافة لمدة ثلاثـة أيام كما تقضى بذلك تقاليد البدو، بينما فـى الثالثـة يقطـن إخـوان السنوسية.

وتُشيَّد الزاوية عادةً بالقرب من إحدى آبار الميـاه حيـث مـن الطبيعى أن يتوقف المسافرون، وتلحق بها فى الغالب الأعـم قطعـة أرض صغيرة يزرعها الإخوان.

الإخوان: هم الأعضاء النشطون فى الجماعة، القائمون على تعليم مبادئها ونشر تقاليدها، وتأتي كلمة "الإخوان" دائمًا بصيغة الجمـع، ولا تستخدم بصيغة المفرد مطلقًا حيث تستخدم الكلمة للمفرد والجمع.

الوكيـل: هو الممثل الشخصى أو نائب زعيم السنوسـية داخـل المنطقة التى توجد بها الزاوية.

=صاحبة الشأن، ويُفضل أن يختار لموضعها ربوة عالية تُشرف على ما حولهـا، ويتوفر بها المناخ الصحى، وتعتبر قطعة الأرض التـى بنيـت فوقهـا الزاويـة والمساحة المتفق عليها أن تتبع الزاوية من الجهات الأربع وقفا، لا يسـتطيع أحـد أخذه، ويسرى عليه حكم الأبدية بإذن الله سبحانه وتعالى.

ب – تتكفل القبيلة أو القبائل صاحبة الشأن بتكاليف بناء الزاوية.

جـ – الحرم المتفق على تخطيطه حول الزاوية يصبح حرمًا آمنـا لمـن دخلـه واستجار به، ولا يجوز أن يُطلق الرصاص فى داخلـه أو أن يُشـهر السـلاح أو التشاجر، أو رفع الصوت بالغناء أو بالخناق، كما يمنع فيه رعى الحيوان.

د – لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزوايا المتاخمة لهـا، ولا يجـوز لشـيخ الزاوية أن يتعدى على حدود الآخرين.

هـ– على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنويًا، كلهم أو بعضهم، إذا ما رأوا وجـوب ذلك.

و– تتكون موارد الزاوية من الزراعة، ورعى الأغنام، والهبات الخيرية، والزكـاة الشرعية.

وقد وجد السنوسى الكبير أن المسلمين فى " برقة " قد سقطوا فى البدع، كما زاد الانحلال والانحطاط الفكرى فيما بينهم، ليس فقط من وجهة النظر الدينية، بل أيضًا من وجهة النظر الأخلاقية، ولعلنا نورد بعض الأمثلة الصغيرة لإيضاح هذه النقطة.

فقد شيد بعض زعماء البدو من أصحاب النفوذ فى الجبل الأخضر،[١٣] الذى يقع شمال برقة، بنيانًا أشبه بالكعبة الحقيقية الموجودة فى مكة المكرمة، وعملوا على ترويج فكرة مفادها أن الحج إلى هذه الكعبة الزائفة، قد يعد بديلاً عن الحج إلى الكعبة المشرفة التى تعد قبلة القبل، ومن الثابت أنه على كل مؤمن أن يحج إليها متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

كما أنه على الرغم من التسليم بأن صوم رمضان - الذى يعد وقتًا للتقشف والتأمل الدينى - وأحد الأركان الرئيسية فى إيمان المسلم، فقد اعتاد البدو أن يذهبوا قبل بداية شهر رمضان المعظم إلى واد يُقال له "وادى زازا"، الذى يشتهر بترديد جدرانه لصدى الأصوات التى تطلق فيه، ثم يصيحون بالسؤال التالى: وادى زازا، يا وادى زازا هل نصوم شهر رمضان أو لا؟ وبالطبع فإن رجع الصدى يُعيد ترديد الكلمة الأخيرة من السؤال وهى "لا..لا.. لا.."، وعندها يعود من أجابهم الله من خلال وسيطه إلى ديارهم وهم يحملون تبريرًا على عدم الصوم.[١٤]

---

(١٣) يتوارث بعض المتصوفة الليبيين حتى الآن رواية مفادها " أن هذا الجبل يعد من الجبال المباركة، وأن كل الأولياء عبدوا فيه الله سبحانه وتعالى ولو ساعة. "المترجمان"

(١٤) ويشبه هذا الأمر ما كان يعتقده الإغريق من وجود "أوركل" أو وسيط تجيب الآلهة من خلاله. "المترجمان"

كما وجد أيضًا بعض العادات المنتشرة بين البدو التى تعود إلـــى الجاهلية مثل وأد البنات، لإنقاذهن من الشر الذى قد تجلبه حيـــاتهن، وبالطبع كان كل ذلك يقف حائلاً بـــين التـــزامهم بالتعـــاليم القويمـــة للإسلام.

وفى ظل هذه الظروف فإن ما كان يدعو إليه مؤســـس إخـــوان السنوسية فى تعاليمه ووعظه هو العودة إلى خيمة الإســـلام النقيـــة، وهو ما التقى مع الاحتياجات الملحة للإيمان القويم فى هذه المنطقة.

وقد شيد السيد بن على السنوسى أول زاوية فـــى أفريقيـــا فـــى "سيوة"، التى توجد فى مصر بالقرب من حدودها الغربية، ومن هـــذه النقطة تحرك صوب الغرب إلى " برقة " فأنشأ زوايـــا فـــى "جـــالو" و"عجيلا"، ثم أكمل مسيرته صوب الغرب فشيَّد زوايا فى كـــل مـــن طرابلس، وتونس. وتدريجيًّا انتشرت تعاليمه بين البدو فى كـــل هـــذا النطاق؛ حيث كانت تسبقه سمعته بوصفه رجلاً ورعًا وعالمًا جلـــيلاً، حتى إن زعماء البدو تنافسوا فيما بينهم على استضافته.

وعندما عاد إلى "برقة" عام ١٨٤٣ أنشأ فـــى الجبـــل الأخضـــر بالقرب من "درنة" زاوية كبيرة سُميت بـــ"الزاوية البيضاء"، وحتـــى ذلك الوقت لم يكن لديه مركز لقيادة السنوسية، بل كان يحيـــا حيـــاة المعلم الجوَّال، إلى أن استقر به المقام فى "الزاوية البيضاء"، واستقبل فيها زواره من قادة البدو ووجهاء برقة.

ودعا السنوسى الكبير إلى العودة إلى صـــورة الإســـلام النقيـــة، والالتزام بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولا شكَّ أن أفضل نموذج عن تعاليمه هو ذلك المقطع المقتبس من رسالة بعث بها إلى شعب "واجانجا" فى " واداى" – وقد رأيت نصها الأصلى فى "الكفرة" – قال فيها: "إنا ندعوكم بدعوة الإسلام لطاعة الله ورسوله، قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[١٥] وقال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾،[١٦] وقال تعالى:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.[١٧]

والطاعة هى الامتثال لأمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وأداء زكاة الأموال وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وشهادة الزور... وغير ذلك مما حرم الله سبحانه وتعالى. فبذلك تنالون الخير الأبدى والربح السرمدى الذى لا يعتريه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان".

وكان الاهتمام الرئيسى لمؤسس الطريقة السنوسية يتعلق بالبعد الدينى للحياة؛ فهو لم يسعَ لأن يكون قائدًا سياسيًّا، أو يحظى بسلطة دنيوية، فقد دعا للتقشف فى الحياة بمثل الحماس الذى مارسه به، وهو لم يعلمهم مذهبًا دينيًّا محددًا، كما لم يلزمهم بقبول عقائد خاصة، لكنه

---

(١٥) سورة محمد: آية ٣٣.

(١٦) سورة النساء: آية ٨٠.

(١٧) سورة النساء: آية٦٩.

اهتم كثيرًا بسلوك أتباعه مقارنة باهتمامه بالأمور المذهبية، وإضافته الوحيدة للشعائر الإسلامية هو دعاء واحد كتبه بنفسه، ويسميه السنوسيون " الحزب"، وهو لا يتعارض مع أى من تعاليم الفقهاء، كما لا يضيف جديدًا لما ورد بالقرآن الكريم، لكنه ببساطة يكرر بعض ما ورد به فى صياغة مختلفة.

وفى خطابه لشعب "واجانجا" - الذى أقتبس منه المقولة التالية - التى يصف فيها المهمة التى ألقاها الله - سبحانه وتعالى - على عاتقه بقوله "ننبه الغافل، ونعلم الجاهل، ونرشد الضال".

وقد حرَّم كل صور الرفاهية فى العيش على أولئك الذين أخذوا على عاتقهم أن يكونوا من الإخوان؛ فقد حرم امتلاك الذهب والمجوهرات - باستثناء المخصص لزينة النساء - وتناول التبغ وشرب القهوة، ولم يفرض أى طقس، وكل ما طلبه هو العودة إلى الصورة البسيطة للإسلام كما وردت فى تعاليم رسول الله ﷺ، ولم يكن متسامحًا فى التعامل ليس فقط مع المسيحيين واليهود بل أيضًا مع ذلك الجزء من العالم الإسلامى الذى - وفقًا لقناعته - حاد عن المعنى الحقيقى للإسلام.

وفى عام ١٨٥٤ أنشأ السيد بن على زاوية فى "جغبوب"، تطورت فى النهاية لتصبح مركزًا تعليميًّا لتعليم إخوان السنوسية، ولم يأتِ اختياره " لجغبوب " عشوائيًّا، أوعلى سبيل المصادفة، ولكنه يبين حكمته وذكاءه العملى؛ فقد كان مقتنعًا أنه يأتى على رأس أولوياته أن يسوى النزاع بين القبائل المختلفة فى الصحراء، وأن ينشر السلام فيما بينها. ونقتبس فقرة أخرى من خطابه لإيضاح هذه

النقطة: " لقد عزمنا على نشر السلام بينكم وبين العرب (يعد شعب واجانجا الموجه الخطاب إليهم من السلالات السوداء) الذين يغزون حدودكم، ويأخذون أبناءكم عبيدًا وأموالكم؛ إعمالاً لقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾(١٨) وأيضًا سوف نتبع طريقه " اتقوا الله، وأفشوا السلام فيما بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين".

وقد كانت "جغبوب" نقطه إستراتيجية لغرضه؛ فهى تقع فى منتصف الطريق بين القبائل فى الشرق والغرب، الذين كانوا فى صراع دائم، وبجعل مركز قيادته هناك يستطيع السنوسى الكبير أن يبسط نفوذه ليضع حدًّا لهذا الصراع، وينفذ أمر رسول الله ﷺ "وأفشوا السلام فيما بينكم"، إلا أنه من وجهة النظر العملية فإن "جغبوب" لم تكن مكانًا واعدًا ليصبح مركزًا تعليميًّا للأنشطة الدينية كما يأمل السنوسى الكبير؛ فهى لا تملك كثيرًا من مقومات الواحة، إذا جاز لنا أن ندعوها واحة بالفعل؛ فأشجار النخيل نادرة هناك، والماء مالح قليلاً، والتربة قاسية على الزراعة، إلا أن أهميتها الإستراتيجية - على كل حال - كانت واضحة، ودون تردد اختارها موضعًا لتمركزه، ومن خلال تأثيره استطاع أن يضع حدًّا للغارات المتبادلة بين القبائل فى الشرق والغرب، وسوّى العديد من الضغائن والصراعات القديمة ليس فقط بين هذه القبائل بل أيضًا بين القبائل الأخرى فى "برقة".

---

(١٨) سورة الحجرات: آية ٩.

عاش السيد بن على ست سنوات بعد أن استقر في "جغبوب"، وبسط نفوذه طولاً وعرضًا؛ فقبائل الزوىّ، الذين اشتهروا بأنهم قطاع طرق "برقة"، وأنهم لا يخافون الله أو البشر، دعوه ليأتى إلى "الكفرة"، ويصبح زعيمًا عليهم، وليؤسس زاوية هناك، واتفقوا فيما بينهم على أن يُقلعوا عن الغارات واللصوصية والهجوم على القبائل الأخرى،(١٩) وعرضوا عليه ثلث ممتلكاتهم فى "الكفرة" إذا ما قَبِل أن يأتى إليها، وبرغم أنه لم يستطع الذهاب شخصيًّا فقد أرسل نيابة عنه أحد الإخوان الشهيرين وهو سيدى عمر بوهوا الذى أنشأ أول زاوية سنوسية فى "الجوف" بالكفرة، ومنها بدأت تنتشر تعاليم السنوسى الكبير بين الزوىّ، كما كلّف إخوانًا آخرين بالذهاب إلى مناطق أخرى فى الصحراء الليبية، وقبل موته كان كل البدو المنتشرين على التخوم الغربية لمصر وفى برقة قد أصبحوا من أتباعه. وقد وافته المنية عام ١٨٥٩، ودفن فى الضريح الذى ترتفع فوقه القبة البيضاء فى "جغبوب".

---

(١٩) يرى الدكتور جمال حمدان فى كتابه " أنماط من البيئات " أنه يمكن تصنيف النهب والغزو فى الصحراء باعتباره حرفة بكل ما فى الكلمة من معنى، فعدم كفاية الموارد المشروعة يشرعها للبدوى بحيث لا تعتبر عارًا بل غارًا؛ لهذا جعل البدوى من النهب نظامًا – ويقول البعض تهكمًا بل فنًا جميلاً، وهدف الغزو إما مناطق الاستقرار المجاورة للصحراء، وإما القوافل التى يفرضون عليها إتاوات باهظة أو ينهبونها، وإما الواحات. وآلة قراصنة الصحراء هؤلاء هى الخيل، ومن أهم غنائم الغزو الرقيق؛ فهؤلاء القراصنة فى موضع القوة الذى يسمح لهم بأسر أعداد كبيرة، لكنهم ليسوا فى موضع الغنى الذى يسمح لهم باقتنائهم وغذائهم؛ لذا تصبح النخاسة هى الحل الوسط؛ مما سبق يتضح مدى ما غيرته السنوسية فى هذه القبائل، وما أضافته للمنطقة. " المترجمان "

سيدى محمد المهدى: تولى أمر السنوسية خلفًا لوالده، ورغم حداثة سنه آنذاك، حيث كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا عندما توفى والده، فإن اختياره خليفة لوالده دعمه أمران: أولهما يعود لواقعة حدثت فى نهاية مقابلة مع والده، وكان المهدى بصدد مغادرة الحجرة، عندما نهض السنوسى الكبير وكلفه بإعداد خفه الذى كان قد خلعه عندما دخل، ووقتها خاطب مؤسس الطريقة الحضور بالكلمات الآتية "اشهدوا أيها الرجال الحاضرون كيف أن ابن على السنوسى رتب خفى ابنه المهدى" وقد اعتبروا أن ذلك لا يعد فقط إشارة إلى أن المهدى سوف ينجح فى خلافة أبيه، بل إنه سوف يفوقه فى ورعه وتقواه.

ثم كانت هناك أيضًا تلك النبوءة القديمة بأن المهدى الذى سوف يعيد للإسلام مجده، سوف يبلغ سن الرشد فى الأول من محرم عام ١٣٠٠ هجريًا، ويولد من أبوين يدعيان محمد وفاطمة، ويمضى العديد من السنوات فى مكان منعزل، وكان كل جزء من هذه النبوءة ينطبق على شخص المهدى، الذى وقع الاختيار عليه ليكون خليفة للسنوسى الكبير.

وعندما بلغ السيد المهدى سن الرشد كان يوجد فى برقة نحو ٣٨ زاوية، وفى طرابلس نحو ١٨ زاوية، وفى مصر ما يقرب من ٢٠ زاوية، بالإضافة إلى العديد من الزوايا الأخرى التى تتوزع فى شمال أفريقيا، وكان عدد أتباع السنوسية فى هذا الوقت يتراوح بين مليون ونصف وثلاثة ملايين نسمة يدينون بالولاء الروحى لرأس الإخوة السنوسية، وعندما تولى المهدى هذا المنصب أصبح أكثر أفراد عائلة السنوسى شهرة.

وقد رأى منذ البداية أن هناك مجالاً أكبر لمد تأثير السنوسية في اتجاه "الكفرة" والأقاليم التي تقع جنوبها مقارنة بالأقاليم التي تقع شمالها؛ لذا قام في عام ١٨٩٤ بنقل مركز قيادته من "جغبوب" إلى "الكفرة"، وقبل رحيله حرر كل عبيده، ولا يزال يعيش العديد منهم ومن أبنائهم في "جغبوب"حتى الآن.

وقد عُدَّ انتقاله إلى "الكفرة" بمثابة بداية مرحلة مهمة في تاريخ السنوسية، وأيضًا في تنمية التجارة بين السودان وساحل البحر الأبيض المتوسط عبر طريق "الكفرة"؛ فالطريق القاسي الخالي من المياه الممتد بين بئر "بوطفل " الذي يوجد بالقرب من "جالو" وبئر "زيغن" الذي يقع شمال "الكفرة" أصبح خلال عهد المهدي طريقًا تطرقه باستمرار وانتظام العديد من القوافل التجارية، بالإضافة إلى المسافرين القادمين لزيارة مركز السنوسية، حتى إن أحد البدو قال لي ذات مرة "إن المرء كان يستطيع السير لمسافة نصف يوم من نهاية قافلة إلى بداية الأخرى".

كما كان الطريق الممتد من جنوب "الكفرة" إلى "الواداي" يعد من الطرق الخطرة والقاسية في هذه الأيام، وقد تسبب المهدي في حفر بئرين على هذا الطريق في المسافة الممتدة من "الكفرة" إلى "تيركو" هما: "بيشرا" و"سارا".

وكانت هذه المجموعة من الواحات تعد مركزًا رئيسيًّا للصوصية في الصحراء الليبية إبان حكم قبيلة زويّ البدوية، الذين انتزعوا "الكفرة" من قبائل التبو السوداء؛ فقد كان الزويّ من القبائل المولعة بالحرب، وفي الأيام التي سبقت قدوم السنوسي كان هناك قانون فيما بينهم يهددون بموجبه كل من يمر بحدودهم؛ فكل قافلة تمر عبر "الكفرة" سواء كانت قادمة من الشمال أو الجنوب كانت تنهب، أما

سعيدة الحظ منها فكانت تُجبر على دفع دية مرور للزوىّ، وقد أقنع المهدى المسيطرين على "الكفرة" بأن يُقلعوا عن فرض هذه الإتاوات، وأدرك أهمية تنمية تجارة الواحات والطرق التى تقطع الصحراء الليبية من الشمال إلى الجنوب، وناضل ليجعل السفر فى الصحراء آمنًا، حتى إن بوماتارى زعيم الزوىّ أخبرنى - عندما كنت فى "الكفرة" - أنه فى أيامه أمكن للمرأة أن تسافر من "برقة" إلى "الواداى" دون أن يتحرش بها أحد.

كما نجح المهدى فى مد دائرة نفوذ السنوسية إلى العديد من الاتجاهات؛ فقد أرسل الإخوان إلى الخارج لإنشاء الزوايا من المغرب فى أقصى الغرب إلى إيران فى أقصى الشرق، إلا أن جهده الأعظم كان فى الصحراء الليبية بين البدو وقبائل السود التى توجد فى الجنوب من "الكفرة"، وهو لم ينجح فى أن يجعل من السنوسية قوة روحية فى هذه الأقاليم، وذات تأثير قوى من أجل السلام والوئام بين القبائل فحسب، بل جعلها كذلك منظمة تجارية قوية محفزة على تنمية التجارة وازدهارها، وفى السنوات الأخيرة من حياته عمل شخصيًّا على مد نفوذ الإخوة صوب الجنوب، فقد ذهب إلى "جيرو" التى تقع إلى الجنوب من "الكفرة"، وعندها وافته المنية فجأة عام ١٩٠٠ م.

وكان أبناء المهدى فى هذا الوقت قاصرين؛ لذا أصبح ابن أخيه السيد أحمد رأس الإخوة السنوسية، باعتباره الوصى على السيد إدريس،[٢٠] الذى كان الوريث الشرعى نظرًا لأنه أكبر أبناء المهدى سنًا.

---

(٢٠) كان السيد إدريس - أكبر أبناء المهدى - يبلغ من العمر فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عامًا. "المترجمان"

وقام زعيم السنوسية الجديد بانحراف مفاجئ عن سياسة من سبقوه؛ فقد أراد أن يجمع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وعندما استولى الإيطاليون على حكم برقة وطرابلس من الأتراك حاول السيد أحمد أن يوحد قوته الروحية كرأس للإخوة مع ما تبقى من القوات العسكرية التركية.وعندما اندلعت الحرب العالمية حثه مبعوثو الألمان والأتراك على مهاجمة الحدود الغربية لمصر، ولكن سعيه فشل فشلاً ذريعًا، وأُجبر السيد أحمد على المغادرة إلى الآستانة فى غواصة ألمانية.

وقد رأى ثالث زعماء السنوسية الأمور بصورة مختلفة عن السنوسى الكبير وأكبر أبنائه؛ حيث أدرك أن القوة الروحية لا يمكن هزيمتها على أرضها، فى حين أنه إذا ما نزل الميدان طالبًا السيادة الدنيوية، فالأمر لا يتطلب سوى بضع قوات عسكرية مجهزة لتدمر سمعته؛ فقوة السيد بن على السنوسى والسيد المهدى تكمن فى أنفسهم وفى تأثيرهم الروحى الذى ينبع من ذاتهم، بينما تنازل السيد أحمد عن هذا التأثير وعول على الجيوش والذخيرة الحربية والظروف المحيطة، وعندما فشل كل هذا، لم يتبقَ له شىء.

وقد سلمت قيادة السنوسية بعد ذلك من يد السيد أحمد إلى وريثه المباشر السيد إدريس الذى يستمد جزءًا كبيرًا من مكانته بلا شك من حقيقة كونه ابن المهدى، لكنه حتى دون هذه الميزة فإنه يمتلك من السمات الشخصية ما يكفى كأساس للنجاح فى ذلك المنصب المهم الذى تقلده؛ فهو يجمع بين كرم الأصل ودماثة الخلق مع شخصية حازمة لأعلى الدرجات، وهو لا يحظى بولاء ودعم ومؤازرة إخوان السنوسية فحسب بل يحظى بمثل ذلك أيضًا من سكان الصحراء الليبية.

وفى عام ١٩١٧ أبرمت اتفاقية بين الحكومة الإيطالية والسيد إدريس بوصفه رأس إخوان السنوسية، يحق له بمقتضاها أن يدير شئون واحات "جالو"، " وعجيلا"، و" جدابيا"، و"الكفرة"، واعترف بذلك بوضوح، وتم التصديق على هذه الاتفاقية مرة أخرى بعد عامين من ذلك فى " رجيما"، وللأسف الشديد فقد حدث سوء فهم عام ١٩٢٣ بين جانبى هذا الاتفاق تسبب فى تجميده، لكنه يؤمل على أية حال أن يتم توقيع اتفاق جديد بين السيد إدريس والسلطات الإيطالية لعله يعيد لهذه الواحات التى توجد فى الصحراء الليبية(٢١) سلامها وازدهارها.

ولا مجال للسؤال عن أن تأثير إخوان السنوسية على حياة البشر فى هذا الإقليم كان جيدًا، ولم يقتصر دور إخوان السنوسية على تعليم البشر الدين والمعلومات العامة، بل إنهم حكموا وتوسطوا بين الرجال

---

(٢١) هاجر السيد محمد إدريس بعد ذلك إلى " مصر " بعد شعوره أن الايطاليين يتآمرون عليه، وفى عام ١٩٤٠ اتفق مع الإنجليز على تكوين جيش ليبى من المهاجرين الليبيين فى " مصر " و"سوريا"، سُمى بالجيش السنوسى، كما اتصل به الجنرال شارل ديجول وعرض عليه مساعدة " فرنسا " له فى طرد الإيطاليين، وفى عام ١٩٤٣ تخلصت " ليبيا " من الاستعمار الإيطالى إثر هزيمة "ألمانيا" وإيطاليا فى الحرب العالمية الثانية من دول الحلفاء " إنجلترا"، و" فرنسا"، و"الاتحاد السوفيتى"، و"الولايات المتحدة الأمريكية"، وخضعت كل من ولاية "طرابلس" وولاية " برقة " لإدارة عسكرية إنجليزية، بينما خضعت ولاية "فزان" لإدارة عسكرية فرنسية، وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م أعلن استقلال ليبيا المتحدة بولاياتها الثلاثة والمناداة بمحمد إدريس السنوسى ملكًا على " ليبيا"، وظلت تحمل اسم المملكة الليبية المتحدة حتى صدر قرار ملكى فى ٢٧ أبريل ١٩٦٣م، بإنهاء الاتحاد وأصبح اسمها المملكة الليبية، ولكن الوعى الوطنى بدأ يطفو على السطح منذ عام ١٩٦٦، وفى عام ١٩٦٧ قاد "سليمان المغربى" المحامى المتعلم فى "الولايات المتحدة الأمريكية" أول إضراب لعمال النفط فى ليبيا، وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٦٩ م اندلعت الثورة الليبية التى أطاحت بالملك إدريس، وقاد مجلس قيادة الثورة العقيد معمر القذافى. "المترجمان"

والرجال وبين القبائل والقبائل، كما وضحت ذلك بجلاء تلــك الفقــرة التى اقتبسناها من الخطاب الموجه إلى سكان "واجانجا " كيف جعــل السنوسى الكبير من وظيفة صنع السلام واجبًا على إخوان السنوسية، وقد تطور هذا الأمر وأصبح أكثر أهمية على يد ابنه العظيم المهدى.

ومما لا شك فيه أن الدور الذى لعبته السنوسية فى حفظ الهــدوء والسكينة بين البشر فى الصحراء الليبية مــن الصــعب حصــره أو تجاوزه.

الفصل السادس

سلام جغبوب[٢٢]

«بعد ظهر اليوم التالى للقائنا مع السيد إدريس شاهدنا القبة البيضاء لجامع "جغبوب" ترتفع أمامنا، وطبقًا لتقاليد البدو خيمنا على مسافة قريبة من البلدة، وأرسلنا رسولاً ليسبقنا ويعلن وصولنا، وبعد ساعتين عاد الرسول ليخبرنا أنهم جاهزون لاستقبالنا».

تقدمت القافلة، ومع اقترابها من الأسوار بدأنا فى إطلاق بنادقنا فى الهواء،[٢٣] وكان فى استقبالنا عند البوابة سيدى حسين الوكيل أو ممثل السيد إدريس فى البلدة، ترافقه مجموعة من الإخوان الذين

---

(٢٢) كانت واحة "جغبوب" حتى ذلك الوقت تعد من الأراضى المصرية، وقد انتقلت تبعيتها إلى الحكومة الليبية عام ١٩٢٥، أثر توقيع " معاهدة جغبوب " لترسيم الحدود بين مصر وليبيا، بعد أن تنازل عنها الملك فؤاد إلى الجانب الليبى، الذى طالب بها نظرًا لأنها تضم رفات عميد الأسرة السنوسية، وقد ساعد على إبرام هذا الاتفاق عدة عوامل لعل أبرزها ما يلى:

- ارتباط الملك فؤاد بعلاقات ودية طيبة مع الأسرة السنوسية والإيطاليين الذين كانوا يحتلون ليبيا فى ذلك الوقت.
- كان ترسيم الحدود بين "مصر " و" ليبيا " يعد أمرًا مهمًا للإنجليز الذين كانوا يهيمنون على السلطة فى مصر فى ذلك الوقت نظرًا لوجود الإيطاليين على حدود مصر الغربية.
- تنازلت " ليبيا " فى المقابل للحكومة المصرية عن مرتفعات " السلوم". "المترجمان"

(٢٣) تستخدم هذه الوسيلة للإعلان عن اقتراب القافلة." المترجمان "

يدرسون فى المدرسة، بينما اصطف التلاميذ على طـــول الطريــق، وظلوا يهتفون لنا بينما كنا نمر بينهم، وكان دفء تـــرحيبهم يتــردد صداه فى قلوبنا.

كان الدخول إلى "جغبوب" بالنسبة لى بمثابة العودة للديار؛ فمنـــذ عامين كانت أقرب نقطة إلى نهاية رحلتى، والآن تقف بوصفها نقطة بداية أو واحدة من عدة نقاط. إنها الحقيقة؛ فهى مازالت تعـــد نقطـــة بداية للرحلة العظيمة التى ستبدأ.

وتقترن ذكرى زيارتى الأولى "لجغبوب" بالشعور الـــذى يتملـــك المرء عندما تنتهى رحلة طويلة، أما الآن فإننى أُدخلها وأنا مترقـــب المرحلة التالية من رحلتى ومستثار لكى أبـــدأ. ولا شـــك أن نهايـــة الرحلة وبدايتها لحظتان عظيمتان، ولكن المشاعر التى تقترن بكليهما مختلفة.

كنت متلهفًا لأبدأ من جديد، ولكن مر شهر وأربعة أيـــام قبـــل أن أستطيع العودة للطريق؛ لأنه لم يكن هناك أية إبل تنتظرنى، رغم أننى قبل أن أترك السلوم أرسلت رجلاً يُدعى السـيد علـــى السـيتى عبـــر الطريق المباشر"لجغبوب" ليقوم باستئجار الإبل المطلوبـــة، ويجعلهـــا تنتظر إلى أن أصل من الطريق الطويل عبـــر"سيوة"، ولكن عليًّا هـــذا تحول بقدرة قادر إلى هواء، وبقدر ما علمت فقد ذهب لما يقرب مـــن "جدابيا" دون تحقيق أى نجاح يُذكر؛ لأنه لم يجد أى بدوى على طريق "السلوم" يقبل أن يؤجر لـــه الإبل التى أريدها، كما لم يجـــد أيـــة إبـــل متاحة فى "جدابيا" أيضًا، انتظرت أسبوعين ولم تبدُ أية إشارة لعلى، ثم اكتشفت أن سبب عدم حصوله على الإبـــل يعـــود إلـــى أن اســـتخدام

الطريق من "جغبوب" إلى "جالو" مقصور على بدو قبيلتـــي "الـــزوىّ" و"المجابرة"، ولا يجرؤ أى بدوى آخر على المغامرة بالسير فيه.

ورغم تلهفى على الرحيل من جديد، فإننى لم أستطع مقاومة سحر المكان وسكينته، الذى وجدت نفسى محتجزًا فيه.

وتعد جغبوب مركزًا تعليميًّا ودينيًّا، فلا يوجـــد هنـــا تجـــارة أو زراعة، باستثناء بعض القطع الصغيرة من الواحة التـــى يزرعهـــا العبيـــد السابقون – الذين أعتقهم السيد المهـــدى عنـــد انتقالـــه إلـــى "الكفرة" – بالخضراوات، بالإضافة إلى بعض النخيل؛ فحيـــاة البلـــدة تتمحور حول المسجد الذى يوجد بها، والذى يتسع لما يتـــراوح بـــين خمسمائة وستمائة فرد، والمدرسة التى تعد بمثابة مركـــز السنوســـية للتعليم الدينى، وبالقرب من المسجد توجد بضعة منازل تخص عائلـــة السنوسى، والإخوان، بالإضافة إلى بعض المنازل الخاصة المتنـــاثرة داخل الأسوار وخارجها، إلى جانب مجموعة من البنايات التى تتجمع بالقرب من المسجد، وتضم العديد من الحجرات التى تتســـع لســـكنى نحو مائتين أو ثلاثمائة طالب.

وقد بلغت "جغبوب" قمة مجدها عندما اتخذها الســـيد بـــن علـــى "السنوسى الكبير" مركزًا لإخوان السنوسية، وعندما خلفه ابنه الســـيد المهدى استمرت أهمية البلدة بضع سنين حتى نقـــل مركـــز أنشـــطة الإخوان إلى "الكفرة"، ثم عندما تولى السيد أحمد الشريف – بصـــفته الوصى على السيد إدريس الصغير – السلطة، ازدهـــرت "جغبـــوب" مرة ثانية باعتبارها عاصمة للسنوسية. وقد تغيـــرت أهميتهـــا عبـــر السنين من خلال حضور أو غياب رأس الأســـرة السنوســـية داخـــل

أسوارها. وإذا ما اتخذها السيد إدريس مرة أخرى مقرًا لقيادة السنوسية، فخلال شهرين سوف تفيض البلدة والمدرسة بالإخوان والطلبة والزوار لضريح السنوسى الكبير.

لكن خلال وقت زيارتى لم يكن هناك سوى ثمانين من صغار البدو، الذين يتراوح أعمارهم بين ثمانى وخمس عشرة سنة، يدرسون تحت إشراف الإخوان، وإذا ما كان هناك طلبة أكثر فسوف يكون هناك مدرسون أكثر، ولكن عند زيارتنا كان رأس عائلة السنوسية - الذى قابلناه فى طريقه إلى مصر - قد نقل مقر قيادته إلى "جدابيا" التى تقع بعيدًا صوب الغرب.

أما المسجد ففى إحدى حجراته الداخلية يوجد قفص من النحاس المزخرف يطوق الضريح؛ حيث يُسجى جسد ذلك الرجل العظيم الذى نشد لقومه العفاف، والزهد، والصورة البسيطة للإسلام التى لم يلوثها أى اتصال بالعالم الخارجى، وإلى هذا الضريح يأتى كل متشيع للطريقة السنوسية متكبدًا مشقة الرحلة من أجل أن يبايع ويجدد القسم.

ويحضر تلاميذ المدرسة إلى "جغبوب" لأحد هذين الغرضين: إما أن يعدوا أنفسهم ليصبحوا من "الإخوان"، أوببساطة ليعودوا بعد ذلك إلى ديارهم فى الواحات بعد أن يصبحوا رجالاً متعلمين وقادة روحيين فى مجتمعاتهم. (٢٤)

---

(٢٤) ساهم هذا الأمر فى نشر الإسلام فى كل من "واداى"، و"باجرامى"، و"بورنو" ونواحى بحيرة تشاد؛ فقد كانت طريقة السنوسيين فى نشر الإسلام بين الأفارقة تعتمد على عدة طرق منها: شراء الأرقاء الصغار من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من قبائل السود ويربونهم فى تلك الزوايا، فإذا ما بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعادوهم إلى بلادهم لكى يهدوا أهلهم، وينشئوا الزوايا السنوسية بين القبائل الأفريقية. "المترجمان"

وباستثناء الإزعاج الذى سببته لى مشكلة عدم إمكانية الحصـــول على إبل لاستكمال رحلتى إلى "جالو" التى تبعد نحو ٣٥٠ كيلـــومترًا صوب الغرب، كانت حياتى فى "جغبوب" سلامًا داخليًّـــا واســـتعدادًا للمشروع القادم.

فالصحراء تتطلب وتستدعى تأهيلاً ذهنيًّا وروحيًّا مختلفًـــا عـــن حياة المدينة بصخبها وتلاحقها؛ لذا كنت كثيرًا ما أتجول حول البلـــدة الصغيرة أو خارجها حيث الواحة التى تحيط بها، أو أقف فى منطقـــة ظليلة باردة بجوار المسجد أو أجلس فى بعض الأوقات فـــى البـــرج الذى يعلوه أتحدث مع البدو المتعلمين، أو أراقب الليل وهـــو يســـقط فوق القبة ناصعة البياض والكتل البنية للمبانى التى تشـــرف عليهـــا، حين أتخلص من كل القلق والحيرة والمشاكل التـــى تجلبهـــا الحيـــاة المتكلفة فى الأماكن المزدحمة.

كانت الأيام تمضى يومًا تلو الآخر على النحو التالى: تمشية فى الصباح، يعقبها صلاة فى منتصف النهار بالمسجد، وجبـــة طعـــام هادئة، عمل قليل باستخدام أدواتى العلمية أو الكاميرات، صلاة بعـــد الظهر، تمشية أخرى، وجبة طعام تـــوزع بعـــدها أكـــواب الشـــاى الصدوقة على رجالى طبقًا للتقاليد البدوية، صلاة مرة أخرى، وبعـــد ذلك تأمل هادئ فى سماء المساء بنجومها المسالمة، ثم أتوجه للنـــوم الذى لا يعرف مذاقه ساكن الحضر.

* * *

من بين كل الإخوان الذين قابلتهم وتحدثت معهم فى "جغبـــوب"، كان هناك على وجه الخصوص رجل أثار فضولى؛ لأنه كان يتجنب

الجلوس أو الحديث معى، كما لم أستطع معرفة سبب عزلته الغريبة ممن سألتهم من الإخوان، وأخيرًا وبالمصادفة عرفت قصة سيدى آدم بوجميرة.

وسيدى آدم عجوز هرم ذو وجه يكسوة الكبرياء، وتقطر منه المرارة، كما لو أن الحياة لم تكن كريمة معه فى أيام شيخوخته.

وفى زيارتى الأولى " لجغبوب " مكثتُ فى داره الفارغة مدة ثلاثة أيام، ولم تتح لى وقتها الفرصة لأن أجرى معه محادثة طويلة، وفى هذه المرة جاء ليرانى ليلة وصولى ويرحب بعودتى إلى "جغبوب"، وشعرت وقتها أن هناك مأساةً وراء هذا الكهل، كان أحد أفراد قبيلة "باراسا" التى تعد من الصفوة بين البدو، وكان معتزًا بنفسه كأى فرد منهم، ورغم هذا فلم يكن راضيًا بقدره، ولبعض الوقت كنت أتساءل كيف أصبح على هذا النحو؟! فالبدو لم يكن من شيماتهم ذلك؛ فكل من حولى فى "جغبوب" كانوا بشرًا مطبوعين على القناعة والرضا وفعل الخير، بينما وقف سيِّدى آدم بمفرده بعيدًا عن إخوانه، يمثل صورة مأساوية لانهزام الكبرياء!

وفى نهاية إحدى الليالى بينما كنت عائدًا من المسجد بعد الصلاة، قابلت مبروكًا – وهو عبد عجوز من عبيد سيِّدى المهدى – بادرته بالتحية "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"؛ فرد علىَّ" وعليكم السلام يا سيِّدى ورحمة الله وبركاته"، بعدها جلست معه، وبدأنا نتحدث عن المساحات الصغيرة المزروعة فى الواحة وأى منها يتولى العناية بها، فتعجب قائلاً "إيه! ليس لدينا طعام كثير، ولكن بمباركة سيِّدى المهدى فإن القليل الذى لدينا مثل الكثير الذى فى أى مكان آخر".

وفى هذه الأثناء مرَّ سريعًا شخص ضعيف طويل القامـة يرتـدى عباءة بيضاء بدا كشبح يعبر الساحة، كان هو آدم بوجميرة، فقلت وأنـا أشير إليه "إن سِيْدى آدم يسير هناك"، ثم تساءلت "إنه لم يبدُ فى صـحة جيدة عندما حضر لرؤيتى اليوم، تُرى ماذا أصابه؟" لا، إنهـا ليسـت صحته يا سِيْدى، إنه شـخص سيئ الحظ؛ فقد حلَّ به عدم رضا سيدنا - يقصد زعيم السنوسية - فالرجل المسكين يعـانى مـن سـوء ولاء أخيه".

وعندها بدأت قصة آدم بوجميرة تتكشف أمامى بواسطة مبروك.

"سِيْدى بوسيف بوجميرة شقيق سِيْدى آدم كان فى أحـد الأيـام موضع ثقة سِيْدى المهدى ووكيله القوى فى "جغبوب"، وعندما كـان طفلاً صغيرًا، سقط جدار عليه وتحطم فوق رأسه، ولحسن الحظ كان سِيْدى السنوسى الكبير - مؤسس الطريقـة - فى الجوار، فأخذ رأس الطفل وضمها معًا، قائلاً "هذه الرأس سوف تصبح فى أحـد الأيـام ينبوعًا للعلم والمعرفة، وتحققت نبوءته؛ فقد أرسل والد بوسيف الطفل إلى "جغبوب"، وعندما استقر السنوسى الكبير هناك تركه يدرس فـى جامع "جغبوب"، حتى أصبح قائدًا للإخوان فى الواحة ومعلمًا كبيـرًا فى "جغبوب"، كما كان أيضًا شاعرًا لا يُبارى، وبعد وفاة السنوسـى الكبير، أخذه سِـيدى المهدى وجعله وكيله الوحيد فى"جغبوب" عندما رحل إلى "الكفـرة"، وائتمنه على كل ممتلكاتـه وإدارتها، ولكـن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يجعل منه عبرة للإخوان الآخرين ومثالاً لمن يخون ثقة الأسياد، فقد انساق خلف العالم وغواياته، فبدد الكثيـر من ممتلكات سِيْدى المهدى، وباع الكثير من عبيده ووضع ثمنهم فـى

جيبه الخاص، وكان لابد من أن يُعاقب. فقد كتب خطابًا إلى الحاكم الكبير فى مصر يخبره فيه أن سيِّدى المهدى يوجد بعيدًا فى واحة "الكفرة"، ولا يوجد أحد فى "جغبوب" يدافع عنها، وأن الوقت ملائم لاحتلال المكان، لماذا فعل مثل هذا الأمر غير المتصور، طالما أنه لم يكن هناك أحد يطمع فى احتلال "جغبوب "؟ لا أحد يعلم، إلا أنه ما من شك فى أن بوسيف ظن أنه قد يجنى شيئًا من هذا الأمر.

وفى هذا الوقت كان يقيم فى "جغبوب " سيِّدى محمد العبيد السنوسى ابن أخى سيِّدى المهدى، وسمع أن بوسيف كتب خطابًا ما وسوف يرسله إلى مصر، وأنه رتَّب مع رسول لأن يأخذه عبر الحدود عندما يحل الظلام، وفى التو أرسل محمد العبيد رجلين من الإخوان ليكمنا للرسول ويحضرا الرسالة التى معه، وبعد يومين من ذلك أعيد الرسول، وأطلع محمد العبيد على الرسالة، لكنه لم يقل شيئًا لبوسيف، لكنه ببساطة أمر بإعداد قافلة للتوجه إلى "الكفرة"، وطلب من بوسيف أن يرافقه فى هذه الرحلة، وحاول الأخير الاعتذار بدعوى كبر سنه واعتلال صحته، ولكن محمد العبيد أصر على أن يرافقه؛ لذا لم يكن لديه خيار سوى الذهاب، وخرجا معًا فى رحلة صامتة عبر الصحراء، وعندما وصلت القافلة إلى "الكفرة"، أطلع سيدى محمد العبيد سيِّدى المهدى على الخطاب.

وفى يوم الجمعة الذى تلا وصولهم، وبعد صلاة الظهر فى مسجد التاج "بالكفرة"، جمع سيدى المهدى الإخوان كلهم بمن فيهم بوسيف.

"سيِّدى بوسيف أنت تعرف ما فعلته"، وفى هذه الأثناء خيم الصمت على الجميع؛ فكل فرد فى المسجد شعر بالاستثارة، وأن شيئًا

ما سوف يحدث، " لكننا لن نعاقبك، بل سوف تحيا، وتتلقى المال والطعام طبقًا لتقاليدنا، والله وحده هو الذى سوف يعاقب من يخون ثقتنا، ولكن عليك أن تقرأ بصوت عال لهذا الجمع من الإخوان الخطاب الذى كتبته بيديك".

ولم يكن أمام بوسيف خيار آخر سوى قراءة الخطاب، كان الإخوان صامتين على الرغم من الدهشة من أمر هذا الشخص الذى كان يُعتقد أنه أكثر الرجال الذين يثق بهم سيدى المهدى.

وقال سيدى المهدى ليصرفه " من الآن سوف تُعفى من مشاكل الاهتمام بشئوننا، وعاد بوسيف بعد ذلك إلى منزله مريضًا، وبعد بضعة أيام من ذلك وافته المنية، كما توفى ابناه فى الشهرين التاليين، أما ابنتاه فقد صارتا زوجتين لفردين من عائلة السنوسى، بينما آلت كل ممتلكاته ومكتبته – التى يقال إنها كانت أكبر مكتبة فى نطاق السنوسية – إلى عائلة السنوسى، والرجل الوحيد الذى تبقى من تلك العائلة هو سيِدى آدم أخوه، الذى ورث المنزل الفارغ فى "جغبوب" بالإضافة إلى العار، وبموت آدم فإن الأسرة بالكامل سوف تنقرض.

الفصل السابع

الغذاء والدواء

«خلال توقفنا فى الواحات كنا نحظى بصور عديدة من الحفاوة التى تدل على كرم الضيافة الذى يتحلى به قادة السنوسية فى "جغبوب"».

وهناك أنماط مختلفة من الضيافة بين البدو تتوقف على مكانة كل من المضيف والضيف بالإضافة إلى مناسبة الدعوة؛ فعندما يصل مسافر إلى واحة أو بلدة ما فى الصحراء فإنه يصطحب معه قافلته المزودة بكل احتياجاته المعيشية، وهو لا ينزل فى فندق أو يذهب إلى دار صديق للسكنى، بل يعتمد على أدواته، سواء نصب خيامه وأقام بها مخيمًا، أو شغل إحدى الدور التى توضع تحت تصرفه بواسطة أحد سكان المنطقة، كما حدث لى فى "جغبوب" و"جالو" و"الكفرة"، ثم بعد ذلك تأتى الضيافة والتكريم من أصحاب المقام الرفيع فى المجتمع؛ فقد يوجهون الدعوة للفرد لتناول طعام الغداء أو العشاء فى دورهم، أو يرسلون الطعام للضيف فى داره أومخيمه، والنمط الأول من الضيافة سوف أصفه عندما نصل إلى "جالو"؛ حيث احتفى بى هناك نحو اثنى عشر أو خمسة عشر شخصًا من أصحاب المكانة الرفيعة على التوالى، بينما النمط الثانى هو ما لقيته فى "جغبوب"، وهذان النمطان من الضيافة قد يستمران للفرد من ثلاثة إلى سبعة أيام، بحسب منزلة كل من المضيف والضيف.

فبعد عدة أيام من وصولى إلى "جغبوب" زارنى كل من سِيِّدى إبراهيم، وسيِّدى محيى الدين أصغر أبناء السيد أحمد الوصى الرسمى على السيد إدريس، والذى كان فى ذلك الوقت فى "أنجارا". كان الصبيان فى الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمريهما، وقد حضرا للاحتفاء بى فى دارى البدوى الخاص بقبيلة "باراسا"، يرافقهما ممثل رسمى لمضيفى بالإضافة إلى عبدين محملين بالطعام، وقد وضعا أمامى وليمة لا يقل عدد أطباقها عن عشرين، ودعيت لتناول الطعام، بينما جلس ممثل مضيفى والصبيان فى وقار، دون أن يلمسوا كسرة خبز واحدة، وتذوقت الطعام الواحد تلو الآخر، والذى أظن أنه لا يوجد فرد على وجه الأرض يستطيع تناوله كله ويظل على قيد الحياة، كانت وظيفته كنائب عن مضيفى أن يرى إن كان ينقصنى شىء ليصبح الطعام مرضيًا ومقبولاً، وليرفه عنى بالحديث بينما أتناول الطعام، وهو من قبيلة "باراسا" الذين يعدون من الطبقة الأرستقراطية فى الصحراء، وهم طوال القامة، ممشوقو القوام، وسيمون، فخورون بأنفسهم، يتسمون بشجاعة الأسود وروحها؛ فإذا ما كان فرد الباراسا بمفرده وسط قبيلة أخرى وتعرض للإهانة فإنه لن يتردد فى مقابلة هذه الإهانة أو المعاملة الجافة بتحد فورى، وأن يحارب الجميع بيديه العاريتين إذا ما وصل الأمر إلى هذا الحد.

وتحت حصار عينيه الفطنة وانتظار العبدين اللذين رافقاه، تناولت طعامى.

ولست متأكدًا من أننى أستطيع تذكر كل الأصناف التى وضعت أمامى، إلا أنها كانت تشتمل على: مرق لحم دسم أضيف إليه الزبد

والأرز، طبق ضخم من اللحم المسلوق، وعاء كبير من الأرز عليه قطع صغيرة من اللحم، بيض سُلِق لفترة طويلة ثم قُشِّر وُحمِّر بالبيض والبصل والأعشاب، كرشة، قطع لحم مطهوة في صلصة الطماطم، كتل لحم مفروم يكسوها البيض ومقلية في السمن، سجق، خضروات (كوسة، بامية، ملوخية)، كوسة مطهوة بالأرز وقطع اللحم، كسكسى "طبق عربى مميز مصنوع من الدقيق المطهو على البخار"، سلطة، نوع من المهلبية المصنوعة من دقيق الذرة واللبن، فطائر بدوية بالعسل، أرز بلبن، نوع من المعجنات المصنوعة من الدقيق الممزوج بالزبيب واللوز، والأخير يعد طبقًا مصريًّا أكثر من كونه صنفًا من أصناف الصحراء، وقد أعده خصيصًا لى العبد الذى طها الطعام لمعرفته أننى مصرى، وقد بذل ما فى وسعه ليسرنى، وقد بلغ ذروته فى هذا الصنف المصرى الشهى، والذى نسميه فى الوطن "سد الحنك" أى الذى يملأ الفم، وهو يملأ روح من يذوقونه بالبهجة أيضًا.

واللحم هو العنصر المهيمن على كل الأطعمة فى المطبخ البدوى، ولحم الضأن والحملان بصفة عامة؛ فالضيافة الحقيقية بلا لحم تعد أمرًا يستحيل تخيله لدى قاطنى الصحراء؛ فاللحم هو حجر الزاوية ليس فقط فى الضيافة البدوية بل أيضًا فى الحياة البدوية، فيما عدا عندما يكون المرء على سفر ويتعذر الحصول عليه، ويجب أن يقدم اللحم للضيف، وأن يكون لحمًا أُعد خصيصًا من أجله؛ فعندما يوجه البدوى الدعوة لأحدهم لتناول الطعام معه، فإنه يذبح خروفًا خصيصًا من أجل زائره، وطبقًا للعرف فإنه إما أن يذبح الحيوان ويعد الطعام قبل أن يصل هذا الشخص انطلاقًا من أنه لا مجال للشك

فى أن هذه التجهيزات قد أعدت خصيصًا للضيف، وإمــا أن يتــابع مجاملته إلى النقطة التى يطلب فيها من الضيف الذى سوف يشــاركه الطعام - عند وصوله - أن يعيره سكينًا لكى يذبح بها الخروف؛ لأن الضيافة تتطلب أن يقتنع الضيف أن كل هذا التكريم قد أُعدَّ من أجله.

والتنوع الكبير للأصناف فى قائمة الطعام البدوية يعد من الأمور الجوهرية عندما تتم ضيافة صديق أو أحد الغرباء رسميًّا. وكلما زاد تنوع الأطباق المقدمة كانت الضيافة أفضل، وكلما علت مكانة الأفراد الموجهة الدعوة إليهم لحضور الوليمة المعدة كان التكريم أعلى.

ويتركز الترفيه البدوى نفسه على الطعام؛ لأنه فى الصــحراء لا يوجد شىء على طريق البهجة فيما عدا تناول الطعام؛ فالأكــل فــى البيئة البدائية المحيطة بالواحة هو القصة كاملة.

* * *

خلال الشهر الذى أمضيته فى "جغبوب" أثارت انتباهى حادثتــان بينتا كيف يتشابه الشرق والغرب فى سلوكهما رغم الاخــتلاف فيمــا بينهما. الحادثة الأولى كانت كوميدية بينما الأخرى ضــمت المأســاة والمرح جنبًا إلى جنب.

كنت قد أعطيت تعليماتى بأنه يجب ألا يرد أى فرد يــأتى إلــى منزلى طالبًا الدواء، وقد لجأ إلىَّ سيدى زويلا، وهــو أحــد إخــوان السنوسية، لأعينه على السعال، فأعطيتــه زجاجــة شــراب مضــاد للسعال، وبعد يومين ظهر مرة أخرى قائلاً إن الجرعات القليلة التــى أخذها فى المرة الأولى جعلته أفضل بكثير مما كان عليه حتــى إنــه

أنهى الزجاجة سريعًا، وسأل إن كان من الممكن أن يحصل على زجاجة أخرى، وكان عبد الله حاضرًا هذا اللقاء، فوجدته بعد رحيل الرجل يتذمر بتعليق ساخر "نعم، وجده حلوًا، ولذيذ المذاق، فأخذه كشراب وليس كدواء". ومن المحتمل أن يكون تعقيبه صحيحًا؛ ففي أثناء السنوات التي أمضيتها في " إنجلترا " سمعت أن كثيرًا من الأطفال كان سعالهم يستمر بقوة طالما كان الدواء حلو المذاق ولذيذًا.

وكان أكثر ما يؤرقني هو اعتياد رجالي التفاخر بالأشياء التي يمكن فعلها بما معنا من مؤن؛ فقد جاء إليَّ البشكاري طالبًا مني شيئًا يعالج به إحدى إمائه من التوهان، بعد أن قام أحمد بجر رجله نحوي بدعوى أن معي دواء لكل شيء، ولم أستطع وقتها سوى أن أجيبه بأنه من واقع خبرتي في مناطق مختلفة من العالم فإن علاج خادم من النسيان أشبه بصعوبة منع المياه من التسرب في الرمال.

أما الحادثة الثانية فقد ربطت وقائعها بين رجلين مختلفين اختلاف الليل والنهار؛ ففي أحد الأيام حضر إلى منزلي عبد سيدي حسين " الوكيل"، وقد أرسله سيده ليستشيرني في أمر لم يجرؤ على مكاشفتي به شخصيًا؛ فتقاليد البدو تحرم على الرجل التحدث مع آخر عن زوجاته أو حتى عن أية امرأة أخرى غير معروفة لكليهما، ولكن العبد يستطيع أن يقول على لسانه ما قد يحرم عليه وقاره أن يتحدث فيه شخصيًا، كانت رسالة العبد أن زوجة الوكيل لا تلد أطفالاً، وهو الأمر الذي كان يخيب أمل الزوج بشدة، وبلا ريب أن سيده ظن أن معي علاجًا في صندوق دوائي المليء بعجائب علوم الغرب، يصلح لعلاج حالة تلك المرأة المسكينة التي لا تلد.

استرجعت ذاكرتى للتو ذكرى أيامى الأخيرة فــى أوكســفورد؛ فبينما كنت أستعد لرحلة العودة للوطن، جاءنى خادم الكلية العجــوز وكان زوجًا صالحًا، لكنه كان خجولاً للغاية، وبعد أن بذل جهدًا جهيدًا فى استجماع شجاعته عرض علىَّ طلبه قائلاً " إذا كان من الممكن أن تأذن لى يا سَيْدى أن أطلب منك معروفًا.. زوجتى وأنا لــيس لـــدينا أطفال، وعجز الأطباء عن مساعدتنا، ولم يعد لديهم شيء ليقترحــوه علينا، والآن يا سَيْدى تستعد للعودة إلى وطنك.. وقد سمعت أن لديكم هناك تعويذة رائعة تستطيع فعل كل الأشياء.. ورغم أننى لست مــن الأفراد الذين يؤمنون بالسحر.. لكن هذه حالة خاصة جدًّا.. فهل تظن أنه بإمكانك أن تجد لى هذه التعويذة وترسلها إلىَّ؟.. هذا إذا لم يكــن طلبى فيه الكثير، يا سَيْدى؟ "

وإزاء تلهفه، والشجاعة التى بذلها ليحطم أسوار خجله ليفــاتحنى فى هذا الأمر، لم أستطع سوى أن أجيبه بوقار وإن لــم يخــلُ مــن تعاطف بأننى سوف أرى ما أستطيعه فى هذا الأمر، ولكن الحاجة لم تقض فقد توفى الرجل – مذكورًا بالخير من كل رجال باليول قديمهم وحديثهم – قبل أن أعود مرة أخرى إلى أوكسفورد.

أما فى حالة سِيْدى حسين فلم يكن من الممكن تجاهل هذا الأمر؛ فالعبد كان ينتظر الرد، ولا شك أن سَيده كان ينتظره، فكــرت علــى عجل، وأعطيت العبد نصف زجاجة مليئة بأقراص الحبوب المجففــة الممزوجة باللبن مع تعليمات صارمة بأنه على السيدة أن تأخذ ثلاثــة أقراص منها فى اليوم الواحد حتى نفاد الكمية.

وبعد رحيل العبد تأملت ذلك التوازى المذهل بين هاتين الحالتين؛ فهناك فى أوكسفورد بعد أن استنفد الغرب كل ما يقدمــه العلــم فــى

مواجهة هذه الرغبة الكونية فى الإنجاب حـاول أن يتجـه صـوب المصادر الروحية الموجود فى الشرق، بينمـا هنـا فـى "جغبـوب" - الشرق - بعدما وجد الشرق أن سعيه الروحى غير مُجـد اسـتدار صوب علم الغرب باحثًا عن العون؛ إذًا - شـرقًا وغربًـا - كلنـا متشابهون فى إيماننا بقوة المعجزات الكامنة فى المجهول!

ورغم كل هذا فإن الحياة الهادئة والسارة، وحفاوة الضيافة، لـم تسفر عن العثور على إبل، رغم أننى أرسلت رسلاً إلـى المنـاطق المحيطة لطلب هذه الدواب، جاعلاً عرضى المالى لاستئجارها أعلى وأعلى مع مرور الوقت، لكننى لم أستطع الحصـول علـى إجابـة مرضية. ناشدت سِيْدى حسين أن يساعدنى فى هذا الشـأن، إلا أنـه أعلن صراحة أنه لا حيلة لـه، أرسلت رسولاً ليعود إلـى " سـيوة " ببرقية إلى السيد إدريس فى " مصر " أخبره فيها بمـأزقى، وأطلـب مساعدته، وأسرع مما كنت أتوقع جاء الرد مباشرةً إلى سيدى حسين متضمنًا أن يمنحنى كل المساعدة التى فى استطاعته، ورغم هذا بـدا الوكيل عاجزًا عن مساعدتى.

وفى النهاية عندما بدا الأمل يتلاشى، وصلت إلى الواحة قافلـة من قوافل الزوىّ قادمة من "جالو" فى طريقها إلى "سيوة" مـن أجـل الحصول على التمر. وكنت أريد هذه الإبل، ولكن مالكيها بالطبع لـم يكن لديهم أية رغبة فى العودة من طريقهم دون الحصول على التمر الذى حضروا من أجله، ومع ذلك فقد وجدت طريقة لإقنـاعهم؛ فقـد اتصلت بهم عن طريق سِيْدى حسين بما له من نفوذ، كما أن تـواتر الأخبار عن صدور أمر من الحكومة المصرية بتحريم دخول أفـراد

قبيلة زويّ الحدود المصرية حتى يسووا الخلاف بينهم وبين أفراد قبيلة (أولاد على)، الذين يعيشون فى مصر، وعلى عداء معهم، وطالما أنهم لن يستطيعوا الذهاب إلى "سيوة" التى تقع داخل الحدود المصرية، دون الخوف من العقاب؛ لذا كان لزامًا عليهم المكوث فى "جغبوب" دون أى شيء يفعلونه سوى العودة من الطريق الذى جاءوا منه، والذى كان على وجه الدقة هو الطريق الذى أبغى أن يذهبوا إليه، ومن ثم أصبحت التركيبة التى أثرت فيهم هى أمر الحكومة المصرية، ورسالة السيد إدريس والحث الذى قام به سيدى حسين، والوعد بمبلغ باهظ نظير استئجار إبلهم، والذين نجحوا فى انتزاعه منى نظرًا لحاجتى الشديدة لإبلهم، كل هذا عمل فى النهاية على موافقتهم على اصطحابى إلى "جالو".

وأخيرًا، وصلت إلى نهاية الأيام الهادئة من التأمل والتفكير تحت ظلال القبة البيضاء، والأيام القلقة من النضال للبحث عن معنى لإكمال رحلتى. وفى ٢٢ فبراير، أى بعد نحو ثلاثة وأربعين يومًا من دخولى "جغبوب" أدرت وجهى نحو الغرب وخرجت صوب "جالو".

الفصل الثامن

الطريق إلى جالو والعواصف الرملية(٢٥)

«غادرتُ "جغبوب" وفقًا لأفضل التقاليد؛ فقد كان أحد أيام العواصف الرملية، والبدو يقولون إن من حسن الحظ أن تبدأ رحلتك فى عاصفة رملية، ورغم أننى لست واثقًا من أن هذا الأمر يعد من المميزات على أى نحو، فإنه أشبه بقول الإيطاليين "من حسن الحظ أن ترحل والشمس ساطعة"، أو بقول الإسكتلنديين "عندما تمطر"! ورغم أن العواصف الرملية شىء مألوف فى الصحراء، فإنه من واقع الخبرة لا يوجد فيها شىء مألوف على الإطلاق».

فالنهار يبزغ والسماء صافية، ولا توجد أية بارقة لريح أو عاصفة، والصحراء تبتسم عند رحيلنا، والقافلة تتقدم بابتهاج. وقبل أن تمضى فترة طويلة، تهبُّ نسمة منعشة من أحد الاتجاهات غير المعلومة، ثم ترحل هامسة فوق الرمال، وبالكاد تُدرك قوتها، ورغم هذا يظل هناك شىء غير سار فى هبوبها، ثم ينظر المرء لأسفل عند قدميه، فيجد أن سطح الصحراء قد تغير على نحو غريب، كما لو أنه قد وضع تحته أنابيب بخار ذات آلاف الفوهات التى تنبعث منها

---

(٢٥) فى هذا الجزء من الرحلة يعبر المؤلف الحدود المصرية الليبية، ويتوجه إلى واحة "جالو" التى تقع داخل الحدود الليبية. "المترجمان"

نفثات ضئيلة من البخار، تجبر الرمال على القفز فى تدفقات دوامية صغيرة، وبوصة تلو الأخرى يزداد الاضطراب كلما زادت الرياح من قوتها، حتى يبدو سطح الصحراء بأثره كأنه نهض امتثالاً لقوة أسفله ترفعه لأعلى؛ فالحصى الكبير يرتطم بالسيقان والركب والأفخاذ، بينما رذاذ حبات الرمال المتطايرة يتسلق الجسم حتى يرتطم بالوجه ويتجاوز الرأس. تظلم السماء، ويختفى كل شىء عن الرؤيا ماعدا أقرب الإبل إليك، يمتلئ الكون بالألم، والرجم، والوخز، واللدغ، كأنها حشود من العذاب. وخير للمسافر وقتها أن تهب الرياح من خلفه؛ فعذاب الرمال العاتية فى مواجهة وجهه كان مؤلمًا للغاية. ونادرًا ما يستطيع المرء أن يبقى عينيه مفتوحتين رغم أنه لا يجرؤ على غلقهما؛ لأنه أسوأ من وخز ذرات الرمال، هو أن يضل المرء طريقه.

من حسن حظنا أن الرياح كانت تهب فى شكل نوبات عاصفة، متباعدة فى مجموعات تتكون من ثلاث أو أربع، مع بضع ثوانٍ من فترات الهدوء المباركة بعد كل مجموعة.

فى أثناء هجوم العاصفة، يدير المرء وجهه بعيدًا، بعد أن يلف أحد أطراف كوفيته أمامه كستار، وبالكاد يحبس أنفاسه. وعندما يرجع الهدوء فإنه يعيد الكُوفيَّة لموضعها، ويلقى نظرة سريعة حوله ليرى ما إذا كان قد حافظ على اتجاهه، ثم يستعد بسرعة كبيرة للهجوم التالى.

إن الأمر أشبه بوحش ضخم ذى حجم خرافى وقوة غير أرضية، ينفخ هذه العواصف المؤلمة من الرمال على رءوس المسافرين.

وصوتها يشبه الصوت الناجم عن تحريك مارد جبار لأصابعه القاسية فى إيقاع منتظم فوق حرير مشدود بإحكام.

عندما تهب العاصفة، فلا يوجد شيء تفعله سوى أن تقاومها بعناد. بينما تجمع الرمال المندفعة حول أى جسم ثابت، سواء كان عمودًا أو جملاً أو رجلاً، وتتراكم بعضها فوق بعض حتى لا تتبقى سوى كومة ناعمة مستديرة. وإذا كان العذاب هو أن تتقدم فالموت ذاته هو أن تتوقف.

ومن المرجح أن تصبح العاصفة الرملية فى أوج قوتها بعد خمس أو ست ساعات، وفى أثناء تواصلها، لا تستطيع القافلة سوى التقدم، فى يقظة بالغة، حتى لا تخطئ الاتجاه. وعندما تصبح العاصفة فى عنفوانها نادرًا ما يُحتاج لدفع الإبل للتحرك؛ فغريزتها تخبرها أن الموت فى التوقف – فهى غريزيًّا حكيمة – وهو ما يظهره حقيقة أنه بمجرد أن تمطر السماء، فإنها تشعر أنه لم يعد هناك خطر يحدق بها، فتقف على الفور فى موضعها وربما تبرك.

تدفع العاصفة الرمال إلى كل شيء يمتلكه المرء؛ فهى تملأ الملابس والطعام والحقائب والمعدات وكل شيء. كما أنها تفتش عن كل نقطة ضعيفة فى درع المرء، حتى يشعر المرء بها، يتنفسها، يأكلها، يشربها... يكرهها، بل إن الذرات الدقيقة تخترق مسام الجلد، وتنفذ خلالها لتسبب آلامًا مزعجة.

هناك قواعد ثابتة تتعلق بسلوك العواصف الرملية، يعرفها كل بدوى، وهو مستعد تمامًا لأن يشى بها للغريب عن الصحراء؛ فالرياح التى تسبب العاصفة سوف تنشط مع بداية اليوم وتهدأ مع ظهور

الشمس، ولن تكون هناك عواصف رملية فى الليالى المقمرة، كما أنها لا تتواصل مطلقًا من بعد الظهر إلى المساء. وهى قواعد ممتازة، لكن فى أثناء رحلتنا إلى "جالو" تحطمت كلها؛ فقد كانت هناك عواصف والقمر ساطع، وعواصف أخرى عندما كانت الليالى مظلمة، وكانت هناك عواصف تبدأ قبل الفجر، وعواصف لا تتوقف إلا بعد فترة طويلة من غروب الشمس، كانت لدينا عواصف لا تصل فقط الظهر والمساء، بل تمحو أيضًا الخطوط الفاصلة بينهما، كانت لدينا عواصف صغيرة وعواصف كبيرة، بل أسوأ ما رأيته حتى الآن: عواصف قصيرة وعواصف طويلة، عواصف فى النهار وعواصف فى الليل. ولكن حتى تحت هذا الوابل اللامتناهى، لم أفقد أبدًا الافتتان بسحر الصحراء؛ ففى بعض الأمسيات بعد أن نكون قد تصارعنا – لمدة ساعات – بعناد مع أسراب الرمال المتطايرة، تتوقف الرياح تمامًا كما لو كان هناك سيد أشار إليها بإصبعه. بعدئذ ولمدة ساعة أو ما يقرب منها يهبط الغبار الدقيق ببطء مثل سقوط الضباب. وبعدئذ قد يبزغ القمر وتحت سحر فيض ضوئه الشاحب، ترتدى الصحراء شخصية جديدة، هل كانت هناك عاصفة؟ من يستطيع التذكر؟ هل تستطيع هذه الامتدادات المسالمة من الجمال أن تكون قاسية؟ من يستطيع تصديق ذلك؟

لم تكن الرحلة إلى" جالو" رحلة سهلة؛ فالعواصف الرملية كانت دائمة الإزعاج، وخطرة فى بعض الأحيان. وكان الجزء الأخير من الطريق يمتد عبر نطاق من الكثبان الرملية، وكان على القافلة أن تسير وسطها وتنعطف حولها. ولكى يحافظ المرء على تقدمه المباشر

صوب النقطة الصحيحة وفق البوصلة، على الرغم من هــذا التلــوى والتثنى، فإن الأمر كان يتطلب مهارة ويقظة طوال الوقت.

ورغم قسوة الرمال المهاجمة، فقد كانت هناك ساعات من البهجة فى هذه الرحلة لا يستطيع المرء نسيانها؛ فــذكرى الليــالى الجميلــة عندما كنا نجتمع سويًا حول نيران الحطب، من أجل شرب الشاى بعد العشاء، وتدور القصص بيننا، ويبدأ مُجيب العجوزـــ مع ضوء النـــار المتراقصة على شعر لحيته الرمادية الشعثاء – فى رواية أجزاء مـــن تاريخ "الزوىّ"، وقت أن كان جده معتادًا على الذهاب إلى "الـــواداى" لمقاتلة قبائل السود، والعودة بالإبل والعبيد؛ وصالح برواياتـــه عـــن الأرباح الطائلة التى حققها ابن عمه فى رحلته الأخيرة إلى "الواداى"، عندما لم يكن عليه أن يقاتل أحدًا، بل عاد فقط بجلد، وريـــش نعـــام، وعاج، وباعها فى "برقة"، وهى الاسم العربى "لسيريناكا".

ثم أستدير إلى علىّ، وأطلب منه أن ينشد إحدى أغانى الحب؛ فقد كان يعد من الشعراء، فيتطلع علىّ إلى عمه من أجل الإذن لـــه بـــأن يمتثل لرغبتى، فيجد العجوز مشغولاً بمسبحته، ومتظاهرًا بأنه غافـــل عما يحدث، فلا يليق بكرامة البدوى ذى الشعر الرمـــادى أن يجلـــس ويصغى لأغانى الحب من جيل أصغر منه، ولكن احترامه لى منعـــه من أن يغادر الجمع.

وفى النهاية تمتم وهو يعبث بلحيته " غنِّ للبيه، مادام يحب سماع أغانينا البدوية"، ارتفع صوت علىّ العذب فى هواء المســـاء، بينمـــا انسابت حبات مسبحة مجيب العجوز بين أصابعه بتأنٍ منـــتظم يميـــز الرجل الذى لا يبالى بشىء سوى نسكه.

وأنشد علىَّ:

أريد أن أغنى

ويلتف كل الرجال ليسمعونى

إنها "خضرة"

التى تنتزع الأغانى من روحى

وجناتها حمراء مثل الدماء المسفوكة

نحيفة وملفوفة مثل العود

ليست طفلةً وليست عجوزًا

لن تعرفها

لكننى لو قابلتها فى الطريق

فسوف أتباهى بها

كما أتباهى بنصل رمحى

وبينما كان صوته يتلاشى، بدا كأنه خيالى أو أن حبات المسبحة بين أصابع مجيب تتحرك أسرع قليلاً؟! وبعد فترة من التوقف عاد علىّ للغناء مرة ثانية:

أنت نرجسة رشيقة فى بستان الكبرياء

من فمك يتدفق العسل

فوق أسنان من العاج

خصرك النحيل

مثل الأسد وهو يعدو خلف الفريسة.

أتكونين لى؟

أم تفكرين فى غيرى؟

قوامك ملفوف مثل سوطٍ

النوم على صدرك

هو الجنة ذاتها،

الحب لا يمكن إخفاؤه

ولكن القدر فى يد الله

كان هناك صمت فى المخيم باستثناء طقطقة النيران التى بدأت تخبو واصطكاك حبات المسبحة، ولكن إيقاع الحبات تغير مغزاه الآن؛ فمع اقتراب نهاية أغنية علىّ توقفت أصابع مجيب تمامًا لبرهة ثم أسرعت بعد ذلك بعصبية كما لو أنها تنكر توقفها. كان العجوز عاشقًا كبيرًا فى زمنه، وأغنية الصبى أهاجت دماءه بالذكريات، وربما كان من حسن حظ الآخرين الذين يلتفون حول هذه النار أنه لم يكن معهم مسبحة تصطك حباتها وتفضحهم.

بعد بئر"بوسلامة" التى تبعد مسيرة يوم من "جغبوب"، سرنا عبر إقليم كانت توجد به بقايا غابة متحجرة، وفى الطريق مررنا بكتلة حجرية ضخمة منتصبة مثل إشارات التوجيه على طول الطريق، والتى كانت قبل عصور أشجارًا يانعة، أما الآن فقد حولتها قوى الطبيعة من مملكة النبات إلى مملكة المعادن، وكانت تتناثر حولها بعض القطع الأصغر من الخشب المتحجر، ولكن معظمها كان يختفى تحت الرمال، بينما ظلت قطع الأشجار الأكبر مرئية بسبب تقاليد الصحراء التى تفرض على أى فرد يمر بمثل هذه العلامة الملقاة أن يعيدها منتصبة مرة أخرى، كما أنه من التقاليد الجيدة

لحديثى السفر بالقافلة أن يشيدوا بعض الأكوام الصغيرة من الأحجار فى الفواصل كإشارة إلى من سيمرون بعد ذلك بأن الطريق يمتد من هنا. وفى بعض الأحيان قد يمر المرء بشجرة أو شجيرة عُلِّقت عليها قصاصات أو قطع من القماش، والمرء هنا ملزم بأن يضيف إليها خيطًا أو بقايا من ملابسه. فهذا التراكم يؤخذ كرموز مؤكدة على أن الشجرة علم لمن سوف يأتون بعد ذلك، كما أنها تمنح التشجيع لمن يمرون بها من خلال فكرة أن آخرين قد مروا من هذا الطريق من قبل. ففى هذا القفر المميت ومع رتابة الصحراء يعد أى دليل على مرور أحد فى هذه المنطقة حادثة سعيدة. فعلامة روث الإبل، أو بقايا عظامها المصقولة،(٢٦) أو حتى الهياكل العظمية للمسافرين قليلى الحظ، كلها أمور تُسَرُّ العين لرؤيتها؛ لأنها على الأقل تبين أن قافلة ما قد مرت من هذا الطريق.

بعد أن غادرنا "جغبوب" بفترة وجيزة مررنا "بعلم" من نوع آخر، وهو يتكون من صف من الروابى الرملية الصغيرة التى تشبه روابى النمل المتقاطعة على اتجاه الطريق. وتسمى "علم بوزافار"، وهى رمز وإشارة لأحد تقاليد البدو السارة. ففى أى رحلة على القادم الجديد لأى طريق أن يذبح خروفًا لأفراد القافلة الذين مروا قبل ذلك من هذا الطريق، وتسمى هذه العادة "بوزافار". وإذا لم يتنبه المبتدئون

---

(٢٦) تعد هذه الظاهرة أيضًا من صور فعل الرياح فى الصحراء؛ إذ تقوم بنحت الأجسام الموجودة فى الصحراء وتغير أشكالها، ويساعدها فى ذلك ما تحمله من رمال، ويمكن ملاحظة ذلك التأثير بوضوح فى أعمدة التليفونات الخشبية التى توجد فى الصحراء، التى يتآكل سطحها خاصة الأجزاء السفلى منها القريبة من سطح الأرض." المترجمان "

من غير إبطاء لمسئوليتهم فإن المحنكون يُلمّحون لهم، حيث يتقدم فرد أو اثنان منهم القافلة، ويُشيِّد صفاً من أكـوام الرمـال يتقـاطع مـع الطريق. وعندما تصل القافلة إلى هذه العلم المحدد يصيحون بشـكل إيحائى "بوزافار، بوزافار"، ليؤكدوا التلميح، فيُذبح الخـروف، وتُقـام مراسم الوليمة.

وفى قافلتنا كان هناك العديد ممن لم يطأوا هذا الطريق من قبـل – ومن ضمنهم أنا بالطبع – لذا اشتريت خروفـا قبـل أن نغـادر "جغبوب" حتى نستطيع نحن حديثو العهد بهـذا الطريـق أن نـؤدى مراسم "بوزافار" إلى أولئك المتمرسين على هذا الطريق؛ لذا فلم يكن علم بوزافار الذى مررنا به من صنعنا بل خلّفتـه إحـدى القوافـل الأخرى.

كنا سعداء الحظ أن نجد عشبًا لرعى إبلنا كل يوم تقريبًـا حتـى وصلنا إلى "جالو"، والحقيقة أنه فى بعض الأحيان كان علينا أن نحيد عن طريقنا لنصل إلى الرقع الخضراء التى توجد بين الكثبان الرملية، لكننا كنا نعثر عليها دائمًا.

وهناك ثلاثة أنواع من النباتات تنمو على حدة، وفى بقع نـادرة فى هذا الجزء من الصحراء: "**البلبال**" وهى عبارة عن شجيرة رمادية مائلة الخضرة، لا تعد أوراقها طعامًا جيدًا للإبل، وهى تنمـو فقـط بالقرب من آبار المياه، ولا تلمسها الإبل فى العادة إلا إذا كانت جائعة للغاية، وعندها فإن الحذر المستمر أمر ضرورى حتى يحمى المـرء نفسه من إزعاج أن يصبح لديه جمل مريض بدلاً من جمل جائع.

أما "**الدمران**"، فهى شجيرة تشبه النوع الأول، وإن كانت أوراقها ذات لون أدكن وسيقانها بنية اللون، وهى تصبح وقودًا جيدًا عندما تجف، وتعد طعامًا ممتازًا للإبل حيث تأكلها بنهم شديد.

بينما النوع الثالث من النباتات هو "**النيشا**"، حيث ينمو على شكل باقات من الأوراق الرفيعة التى ترتفع لمنسوب القدم، وهو أيضًا صالح للرعى الجيد، رغم أن وجوده يقتصر على أشهر الشتاء، وعلى كل حال فعندما يسقط المطر الضئيل فى هذه الصحراء، تصبح كل هذه النباتات متاحة؛ لذا لا يفكر أى بدوى فى القيام برحلة بين "جالو" و"جغبوب" فى الصيف، دون أن يصطحب معه مؤنًا من العلف من أجل إبله.

فى اليوم العاشر من مغادرتنا "جغبوب"، وصلنا إلى بئر "هزيلا"، أول مصدر للماء بعد "بوسلامة"، الذى كان يميزه وجود بعض الأشجار والشجيرات الصغيرة الخضراء، وبعد أن جرفنا بأيدينا الرمال المتراكمة فوقه بفعل الرياح، بدا الماء جيدًا، ولكن مذاقه بعد ذلك لم يكن مستساغًا.

وبعد يومين من ذلك، وجدنا أنفسنا عند أطراف واحة "جالو"، وقبل أن نستطيع الدخول، أسرع رسول للقائنا، ومعه خطاب من سيدى محمد الزروالى – من الإخوان، الذى كلفه السيد إدريس بمرافقتنا إلى "الكفرة" – يطلب منا أن نخيم فى الخارج حتى يستطيعوا الاستعداد لاستقبالنا على نحو لائق، وكان السيد إدريس قبل أن يغادر "جالو" منذ شهرين، قد أخبرهم بأننى على الطريق، ووجه بأننى يجب أن ألقى كل حفاوة ممكنة، وكانوا قد توقعوا وصولنا قبل ذلك بكثير، وعندما لم أحضر ظنوا أننى قد عدلت عن خططى.

تقهقرنا مسافة قليلة من البلدة وخيمنا هناك، وبعد بضع ساعات من ذلك جاءت مجموعة رائعة تتألف من عشرين أو أكثر من البدو اصطفوا فى صف طويل أمام قرية " ليبا" وهى إحدى قريتين تتألف منهما " جالو". وكنا نرتدى أنظف ملابسنا وأكثرها رسمية، وزودت رجالى بالذخيرة من أجل تحية المجاملة. تقدمنا للأمام، واقتربت من سيدى سنوسى قادر بوح القائم مقام أو حاكم المنطقة، وصافحته هو وأعضاء مجلس "جالو" والمواطنين البارزين فى الواحة، وألقى القائم مقام خطبة رحب فيها بنا، ورددت عليها، ثم أطلق رجالى بنادقهم كتحية، ومررنا بالبلدة.

ذهبت إلى الدار التى وضعت تحت تصرفى، وتلقيت زيارة رسمية من مجلس " جالو"، ومن سيدى الفضل عم السيد إدريس.

وبعد العشاء مع سنوسى قادر بوح، أمضيت المساء فى مناقشة خطط الرحلة مع سيدى زروالى.

الفصل التاسع

فى واحة جالو

«"جالو" واحدة من أهم واحات "برقة"، وهى تقع على بعد ٢٤٠ كيلومترًا من ساحل البحر الأبيض المتوسط، ونحو ٦٠٠ كيلومتر عن "الكفرة" التى تقع إلى الجنوب منها مباشرة. ولا تعد الواحة أكبر منتج للتمر فى الإقليم كله فحسب، بل إنها أيضًا تمثل معبرًا تجاريًّا لمنتجات "الواداى" و"دارفور" التى ترد عبر "الكفرة"؛ فكل شىء يرد من العالم الخارجى إلى "الكفرة" لابد من أن يمر عبر "جالو"».

وكما قال البشارى الزعيم البارز فى قبيلة المجابرة (إن الصحراء بحر و"جالو" هى ميناؤه).

وقد كانت فى أوج أهميتها منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا مضت، عندما اتخذ المهدى من "الكفرة" عاصمة للسنوسية؛ ففى هذه الأيام كانت القوافل التى تتكون من مائتين أو ثلاثمائة جمل وناقة تروح وتغدو بين "جالو" والجنوب كل أسبوع، ولكن عندما كنت هناك كانت الحركة قد تقلصت لما هو أقل من عُشر ذلك الرقم، وإن كانت تنتعش بعض الشىء فى الصيف نتيجة للطلب على محصول التمر.

وهناك قريتان فى "جالو" يفصل بينهما ميل واحد هما "العرق" و"اللبة"، وبين هاتين القريتين وحولهما تتناثر أشجار النخيل التى يقترب عددها من مائة ألف نخلة.

وعلى بعد اثنى عشر ميلاً إلى الغرب تقع " أوجلة"، وهى واحة قديمة ذكرها هيرودوت بأنها تشتهر بتمرها، ويوجد فى "أوجلة" ضريح عبد الله الصحابى، الذى يُقال إنه كان كاتب الرسول ﷺ، وهذا الأمر من الصعب البت فيه؛ لأنه على الأقل لم يكن لرسول الله ﷺ كاتبًا يُدعى عبد الله الصحابى، وبالطبع لم يأتِ عبد الله إلى شمال أفريقيا، وضريح الرجل الذى يحمل هذا الاسم، والذى يوجد فى "أوجلة"؛ تستند قصته إلى أدلة واهية. فالقصة تحكى أن السنوسى الكبير وجد جسد الصحابى مدفونًا فى بقعة نائية، وفى التو ظهرت له روح صاحب الجسد فى رؤية، وحدثته قائله " نقِّب عن جسدى، وضعه فوق جمل، وسر، وحيثما يتوقف الجمل سوف تُشيِّد ضريحى". أطاع السنوسى الكبير الأمر، وسار حتى وصل إلى "أوجلة"، وهناك توقف الجمل تمامًا وأبَى أن يتحرك، وفى هذا الموضع شُيِّد الضريح.

ويُؤمن مؤسس الطريقة السنوسية، وكل أفراد أسرة السنوسى، وحتى أتباعه من الإخوان البارزين، بامتلاكهم قدرة خفية، وبصيرة نافذة، وينسب للسيد المهدى على وجه الخصوص أنه يملك قوة خفية قوية يسميها البدو" كرامات"، وقد روى لى أحد الإخوان فى "جغبوب" عن السيد المهدى القصة التالية: إن أحد البدو الأميين جاء إليه عازمًا الدراسة على يديه فى "جغبوب"، وفجأة تنبه الرجل إلى أنه موسم حرث الأرض وبذر البذور، وأنه ليس لديه أحد يرعى أرضه ويزرعها؛ لذا رأى أنه من الأفضل أن يرحل إلى ما بعد موسم الحصاد، ثم بعد ذلك يعود لدراسته، وذهب إلى السيد المهدى ليودعه، وعندما دخل الحجرة – كما تقضى التقاليد – جلس منتظرًا الإذن له

بالحديث. ولبضع دقائق بدا السيد المهدى كما لو كان يتجاهله، وفجأة شعر الرجل بالنعاس وغفا لدقيقة أو دقيقتين، ثم أيقظه صوت السيد المهدى الحنون وهو يقول له " الآن استرحت، وعلمت أن هذا الأمر رُتِّب من من أجلك". وفى هذا الوقت القصير، رأى الرجل فى الحلم أن أخاه يحرث أرضه، ويبذر الشعير فيها، وأضاف المهدى قائلاً " الآن سوف تكون ضيفنا، استذكر، وأدعو أن يرشدك الله إلى الطريق القويم، كل شىء سوف يعد كما رأيته، وليس لديك سبب لتقلق، فالله – سبحانه وتعالى – رحيم، وهو يرعانا جميعًا". ظل الرجل فى "جغبوب"، وبعد فترة رجع إلى دياره فى موعد الحصاد، وعند عودته إلى "جغبوب" أخبر أحد الإخوان أن محصوله لم يزرع على النحو الذى رآه فى الحلم فحسب، بل إن مشهد المكان ووقت الحلم أكدتهما الوقائع.

حادثة أخرى رواها لى قائم مقام "جالو"؛ فقد كان مسافرًا مع جماعة من "بنغازى" لزيارة السيد المهدى فى "جغبوب"، وضلوا طريقهم للبئر، وأصبحوا فى موقف عسير للغاية، وفى المساء التفت إليه أحد الرجال – وكان أقل المتحمسين للرحلة – قائلاً " الآن أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل الرائع السيد المهدى، هلاَّ طلبت منه أن يرسل لنا بعض الماء، إذا كان وليًّا كما تدَّعى؟!"، وفى الليلة ذاتها رأى السيد المهدى القصة – وهو فى "جغبوب" – كما حدثت تمامًا، فأمر اثنين من عبيده أن يأخذا خمس إبل محملة بالماء والطعام، ويرحلا إلى الخلاء وأشار إلى الاتجاه الذى يجب عليهما أن يسلكاه، وأضاف أنه يجب عليهما ألا يتوقفا خلال الطريق حتى يقابلا قافلة، فأطاعا الأمر وسارا حتى عثرا على القافلة فى حالة سيئة وأنقذاها.

وهناك بعض الإخوان كبار السن الذين لا يزالون على قيد الحياة - بل إن بعضهم من عائلة السنوسى ذاتها - يتجنبون غضبه؛ لأنهم يخشون قوته الخفية. وأحد هؤلاء ممن يعيشون فى "الكفرة" روى لى القصة التالية:

ففى أحد الأيام أحضر بدوى بعض الأغنام لتشرب من بئر قريبة، وشرد بعضها إلى قطعة أرض ملحقة بالزاوية وأكلوا الشعير المزروع بها، فحذر أحد الإخوان البدوى لكى يمنع أغنامه من فعل هذا الأمر، وتظاهر الرجل بالاهتمام، لكنه كان عازمًا بالفعل ألا يقتصر الأمر على هذه الأغنام فقط بل أن يُحضر القطيع كله ليرعى على المحصول، وعندما خرج رجل السنوسية مرة ثانية ورأى القطيع بأكمله يرعى على شعيره، صاح قائلاً " ربنا يلعن الأغنام التى تأكل محصول الزوايا"،(٢٧) وتذهب القصة إلى أنه لم تخرج شاه واحدة على قيد الحياة من حديقة الزاوية.

لهذا يخشى البدو عائلة السنوسى ليس فقط بسبب سلطتهم الدنيوية، بل أيضًا للسطوة الروحية التى تُنسب إليهم؛ فالبدوى الذى يُلعن من أحد أفراد عائلة السنوسى يحيا طوال الوقت خائفًا من أن شيئًا فظيعًا سوف يحدث له، بل إن أصدقاءه وأقاربه يحاولون تجنبه مخافة أن تتسبب اللعنة التى أصابته فى أذى لهم.

وهناك حالة شهيرة لأحد الشيوخ الأجلاء من رجال السيد المهدى يرقد الآن فى "الكفرة" نصف مشلول، وقد ذهبتُ لرؤيته عندما وصلتُ

(٢٧) تحرم السنوسية على البدو رعى حيواناتهم داخل الحرم المحيط بالزوايا. "المترجمان"

إلى الواحة، وكان سعيدًا للغاية بزيارتى على الرغم من أنه لم يكن يقوى على تحريك جسده. وفى زيارتى الثانية أصبح أكثر حميمية – وبين الشك واليقين – سأل عما إذا كان معى أى دواء لعلته، ترددت؛ إذ كنت أخشى أن يفقد الرجل الأمل تمامًا، وقد رأى ذلك فى عينى، ودون حتى أن يمنحنى فرصة أن أجيب عليه قال: " لا، هذا مكتوب، لقد كان خطئى منذ البداية، فقد أرادنى السيد المهدى أن أرحل إلى الشمال، ولم أقوَ على عدم طاعته، لكننى حاولت تجنب الرحلة وذهبت لما يقرب من "الحوارى"، وهناك كتبت له مدعيًا المرض، وجاء الرد مع رسول بأننى إذا كنت مريضًا، فبكل تأكيد يجب علىَّ أن أتخلف عن الرحلة، وفى اليوم التالى أصبتُ بالشلل، وأعادونى إلى "الكفرة" محمولاً، وأنا هنا منذ ذلك الوقت، وكان ذلك منذ خمسة وعشرين عامًا.

كما أخبرنى قائم مقام "جالو" بقصة أخرى عندما كنا نناقش أمر المعجزات؛ فقال إنه فى إحدى المرات كانت هناك عاصفة رملية عاتية، طمرت تقريبًا المقام الموجود فى " أوجلة"؛ لذا أحضروا العبيد ليقوموا باستخراجه مرة ثانية، وفى أثناء الحفر دخل القائم مقام إلى الحجرة التى يوجد بها الضريح، ولاحظ انبعاث رائحة بخور قوية، فنادى أحد العبيد وسأله عما إذا كان قد أشعل بخورًا فأنكر الرجل، وحتى الآن – فى بعض المناسبات – يستطيع زائر المقام شم رائحة هذا البخور على الرغم من أن أحدًا لم يشعله.

* * *

وتعد "جالو" مركز قبيلة المجابرة البدوية، وهم أمراء التجارة فى الصحراء الليبية. كما يوجد بعض الزوىّ هناك، ولكــن "المجــابرة" يمثلون النسبة العظمى من نحو ألفين من سكان القريتين الموجــودتين بها. ويمتلك المجابرة غريزة تجارية رائعة، ويفتخرون بأن أباهم قــد توفى فوق سرج جمله، كما يتفاخر ابن الجندى بأن أباه قد توفى فـــى ســاحة المعركة، وعندما كنت فى "جالو"، قامت السلطات الإيطاليــة – والتى لم تكن وقتها على علاقة طيبة بالســيد إدريــس – بحظــر إرسال البضائع من "بنغازى" والموانئ الأخرى فى برقة إلى الداخل؛ لذا قفزت أسعار السلع فى المناطق الداخلية مثــل "جــدابيا" لدرجــة كبيرة، وفى هذه الأثناء وصل إلى "جالو" تجار المجابرة بقافلــة بهــا بضائع من مصر، وسمعوا عن هذا الموقف غير المألوف فى الشمال، ودون لحظة تردد واحدة غيروا من خططهم، واتجهوا صوب الشمال بدلاً من الجنوب وباعوا بضائعهم فى " جدابيا " بأثمانٍ مرتفعــة، ثــم عادوا بسرعة – إذا كانت سرعة الإبل لاتقل عن ثلاثة أميــال فـــى الساعة فهكذا يمكن وصف سرعتهم – إلى مصر أو الجنــوب ســعيًا وراء حمولة قافلة أخرى. ووصلوا مرة أخرى إلى "جالو" ببضــائعهم واستعلموا بدقة حول الظــروف المقارنــة للأســواق فـــى "جــدابيا" و"الكفرة"، ووجهوا رحلتهم المقبلة وفق ذلك، مقدرين بُعد الأماكن فى الصحراء – تبعد "جالو" عن "جدابيا" مسيرة خمسة أيام، بينمـــا من "الكفرة" إلى "جالو" ما بين اثنى عشر يومًا وثمانيــة عشــر يومًــا – وفى شكل الحلزون سارت القافلة.

وتنتقل الأخبار عبر الصحراء بسرعة مدهشة، أو علـــى الأقــل تبدو كذلك، وأحسب أن التفسير الحقيقى لهذا الأمر هو أن كل الأشياء

على صلة ببعضها البعض، وحيث ينتقل كل شيء فوق ظهور الإبل، وهكذا تنتقل الأخبار.

وبينما يعد المجابرة أعظم تجار الصحراء الليبية، فإن الزويّ يطالبون أيضًا بحق التميز، والتنافس بين القبيلتين كامن دائمًا تحت السطح، ويظهر للعلن بين الفينة والأخرى.

وتحسد كل قبائل "برقة" الزويّ؛ لأن الرجل الثانى بعد السيد إدريس فى الأهمية بين قبائل السنوسية هو على باشا العبدية من الزويّ، ويعد على العبدية جنديًّا رائعًا، ومؤازرًا قويًّا للسيد إدريس، ويحظى الرجل بالكثير من ثقة قادة السنوسية.

وفى إحدى الليالى بعد العشاء فى "جالو" برزت بعض أشكال التعبير عن هذه المنافسة، والتى ألمح إليها سيدى صالح - الذى لا ينتمى إلى أى قبيلة فى "برقة"؛ فقد كان من الأشراف الذين يعود نسبهم إلى الرسول ﷺ - ففى مناقشة له مع مُجيب وزروالى وهما من الزويّ، انطلق مُجيب فى الحديث عن تاريخ الزويّ ومآثرهم، وأصغى سيدى صالح إلى مديح أحد الزويّ لقبيلته وهز رأسه، وأشار بقوله "إن تاريخهم قد يكون مجيدًا كما أخبرك سيدى مُجيب، إلا أنهم لا يخشون الله سبحانه وتعالى".

وعند هذا انفجر مُجيب صائحًا: " والله يا سيدى صالح إنهم قد لا يخشون الله، ولكن هل يخشون إنسانًا؟ فويل لمن يجرؤ على التحرش بقوافلهم أو يهاجم خيامهم"، ثم التفت سريعًا نحوى واستمر قائلاً إن بركة المهدى تحيطنا؛ لأنه جاء إلى مركزنا فى "الكفرة" ومنها اختفى.

والسنوسية لا يقولون مطلقًا إن المهدى قد مات، بل يرددون دائمًا أنه غاب وسوف يعود، أو يستخدمون تعبيرات أخرى مشابهة.

وفى الواقع هناك رواية تتداول بينهم أنه لم يمت، لكنه يتجـول فـوق الأرض إلى الوقت الذى يعود فيه من جديد إلى شـعبه مـن أبنـاء الصحراء.[(٢٨)]

وبالنسبة للزوىّ فإن المهدى هو أكثر قادة السنوسية قربًـا إلـى قلوبهم؛ لأنه هو الذى نقل مركز نشاط الإخوة إلى "الكفـرة" مركـز قيادتهم،[(٢٩)] وقبة المسجد الذى شيَّده بها هى مفخرة "الكفرة".

ومن واقع خبرتى فإن الزوىّ سرعان، يبدون عداءهم للغربـاء، ويجعلونه واضحًا؛ فعلى الرغم من أننى مسلم، وابـن لأحـد رجـال الدين، وموضع ثقة السيد إدريس، فإنهم لم يرحبـوا بوجـودى فـى "الكفرة"، بل إن بعضهم عبَّر عن أمله ألا يرانى مرة أخرى بعـد أن أغادر "الكفرة".

وعلى الرغم من عدائهم المضمر لى، فأنا لم أكن أتوقع أن أجـد رجالاً للسفر فى الصحراء أفضل من الزوىّ، الذين شكلوا جزءًا مـن قافلتى؛ فزروالى على وجه الخصوص، الـذى يعـد نموذجًـا لبـدو الزوىّ، كان بالفعل أصدق صحبة وأفضل من يُعول على مرافقته.

فقد منحه بدو "برقة" الدماء العربية التى مرت بشمال أفريقيا فى

---

(٢٨) هذه عقيدة شيعية تُسمى "المهدية"، وهى تعنى أن الإمام يغيب فترة من الـزمن ثـم يرجع بعد غيبته وتستره عن الناس، فيأتى ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جـورًا، وهو عندهم المهدى المنتظر. وقد استشهد الإمام محمد المهدى السنوسى يوم الأحد ٢٤ صفر عـام ١٣٢٠ هـ، الموافق ٢ يونية ١٩٠٢ م، بينما كان يحاول تحريـر (علالى) من الاحتلال الفرنسى. "المترجمان"

(٢٩) كان من أحد أسباب نقل الإمام محمد المهدى مركز قيادته إلى "الكفرة" التى تقع إلى الجنوب الحملة الإعلامية والتهديد الفرنسى للحركة السنوسية."المترجمان"

طريقها إلى " إسبانيا"، ورغم اختلاطه بالقبائل المحلية الأخرى فى شمال أفريقيا، فإنه كان لا يزال يحافظ على التقاليد العربية القديمة.

* * *

وفى حالة حدوث حادثة قتل بين البدو، فإن لهم قانونًا خاصًّا فيما بينهم، وكقاعدة عامة يتدخل إخوان السنوسية كوسطاء سلام فيما بينهم؛ فيصطحبون القاتل وأحد أفراد قبيلته الكبار ويذهبون إلى مخيم القتيل وينصبون خيمة بالقرب منه، ثم يُفاتح أحد الإخوان أسرة القتيل قائلاً "إن من قتل رجلكم هنا" ويمسكه بيده، مضيفًا "هذا هو من قتل ابنكم، سوف أسلمه لكم لتفعلوا به ما تشاءون"، وعادة ما تكون الإجابة "ربنا يسامحه، وعدله ورحمته تنزل عليه"، وبناء على هذا يبدأ الإخوان فى الترتيب للحصول على الدية، التى تكون غالبًا ثلاثة آلاف دولار بالإضافة إلى عبد، أو قيمته السوقية وهى معلومة فيما بينهم. والقبيلة المصابة قد تختار بين قبول المال أو الحصول على ما يعادله من إبل أو غنم أو أية سلعة أخرى. كما قد يدفع المال على أقساط تتراوح بين سنة وثلاث سنوات، ويُنص على ذلك فى الاتفاق. وفى حالات نادرة جدًّا من أبرزها حالة العداء المتأصل فإن أسرة المتوفى ترفض قبول الدية، وهو ما يعنى أنها تعتزم قتل القاتل أو أحد أقربائه أو أحد زعماء قبيلته.

ويختلط فتيان البدو وفتياتها بحرية، ولكن فى الأسرة ذات المكانة الرفيعة تظل النساء فى الخباء. ومن الشائع أن يعرف الفتى محبوبته ويتوجه إلى خيامها، وينشد لها – فى الغالب الأعم – أبياتًا من نظمه، فإذا راق لها، فإنها تخرج وترد على شعره، وليس بالضرورة أن

تكون الكلمات من نظمها، وعندئذ يذهب الفتى ليطلب الفتاة من أهلها، وإذا تم الاتفاق يدفع المهر. ووفقًا للمراسم المتبعة يتوجه الفتى مع أصدقائه إلى دار الفتاة ليصطحبها إلى خيامه وسط عرض للفروسية والكثير من إطلاق البنادق.

وهناك العديد من القصص المعروفة عن فرار فتيات من ديارهن بهدف الزواج من غير موافقة آبائهم، وينتهى الأمر عادة بضغائن بين القبائل؛ لأن البدو ينظرون إلى هذا الرجل كما لو أنه سرق الفتاة منهم.

ويتم الزواج وفقًا للشريعة الإسلامية، وهناك عقد للزواج، يبرمه فى كثير من الحالات الإخوان. ويتم الزواج فى سن مبكرة جدًا، حسب سن البلوغ، الذى يتراوح بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة للفتاة، وبين السابعة عشرة والعشرين للفتى، كما يستطيع البدو الأغنياء أن يتزوجوا أكثر من زوجة واحدة، ولكن فى هذه الحالة تظل الزوجة الأولى هى سيدة الدار، ولها الأفضلية - حتى على الزوجة المفضلة للرجل - فى كل ما يتعلق بإدارة المنزل.

وقد سمعتُ كثيرًا عن حالات فتيان فقدوا عقولهم بعد أن سقطوا فى حب فتيات لم يستطيعوا الزواج منهن؛ ففى إحدى المرات جاءنى أحد فتيان البدو يطلب دواءً، كان يبدو ضعيفًا ونحيفًا للغاية، ذا ملامح دقيقة، تحدث قليلاً، ثم قال " لقد حضرت لأسألك عن دواء يمنحنى الصحة"، ولما سألته عن علته، هز رأسه وأجاب "ربنا العالم"، كان هناك شيء غريب فى هذا الفتى، شيء محير، ولكن كما هو معتاد فى مثل هذه الحالات، لم أكن أجد أمامى سوى بضعة أقراص من

الحبوب الممزوجة باللبن، تلف بعناية داخل إحـــدى الأوراق، وتعطى لـــه، مع تعليمات صارمة ألا يأخذ منها أكثر من ثلاثة كل يوم، وبعد أن رحل الفتى، حضر رجل عجوز لخيمتى، وجلس القرفصاء علـــى الأرض ثم بدأ فى الحديث "ربنا يعطيك الصحة، ويجعل الشفا دائمًـــا على يديك، حضر ابنى إليك الآن، وأعطيته دواء، وحضرت لأخبرك بعلته، فهو ضعيف ومبتلى بالصداع دائمًا، وعندما يحل الليـــل ينـــأى بنفسه عن كل فرد وينشد العزلة، وغالبًا ما يخرج ليمضى الليل فـــى الخلاء".

أخبرتُ العجوز أن الدواء الذى أعطيته للفتى هو الوحيـــد معـــى الذى قد يمنحه بعض الراحة"، فأجاب الرجل فى صوت حزين " ربنا هو الشافى، نحن نعلم دواءه، لكنه مكتوب ألا يناله؛ فالفتى متيم بفتـــاة رفض أبوها أن يزوجها إياه". فسألته "إذا كنت تعلم أن هذا هو ســـبب علة ابنك، فلماذا لا تعمل على تزويجه الفتاة؟" فأجـــاب الأب " فـــات الأوان، فقد تزوجت الفتاة بالفعل، وربنا العالم... فربما تكـــون علـــى مسافة سفر أيام من هنا، لكنها تعانى من الداء ذاته"، وعندئذ نهـــض الرجل ورحل عن خيمتى مستسلمًا، فى صورة تدعو إلى الشفقة.

* * *

فى "جالو" – كما فى "جغبوب" – لم تكن هناك إبـــل تنتظرنـــى عندما وصلت، ولكن لم يكن ذلك للسبب نفسه، أو لأمر يدعو للقلـــق. فاستئجار الإبل اللازمة قد تم ترتيبه بالفعـــل، وكـــان مالكهـــا عمـــر بوحليجا مستعدًا ليبدأ بمجرد أن تعود الحيوانات من الرعى.

لا يوجد بدوى يقبل أن يخرج فى رحلة طويلة قبل أن تسمن إبله وتنال كفايتها من الطعام خاصة من العلف الأخضر. فالمسار الطويل الخالى من نطاقات الرعى على الطريق – مثل الطريق إلى "الكفرة" – يعنى إطعام الإبل على التمر الجاف على وجه الخصوص. والتمر – كما يقول الجمَّالون – "حامى على الكبد"؛ لذلك فهم يعدون حيواناتهم لهذه المحنة بوجبة من الطعام الأخضر قبل أن يبدأوا الرحلة.

وقد أُخذت إبل بوحليجا إلى منطقة رعى مجاورة من أجل هذا النمط من الإعداد، وفى اليوم المحدد لعودتها لم تظهر، وفى اليوم التالى سألت عنها فلم أجد ردًا ، وفى اليوم الذى يليه أصبحت مشغولاً، ثم فى اليوم الذى بعده أصبحت قلقًا خشية أن تكون الحيوانات قد فرت وهى تُجلب من الرعى، إلا أنها لم تفعل ذلك؛ فقد ظهرت فى اليوم الرابع، وعندما جاءت كانت فى حالة ممتازة أنستنى قلقى السابق.

استأجرت خمسة وثلاثين جملاً وناقة، دفعت فيها ثمنًا باهظًا؛ فقد كنت أستطيع شراءها جميعًا بمبلغ يتراوح بين اثنى عشر وثمانية عشر جنيهًا مصريًّا، بينما طلب بوحليجا ثلاثة عشر جنيهًا ونصف الجنيه فى مقابل استئجارها لرحلة تتراوح من شهرين إلى ثلاثة أشهر إلى "أبيش" فى "الواداى". ولكن الأمر هكذا كان أفضل لى، فإذا امتلكت الإبل فإن مسئولية رعايتها سوف تصبح كلها من نصيبى ومن نصيب رجالى الذين لا يوجد دافع لديهم للعناية بها أكثر من الدافع العام المتمثل فى الولاء لمالك القافلة، أو وظيفة العناية بالإبل

فى أفضل حال، بينما عندما ذهب رجال بوحليجا مع إبله، كانوا حريصين على أن تلقى أفضل رعاية. فطوال الرحلة إلى "الكفرة" ظلت عينه الخبيرة على كل واحدة منها، فإذا ما وهن جمل أو بدا مريضًا، كان ينقل حمولته ليواجه هذا الطارئ، وفعل كل ما فى وسعه ليجعلها فى أفضل حال حتى نهاية الرحلة، وكانت عنايته بها تساوى عندى كل هذه التكلفة.

وبالإضافة إلى الإبل كنت أحتاج إلى مزيدٍ من الرجال، وكان لايزال معى الأربعة الذين استأجرتهم من " القاهرة"، و"السلوم"، و"سيوة" وهم: عبدالله، وأحمد، وحماد، وإسماعيل، وأضفت إليهم خمسة آخرين هم: زروالى، وسنوسى بو حسان الدليل، وسعد الذى جاء من عجيلا، وحميد، وفراج (أحد العبيد)، وكان مع بوحليجا ابنه، واثنان من الجمَّالين. وقد استكملت القائمة فى النهاية بخمسة أفراد من التبو[٣٠] الرُّحل، وهم سود من تيبيستى، وهو إقليم يقع إلى الشمال الغربى من "الواداى". وكان عبد الله وزروالى بمثابة قائدى القافلة؛

---

(٣٠) التبو (Toubous - Tibous - Tebus): بدو رحل يعيشون على رعي الأغنام والإبل ويتبعون الكلأ والماء أينما وجدا، وكانوا يمارسون التجارة أيضًا عبر الصحراء؛ حيث يجلبون البضائع من "فزان" لبيعها في جنوب "تشاد" والعكس. وتاريخ التبو يكتنفه الكثير من الغموض؛ لذلك عانى المؤرخون كثيرًا من قلة المعلومات عن هذه القبائل. ومعظم الذين كتبوا عن التبو هم من الرحالة الغربيين الذين جابوا الصحراء الليبية منذ القدم وقلة قليلة من العرب. أما بالنسبة للتبو فإنهم لم يكتبوا شيئًا، ولم يتركوا آثارًا واضحة يمكن الاستدلال بها على تاريخهم. وينقسم التبو إلى قسمين:
التيدا: ويتركز معظمهم فى جنوب "ليبيا" وبالتحديد في "القطرون" و"تجرهى" و"مرزق" و"أوبارى" و"الكفرة" و"ربيانة"، وكذلك شمال تشاد ولهم لغة خاصة بهم تسمى "التيداغا"، وهى خليط من العربية والأمهرية والهوسة.
الدازا: وهؤلاء يسكنون في شمال تشاد، وبالتحديد في"بوركو" و"إنيدى" ووسط وغرب "تشاد"، ومنطقة "بحرغزال". "المترجمان"

فالأول كان مسئول عن الأمتعة والمؤن، بينما كان الثانى مسئولاً عن الإبل والرجال، وكانا بالفعل أفضل رفيقين يستطيع المرء أن يحظى بهما عند السفر فى الصحراء.

احتجنا أيضًا إلى ملابس أخرى، وبعض أنواع الطعام، والأحذية، خاصة الأخيرة؛ فالخف البدوى الذى بلا كعب، وهو الشيء الوحيد الذى يمكن انتعاله فى الصحراء، كان يبلى سريعًا، ومن الشائع أن يتم إصلاحه فى أثناء الطريق. وكان من الضرورى أن يتم التأكد من أن كلاً منا ليس معه حذاء احتياطى فقط بل معه أيضًا الجلد الذى سوف يحتاج إليه بكل تأكيد لكى يرقعه إلى أن يصل إلى "الكفرة".

وفى "جالو" عثرت على صانع أحذية شهير، تُدعى حميدة، وكنت قد قابلته فى "الكفرة" قبل عامين وصنع لى حذاء، وفى هذه المرة كان معى الحذاء ذاته الذى سبق أن صنعه لى، وكان فى حاجة ماسة لرقعه، وكانت سعادته بالغة عندما أخذته له ليصلحه.

كان ذا مظهر جليل تظن معه بسهولة أنه قاضٍ، أو على الأقل أحد أعضاء مجلس الواحة، وكان يحضر إلى دارى يومًا تلو الآخر ليعمل فى صنع خمسة أزواج من الأحذية، وكذلك فى صنع أحذية لرجالى، بالإضافة إلى إصلاح سروجنا وتجهيزاتنا الجلدية الأخرى. وكان من الممتع أن أمنحه وجبة طعام ثم أدعوه بعد ذلك بمودة إلى كوب شاى. وفى أحد الأيام كان يسعل عندما جاء الشاى، وأبديت تعاطفى لاعتلال صحته، فنظر إلىَّ عبر كوب شايه وأجاب فى صوت هادئ " ولكن شاى سيدى البيه دائمًا يوقف سعالى، وليس أى شاى آخر، ولكن دائمًا شايك فقط". لم أتجاهل التلميح الذى ألقاه

بلباقة، وقبل أن نرحل عن "جالو" تلقى حميدة هدية منى عبارة عن عبوة صغيرة من ذلك الشاى العجيب.

إلى جانب أحذيتي والجلود، اشتريت قماشاً من أجل ملابس الرجال، وزبد، وزيت، وشعير، وحطب، وثمانى قرب، وعلى الرغم من أن على كاجا عبد السيد إدريس المفضل وأمينه - الوكيل - فى "جالو"، أخبرنى أن سيده أمره بأن يضع تحت تصرفى كل مخزونه من المؤن من الأنواع كافة، إلا أننى شكرته ولم أسمح لنفسى بقبول عرضه، فقد وصلت للتو من مصر وأنا كامل التجهيز، وأعلم كم يعنى هذا المخزون لمن يعيشون فى هذه الرقعة المنعزلة.

بالإضافة إلى هذه التجهيزات، أنفقت الأيام العشرة التى أمضيتها فى "جالو" فى تبادل الضيافة وفى الأعمال العلمية. وكانت الضيافة على أعلى مستوى من مستويات الضيافة البدوية؛ ففى اليوم الأول تناولت عشائى مع سنوسى قادر بوح القائم مقام أو حاكم "جالو"، وفى اليوم الثانى تناولت طعام الغداء فى دار البشارى أكثر زعماء تجار المجابرة أهمية، وكان ينتظرنى مضيفى وابنه، وفى اليوم الثالث أرسل لى الغداء أعضاء المجلس، وشاركنى الطعام زروالى "القاضى"، وعلى كاجا، ومُجيب، وبعد الطعام تحدثت مع القاضى عن تاريخ السنوسية، وأرونى خطابات من السنوسى الكبير، ومن المهدى ابنه، بينما عشاء هذا اليوم جاء من عند الحاج فرحات، تاجر آخر من تجار المجابرة، وشاركنى فى تناوله كل من القائم مقام، وزروالى، وعلى كاجا، ومُجيب، عبد الله، وبينما كنا نأكل ناقشنا عادة "بوزافار"، التى أجمع الكل على أنها لا يصح أن تكون وجبة طعام، بل يجب ذبح خروف وتناول لحمه.

وفى اليوم الرابع تغديت فى دار الحاج على بلال من المجابرة، وقد دونت فى يومياتى أنه قد حضر هذا الغداء الأفراد المعتادون، وأن الغداء كان جيدًا للغاية، كما أرسل لى العشاء الحاج سيد، وهو أيضًا أحد تجار المجابرة، وشاركنى فيه كل من القائم مقام، وزروالى، والقاضى، وفى اليوم التالى تغديت فى دار الحاج غريبال، وفى هذا المساء حدثت أكثر تجاربى إثارة فى مجال الضيافة؛ فقد كان يعيش فى "جالو" بضع سيدات من عائلة السنوسى - ومن بينهن زوجة السيد إدريس وأخته - وبعد فترة قصيرة من وصولى إلى "جالو" أرسلن لى دعوة للعشاء، وكانت تلك حادثة غير مألوفة؛ فنساء البدو من الطبقة العليا لا يوجهن الدعوة للرجال على النحو الذى تفعله النساء فى الغرب واللاتى يمكنهن فعل ذلك بلا غضاضة، وكنت مدركًا بالطبع أننى لن أتناول عشائى بالفعل مع مضيفاتى بل مع من سينوب عنهن، ورغم هذا كنت مقدرًا بحق لذلك التكريم الذى لم يسبق له مثيل.

وفى الموعد المحدد حضر ليرافقنى للعشاء كل من زروالى والقائم مقام، وكانت الدار التى تشغلها النساء هى دار الحاكم السابق إبان الحكم التركى. وبعد أن وصلت إليها وجدت نفسى فى حجرة فسيحة، حيث كانت الأضواء الناعمة المنبعثة من مشكاة نحاسية رائعة الجمال، وأعداد لا تحصى من الشموع تعمل على إثراء عذوبة الضوء والتركيبات اللونية الثرية للسجاجيد التى لا تقدر بثمن والوسائد الحريرية فى هذا المكان. وتولى سيدى صالح - زوج إحدى سيدات السنوسية - دور المضيف نيابة عنهن. وتحت إشراف ضيافته مُدَّت أمامنا مأدبة رائعة بواسطة نصف دستة من العبيد. وعندما

أصبح علينا أن نأكل طلب منى ذلك بلطف وكياسة، ورغم هذا كنت خائفًا أكثر مما تتطلبه طبيعة الأمر، وقد انتهت الوليمة بغسيل أيدينا فى أوانٍ أحضرها العبيد، وبأكواب الشاى الثلاثة الرسمية، ورش ماء الورد فوقنا، وإشعال البخور أمامنا، ثم جاء رئيس العبيد وبشكل تبجيلى همس فى أذنى "هل يبغى البيه سماع بعض الموسيقى؟ لدينا جرامافون وبعض التسجيلات لمغنين مشهورين من مصر، على البيه فقط أن يأمر".

وربما خيبت آمال رفقائى - لا أدرى - ولكن طبقًا لقناعتى، رفضت بأدب جم عرض الترفيه هذا؛ فقد كان هناك شيء نادر وثمين فى أجواء هذه الحجرة ناعمة الإضاءة، شعرت أنه قد تنتهكه تلك الأصوات القادمة من خارج الصحراء، وربما يعود جزء منه لجمال المكان، والبعد عن العالم، ولكن على وجه الخصوص لذلك الشعور بأننى ضيف على نساء بدويات نبيلات، وكن يختفين عنى طبقًا لتقاليد مجتمعنا الشرقى، إلا أنهن كن بالمعنى الحقيقى للكلمة حاضرات من خلال ضيافتهن الفاتنة ورعايتهن الكريمة، اللتين جعلتا من هذا المساء ذكرى فريدة لا تُنسى. أخبرت العبد أن ينقل تحياتى واحترامى إلى السيدات ويخبرهن كم تأثرت بشدة بمجاملتهن الكريمة، وبعدها خرجت إلى ليل الصحراء الصافى ونسماته الناعمة التى كانت تثير رائحة البخور من ثنايا جيردى لتذكرنى بقوة بالسلام والسكينة الغامضة التى كانت تعبق الحجرة التى أتيت منها.

وفى اليوم التالى رددت واجب الضيافة لكل أولئك الذين ضايفونى بكرم بالغ. وكانت حجرتى بأرضها الطينية الجافة وحقائب

السفر الملوثة التى تصطف حول جدرانها لا يمكن مقارنتهـا بالـدار الساحرة التى تناولت فيها العشاء فى الليلة السابقة، إلا أن على كاجـا أخذ على عاتقه أن يجعلها مقبولة بقدر ما تسمح به الظروف. ومـن خلال زوج من الفوانيس النحاسية الجميلة، وبعض البُسط المسـتعارة من دار السيد إدريس وبعض الكماليات الأخرى استطاع أن يحـاكى باحترام قاعة طعام. وكان ضيوفى هم: القائم مقام، وأعضاء المجلس، واثنان من الإخوان، والقاضى، وعلى كاجا، وموسـى قائـد سـلاح المدفعية السنوسية، وزروالى.

ارتديت أفضل ثيابى البدوية، وانتظرتهم حتى ينتهوا من الطعـام كما يجب أن يفعل المضيف البدوى، وعندما طلب منى بعض الرجال – من أولئك الذين سبق أن كانوا فى العالم الخـارجى – أن أجلـس معهم وأتناول الطعام أكدت لهم سوف أفعل ذلـك عنـدما يكونـون ضيوفى فى القاهرة.

واجتهد أحمد – الطاهى الخاص بى – فى إعـداد العديـد مـن الأطباق الأوروبية المميزة ليشير إلى مدى تفرد ولائمنا، وقد كانـت سعادة ضيوفى بالغة بما قدمه.

أنهت وليمتى تبادل الضيافة فيما بيننا، ولمدة يوم أو اثنين كنـت حرًّا فى تناول طعام الغداء والعشاء فى عزلة هادئة، إلا أننى كنـت أكن امتنانًا بالغًا لمضيفى الكرماء لحسن ضيافتهم وكريم استقبالهم.

كان الجزء المهم من نشاطى فى "جالو" هو قيامى بجمع بعـض الملاحظات العلمية؛ فقد راقبت الشمس والنجوم لكى أحـدد خطـوط الطول ودوائر العرض، وأدون القراءات المألوفة للبارومتر الزئبقـى

والترمومتر لتحديد منسوب المنطقة بالنسبة لمستوى سطح البحر. وملاحظاتى حول النقطة الأخيرة - عندما تم الانتهاء من إيجاد العلاقة بين التسجيلات التى تمت للبارومتر فى "سيوة" فى اليوم ذاته - كشفت الحقيقة المثيرة؛ حيث أن منسوب " جالو" أعلى اليوم بنحو ٦٠ مترًا عما سجله رولفس عام ١٨٧٩؛ فقد وجد أن "جالو" تكاد أن تكون على منسوب سطح البحر، بينما وجدت أنها على منسوب ٦٠ مترًا أعلى. وقد رأيت تفسير ذلك ماثلاً أمام عينى؛ فقد تسلقت الرمال المترسبة ببطء جذوع أشجار النخيل وحوائط الدور، مهددة إياها بأن تبتلعها، بل إن بعض السكان قاموا بالفعل بنقل منازلهم، وأعادوا تشييدها على مناسيب أعلى بسبب تراكم الرمال بانتظام، والذى تجرفه العواصف الرملية ويتجمع أينما كانت هناك أشجار أو دور توقف تقدمه، وهو ما رفع منسوب "جالو" لما يقرب من ٢٠٠ قدم فوق منسوب سطح البحر خلال أربعة وأربعين عامًا. فالمنزل الذى كنت أعيش فيه، حيث سجلت قراءة البارومتر، كان على منسوب أعلى من باقى الدور فى "جالو" بما يتراوح بين ١٥ و ٢٠ مترًا.

وعند جمع ملاحظاتى العلمية كان علىَّ أن أكون حذرًا؛ لأن البدو يرتابون فى أى شىء ذى مظهر علمى معقد مثل "الثيودليت"؛ فقد كانوا واثقين من أننى أعد خريطة بهدف العودة مرة ثانية لاحتلال أرضهم. ففى أول مرة أمسك بى أحد زعماء البدو والرجل الذى كان سيرشدنا إلى "الكفرة "مع الثيودليت الخاص بى. كان علىَّ أن أشرح لهما بسرعة وبصورة مقنعة بأننى أجمع بيانات بهدف إعداد إمساكية لشهر رمضان القادم.

أما عبد الله الذى لم يكن بدويًا بالطبع، فقد كان ذا فائدة لا تقدر بثمن بالنسبة لعملية التمويه على أنشطتى العلمية؛ ففى الواقع كان متخصصًا فى اختلاق هذه الأكاذيب الصغيرة التى تنعم مسار الحياة وتحافظ على المشاعر الاجتماعية. ففى أحد الأيام كنا نستخدم الثيودليت على مسافة ما من البلدة، وسألنا أحد سكان المنطقة عما نفعل، وقال له عبدالله إننا نلتقط صورة " لجالو".

فسأله البدوى " كيف يمكن ذلك من كل هذه المسافة؟"

وكان لدى عبدالله تفسير جاهز؛ فأكد له بطريقة عفوية "الآلة تجذب الصورة؛ لذا فهى تخرج مباشرة من موضعها وتطير نحوها".

فسأله البدوى مرتابًا " ولكن كيف يستطيع الصندوق جذب الصورة؟ "

فضرب له عبد الله مثلاً " اسأل المغناطيس كيف يجذب الحديد؟!" ونال منه ببلاغته، وأُغلق باب المناقشة.

الفصل العاشر

الرحلة

«بحلول يوم الخميس الموافق ١٥ مارس أصبحنا مستعدين للرحيل. استيقظت فى السادسة صباحًا لإعداد أمتعتى، وكما هو معتاد فى أول أيام السفر عندما تكون القافلة لم تألف بعد هذه العملية فإن الأمر يتطلب وقتًا طويلاً، وقد تطلب منا ذلك نحو ثلاث ساعات لننتهى من التحميل».

وكان علينا بعد ذلك أن نتبع عادة البدو فى "التجهيز"، وهو ما يعنى أن نجاور إحدى الآبار قبل أن نبدأ الرحلة، ونقضى عندها بضعة أيام – قد تمتد فى بعض الأحيان إلى أسبوع – فى الإعداد النهائى للسفر قبل أن نهجر حياة العمران، وكانت بئر "بوطفل" التى تبعد نحو ثلاثين كيلومترًا من "جالو" هى النقطة التى سوف نعد عندها "تجهيزنا".

وبينما كانت تتم عملية حزم الأمتعة، حضر لإبداء مراسم المودة أو الوداع كل من القائم مقام والوجهاء والإخوان، وجلسنا سويًّا لنناقش ما سيئول إليه الحال فى الرحلة؛ فقبل عامين قمت بالرحلة نفسها إلى "الكفرة"، فى ظل ظروف أفضل، ورغم هذا فقد ضللنا طريقنا قبل أن نتمكن من الوصول إلى "الكفرة"، رغم أن الجو كان أبرد مما هو عليه الآن؛ لأننا كنا مبكرين عن هذا الوقت بشهرين،

ولم تكن الرياح والعواصف الرملية بمثل هذا التواصل، وكانت القافلة أصغر حجمًا، كما لم تبرز فى هذا الوقت مشكلة توفير الإبل وعلفها، والرجال وطعامهم واحتياجاتهم؛ فقد تكفل بإعداد القافلة وتجهيزها بالكامل الإمام الكريم السيد إدريس، وهو الأمر الذى كان قيد الاعتبار فى تهدئة شكوك البدو والحد من عدائهم للغرباء. بينما فى هذه المرة، كان علىَّ أن أتولى بنفسى إعداد الإبل والأفراد، وكان من الطبيعى أن تثير الفضول هذه القافلة الكبيرة جدًّا التى تتضمن كميات من الأمتعة الضرورية وغير الطبيعية لرحلة طويلة.

فى هذه الطرق الطويلة الخالية من مصادر المياه غالبًا ما تكون الطبيعة هى العدو الوحيد، وهى تستطيع أن تكون كذلك إذا ما أرادت.

إلا أنه من حسن الحظ أن أفراد قافلتى تعاونوا معًا على نحو جيد؛ فالأفراد الأربعة الذين أحضرتهم من "القاهرة" و"السلوم" و"سيوة" تآلفوا تمامًا مع كل الأفراد الذين قابلناهم، كما أن زروالى – وهو أحد إخوان السنوسية الذى أوفده السيد إدريس ليرافقنا – كان ودودًا بطبعه، وبذل كل ما فى وسعه ليجعل رحلتنا مريحة قدر الإمكان، وشعرت أنه لا يوجد اهتمام حقيقى بما هو قادم؛ فلا يهم ماذا قد تختاره الطبيعة لتفعله بنا.

عندما تم تحميل الإبل كلها، شرعنا فى أداء مراسم الوداع المبجلة، فوقفنا فى شكل قوسين يواجه كل منهما الآخر، شغلت أنا ورجالى أحد هذين القوسين بينما كان رئيس "جالو" وإخوان السنوسية فى الآخر، وفى وقار وخشوع رفعنا أكفنا بالدعاء آملين أن تكون

رحلتنا مباركة، وأن يرشدنا الله – سبحانه وتعالى – ويعيدنا إلى ديارنا سالمين غانمين، وقرأنا "الفاتحة" – السورة الأولى من القرآن الكريم – ثم قال أكبر أفراد الإخوان سنًّا "آمين"، ثم تصافحنا، وافترقنا. وكان صياح الرجال وهم يستحثون الإبل يرد صداه زغاريد النساء، وأخيرًا أصبحنا على الطريق.

وبينما كنا نمر " باللبَّة"، ثانى قرى " جالو"، وقعت حادثة بعثت البهجة فى طريقنا؛ فقد اعترضت طريقنا فتاة رشيقة القد، تخفى وجهها عنا بحجاب بدوى، وفى صوت واحد صاح الرجال على مقربة منها:

"وشك، وشك، وشك"

فاستدارت الفتاة، وفى وقار نحت جانبًا حجابها، لتكشف عن ملامح فاتنة كأنها نحتت بإزميل، فوق بشرة زيتونية رائقة اللون يكسوها خجل لا يخلو من أمارات الكبرياء الذى يتسم به عذارى البدو، صاح الرجال سرورًا لجمالها ومجاملتها، وحتى تكتمل التقاليد أمرتهم أن يفرغوا بنادقهم عند قدميها، ثم بدأ حامد وسعد فى أداء مراسم تحية الفتاة الجميلة؛ فبدأ الأول ثم تلاه الآخر، رقص الرجل بخفة نحوها متخيلاً وجود إيقاع طبل بدوى، بينما كان يمسك بندقيته بكلتا يديه ويرفعها فوق رأسه، وفوهة البندقية موجهة للأمام، وكان يردد إحدى الأغانى البدوية، وعندما اقترب منها تمامًا خرَّ بخفة على إحدى ركبتيه ووضع بندقيته فى وضع رأسى وفوهتها لأسفل ثم أطلقها على مسافة قريبة جدًّا من قدميها.

كانت الطلقة قريبة جدًّا وتصويبه كان دقيقًا للغاية؛ حتى إن وهج البرود المتطاير منها سفع خف الفتاة وحرق سطحه، ورغم هذا لم تجفل الفتاة من الانفجار، بل وقفت منتصبة فى كبرياء تواجه التكريم الذى قدم لها؛ إذ إن سفع خف الفتاة فى الصحراء يعد علامة على تميزها، وهو أمر تعتز به أية فتاة بدوية. وبعد ذلك قام سعد بمحاكاة حامد فى أداء المراسم، ثم أطلق رجال القافلة مزيدًا من الطلقات وبعد ذلك تحركنا.

ابتسمت الفتاة لنا، وبقدر التكريم الذى قُدِّم لها بقدر سعادتنا للفأل الحسن أن يقطع طريقنا وجه جميل عند بداية رحلتنا، وخلال ساعة عدنا للصحراء الشاسعة من جديد.

وبعد ثمانى ساعات من السير المتواصل وصلنا إلى بئر "بوطفل" التى كان علينا أن نتوقف عندها لمدة يوم واحد فقط.

مرت هذه الليلة سريعًا، وذلك من خلال الغناء والحديث حول نيران المخيم الذى امتد لما بعد منتصف الليل. وبعد أن هدأ المخيم، اصطحبت غليونى معى وذهبت لأتمشى، كانت تلك دائمًا إحدى أكثر متع حياتى فى الصحراء: أن أدخن غليونى فى سلام قبل أن أعود دائمًا فى سلام؛ فإذا ما كان اليوم جيدًا فإن لذة التدخين يقترن بها شعور بالرضا، وإذا كان سيئًا فهناك دائمًا أمل فى اليوم المقبل، وإيمان بأن كل شىء سوف يصبح على ما يرام؛ فطوال الرحلة بأثرها لم أذهب يومًا إلى النوم مصطحبًا معى ما يقلقنى، أو يشغل بالى، مهما كنت مبتلى بالحوادث أو الظروف.

أنفقنا اليوم التالى فى الإعداد النهائى للرحيل؛ حيث وصل بوحليجا مالك الإبل فى ركب صغير يتكون من ثلاث إبل، وفى أثناء النهار وصل رجل آخر من "جالو" ومعه شيء لنا؛ فقد كنا فى حاجة ماسة إلى حبال، ولكن الثمن الذى طلبه البائعون كان باهظًا للغاية، حتى إن عبد الله تشاجر معهم وترك أمر إتمام الصفقة معلقًا حتى الدقيقة الأخيرة، ثم رتَّب مع رجل يُدعى سنوسى بوجابر ليُحضر لنا الحبال فى "بوطفل".

وعندما وصل هذا الرجل، حضر إلى خيمتى، ليخبرنى أن له أخًا فى "الواداى" وطلب منى أن يرافقنا، وسوف يعمل ليسدد تكاليف رحلته، تفحصت الرجل سريعًا وقررت ما سوف أفعله، اكتشفتُ بجلاء أنه يملك روح المرح، وتقريبًا إن لم يكن على وجه التحديد فهى تعد من أكثر الأمور قيمةً خلال السفر فى الصحراء؛ فالقدرة قد تفشل، بينما الروح المرحة تُمكِّن المرء من أن يظل رابط الجأش حتى اللحظة الأخيرة. كنت مستعدًا لأن آخذه، ولكن بدا الأمر غير ممكن؛ لذا قلت له " نحن على وشك الرحيل، ولا يوجد وقت لديك حتى تُحضر أغراضك من "جالو" وتعود لنا فى رحلة قد تتطلب يومًا كاملاً".

فوجدته يقول "إنها معى هنا".

سألته وأنا أنظر إليه فى ريبة أين هى؟!

أجاب وهو يشير إلى الرداء الذى يرتديه والعصا التى يمسكها "أهه".

انفجرت في الضحك لفكرة تجهيزاته لرحلة صحراوية شاقة، وشاركنى المرح، طمأنته أنه يمكنه الانضمام إلينا، ولم أندم مطلقًا على قرارى هذا؛ فقد أثبت أنه أحد أفضل الرجال الذين حظيت بهم.

فى صباح اليوم التالى، سقينا الإبل، وهو الأمر الذى يجب ألا نتعجل فيه؛ فلا شيء أكثر أهمية فى الترحال من حالة إبلك، ولا يقتصر الأمر فقط على أن تكون سمينة، وأن تتناول كفايتها من الطعام عند بداية الرحلة، بل يجب أيضًا أن يسمح لها بالشرب بتروٍ، وأن تُتاح لها الراحة بعد الشرب، وعندما أصبحت الإبل جاهزة، تم تحميلها بعناية بالغة؛ لأن الحزم والتحميل الجيد فى البداية يعنيان توفير الكثير من الوقت والمشاكل طوال الرحلة.والسرعة فى التحميل والإنزال تتحقق مع مرور يومٍ تلو الآخر، وفى بعض الأحيان قد تعنى توفير يوم أو يومين قبل نهاية الرحلة.

بحلول الساعة الثانية والنصف بعد الظهر أصبحنا مستعدين للرحيل، وبينما كانت الإبل تتحرك ببطءٍ ارتفع صوت بوحليجا الجهورى بالأذان "**حى على الصلاة**"، طبقًا لعادات البدو عند بداية رحلة طويلة؛ فهو تقليد بدوى مفاده أن أولئك الذين يبدأون رحلتهم مع الأذان سوف ينهونها مع الأذان أيضًا، وهو ما يعنى أن القافلة لن تواجه كارثة على الطريق.

ظلت قافلتنا تزداد تدريجيًا حتى أصبحت تتكون من واحد وعشرين رجلاً، وتسعة وثلاثين جملاً وناقة، بالإضافة إلى حصان وكلب، وكان بيان رجالها على النحو التالى: أنا ورجالى الأربعة (عبدالله، وأحمد، وحامد، وإسماعيل)، ثم زروالى، وبوحليجا مالك

الإبل، وابنه، وابن أخيه، وعبده، وكان هناك أيضًا داوود عم زروالى - الذى كان معه جمل واحد سوف يذهب به إلى واحة "تـــايزربو"[(٣١)] ليعود منها بزوجته وابنته - بالإضافة إلى سنوسى بوحسان "دليلنـــا"، وسنوسى بوجابر - الفتى صاحب القميص والعصا - وحامـــد مـــن الزوىّ، وهو صبى آخر كان غناؤه عذبًا، وسعد العجيلـــى، وفـــراج العبد، واثنان من أفراد التبو، ومعهم ثلاثة جمال، وبالإضافة إلى كـــل ماسبق كان هناك ثلاثة أفراد آخرين من التبو معهـــم ثلاثـــة جمـــال محملة ببضائع سوف يسلمونها للتجار فى "الكفرة".

جعلنا وجهتنا صوب الجنوب متجهين إلى "الكفرة"، كـــان الجـــو حارًا وعاصفًا، والصحراء تمتد أمامنا مثل فطيرة حارة لا نهاية لها، وكانت الأرض التى نجتازها من نـــوع " السريرة"، وهى عبارة عن أرض منبسطة من الرمال الخشنة التى يتنـــاثر فوقهـــا القليـــل مـــن الحصى.

كان هدفنا الأول بئر"زيغن"، الذى كان يتعين علينا أن نصل إليها بعد ثمانية أو تسعة أيام، وفى الماضى - قبل عهد السنوسية - كـــان من المعتاد أن تقطع الرحلة من "جالو" إلى "زيغن" فـــى ثلاثـــة أيـــام وخمس ليالٍ من السير المتواصل، دون توقف حتى للراحة أو تنـــاول الطعام، ولكن السنوسيين غيَّروا كل هذا؛ فقد استنوا عُرفًـــا يتضـــمن اصطحاب ما يكفى من الماء والطعام لأن يسمح بأن تقطع هذه الرحلة فى ضعف المدة السابقة، وفى المقابل تُتاح فترة كافية مـــن الراحـــة للإبل والرجال كل يوم.

---

(٣١) واحة تبعد عن منخفض الكفرة بنحو ٢٠٠ كيلومتر فى اتجاه الشمال. "المترجمان"

تحركت إبلنا فى البداية على مضض؛ لأنها تركت للتو رعيًا جيدًا، وهى بالأحرى تفضل العودة إليه.

وقد حاول بوحليجا بكل ما فى وسعه إقناع أفراد التبو التجار بأن يتقدموا القافلة بإبلهم، إلا أنهم رفضوا بمهارة؛ فشرف تقدم الصف أمر شاق؛ لأن الإبل مستعدة أن تتبع من يتقدمها، لكنها لا تحب أن تتقدم إلى الأمام اعتمادًا على أنفسها؛ لذا يصبح لزامًا أن يُقاد أول جمل فى القافلة، وغالبًا ما يضرب بالعصا حتى يستحث على التقدم؛ لذا فضل أفراد " التبو" أن يشغلوا ذَيل الموكب حيث لا تحتاج إبلهم لمن يستحثها على السير، إلا أن بوحليجا استطاع بعد ذلك أن يثأر منهم لإصرارهم على اختيار هذا الموقع.

ظل الطقس حارًّا وعاصفًا طوال فترة ما بعد الظهيرة، لكن فى المساء قلَّت شدة الرياح لتصبح نسمات رقيقة، وارتدت الصحراء كامل سحرها، ووجدت فى يومياتى بعض التداعيات الفكرية والمشاعر التى خامرتنى هذه الليلة حول العودة إلى هذه الصحراء العجوز التى أعشقها، وكنت وقتها أقترب من النقطة التى ضللنا فيها طريقنا منذ عامين.

إنها الصحراء المنبسطة ذاتها، والشعور بالذكريات القديمة. كيف للمرء أن ينسى الصحراء بشمسها الحارقة، ورياحها التى تؤرق هدوء ليلها، وغروب شمسها، وبزوغ قمرها، ثم تلك النسمات الناعمة الصافية، بل كيف له أن ينسى أُخطارها المحدقة، والإدراك الكامل لتلك المتع البسيطة التى تحببها الصحراء إلى المرء على الرغم من خشونتها وقسوة عيشها؟!

كوب الشاى

السيجــارة

الغليون

عبير التبغ المتمايل بفعل النسمات النشطة.

تراقص النيران المشتعلة فوق وجوه أفراد القافلة، سواء العجوز المتجعد، أو الناعم الفتى.

أن ترى الرجال يكدحون، ينجحون، يفشلون، يعانون، فى فضاء آخر من الحياة.

وفوق ذلك كله، أن تكون قريبًا من الله سـبحانه وتعـالى، وأن تشعر بوجوده الدائم.

١٨ مــارس: استيقظنا فى السادسة صباحًا، وتم تحميـل الإبـل بسرعة حيث استغرقت هذه العملية نحو خمس وثلاثين دقيقـة فقـط؛ فالاهتمام الذى أوليناه عند التحميل أول مرة فى "جالو" و"بوطفل" جعل السرعة ممكنة الآن، ورغم هذا فقد بلغت التاسعة صـباحًا قبـل أن نصبح مـتأهبين للرحيل؛ فالبرنامج الصباحى للمخيم ليس من الأمور التى يملك المرء التعجل فيها بأمان؛ فالبدوى لا يحب مطلقًا أن يتعجله أحد أثناء تناول وجبته، أو أن يُحرَم من دقائق الراحة التى تلى ذلـك، والتى تعد أحد الأمور الجوهرية فى منظومة سلامه النفسى، ورضائه الروحى، والقائد الحكيم سوف يدرك أن التحامل على الرجال فى هذا الأمر يجب أن يُؤخذ بحذر.

* * *

وربما يعد هذا الموضع ملائمًا للغاية لأن نعرض للخطوط العريضة لأحد أيام السفر النمطية فى ظل الظروف التى سادت حتى وصولنا إلى "أركينو".

على الرغم من أننا كنا فى شهر مارس، فقد كان الجو لايزال باردًا فى الصباح، والمرء يستيقظ غالبًا بعد الفجر بقليل؛ لأن البرودة القارصة تحول دون أن يستمر فى فراشه أكثر من هذا؛ فحتى أكياس النوم والبطاطين البدوية لا تفلح فى حماية الجسم من قشعريرة البرودة، أختلس النظر للخارج عبر حاشية خيمتى فألمح النجوم لاتزال صامدة فى السماء، وأن أحدهم قد أشعل النار بالفعل، ولعل الحافز الأول للخروج من خيمتى هو أن أتوجه إليها دون تأخير، ألتحف بجيردى وأحكم ربط الكوفية حول أذنى، وأندفع بسرعة صوب اللهب المتطاير؛ إذ لا يوجد شىء حار فى الصحراء فى ساعات الصباح الباردة سوى هذه النار، أقف بجوارها واتطلع حولى، لا تزال أمارات الحياة فى المخيم محدودة حتى الآن. وعلى الرغم من أن كل الرجال قد استيقظوا؛ فهم يحتشدون معًا بحثًا عن الدفء، يلتفون فى جيردهم وفى كل ثوب آخر تستطيع أيديهم أن تقع عليه، وعندما يكون الماء وفيرًا تدور أكواب الشاى الساخنة، وبعد أن يشرب الجميع تُوزع مهام العمل فى المخيم؛ فيتوجه الجمَّالون إلى الإبل ليطعموها بالبلح الجاف، الذى تمضغه الدواب بالكامل بما فيه من نوى، ثم يبدأ التشاور حول الإبل؛ فإذا ما عانت إحداها فى اليوم السابق من ثقل الحمولة، فربما يتقرر نقل هذه الحمولة أو قد يُوصى بحزمها وتحميلها.

بينما يقوم الرجال الآخرون بجمع الخيام الثلاثة التى تشغل رءوس مثلث تقف الإبل فى مركزه، أما الأمتعة التى استخدمت كحواجز للرياح الباردة، فتصنف وترتب استعدادًا لتحميلها.

وفى هذه الأثناء أنكب على البارومتر والترمومتر، وأسجل قراءتيهما فى موضعهما فى يومياتى العلمية، وأرى إن كانت الكاميرات بها أفلام كافية أم لا.

مازال صوت الرجال فى المخيم خافتًا بعض الشىء، تحجبه الكوفيات والملابس الإضافية. أخيرًا أعد الإفطار، الذى قد يكون "عصيدة" – طبق البدو القومى، وهو نوع من البودنج، يُطهى من الدقيق والزيت والتوابل – وقد يكون أرزًا، وهما فى كلا الحالتين يعدان وجبة بسيطة بكل ما فى الكلمة من معنى، إلا أنه مع شهية المرء المفتوحة يهجم عليها بنهم شديد. ففى الصحراء أى نفور من وجبة الطعام الأولى فى اليوم قد تشعر المرء أنه بعيد عن الديار.

ينتهى الإفطار دائمًا بثلاثة أكواب حتمية من الشاى، تُشرب على مهل وباسترخاء بالغ، ومهما يفعل أحدهم، فعلى المرء ألا يحرم أى فرد من شرب الشاى أو يتعجله فى شربه؛ فالبدوى إذا أعطيته وجبة تشبعه، وسمحت له بعد ذلك أن يرتشف ثلاثة أكواب من الشاى على مهل، سوف تحصل منه على أى عمل تريده، أما إذا بخلت عليه أو تعجلته فسوف تحصل على عمل أسوأ من عدمه.

بعد الإفطار يشعر الكل بالدفء والسرور، ويكونون مستعدين للعمل الشاق. يتم التحميل بسرعة، ويتباين زمن هذه العملية نتيجة للسلوك الغريب لبعيرين أو ثلاثة من صغار الإبل العابثة، وهو أمر

يحدث فى كل قافلة؛ فهذه الإبل الصغيرة تقاوم وضع الأحمال فوق ظهورها، بل إنها قد تلقى كل أحمالها بعد أن ينتهى التحميل تمامًا؛ لذا يكون زروالى وعبد الله يقظين ليتأكدا من أن التحميل قد تم بعناية ودقة بالغة؛ فنصف ساعة زائدة تبذل الآن قد توفر من ساعتين إلى ثلاث ساعات يوميًا بعد ذلك على الطريق بسبب انزلاق الحمولة أو التوزيع الخطأ للأحمال.

وعندما تصبح القافلة كلها مستعدة، أتبادل بضع كلمات مع الدليل عن اتجاه سيرنا اليوم، فيرسم خطًا على الرمال ويشير إليه ويقول "من هنا يمتد طريقنا"، فأرصد اتجاه الخط ببوصلتى، وهو الأمر الذى يبدو له – بلا شك – منافيًا للعقل، وإن كان ذلك لا يضيرنى؛ فقد كنت أحب أن أكون قادرًا على التحقق بواسطة بوصلتى من الاتجاه الذى تسلكه القافلة على مدار اليوم، وبصفة عامة أثبت الحذر عدم جدواه؛ فسنوسى بوحسان كان يتوجه إلى مقصده مثل الحمام الزاجل، باستثناء حلول يحل منتصف النهار؛ فقد كان فى ذلك الوقت يحيد قليلاً عن وجهته، ففى أثناء النهار كان يسافر بهدى ظله الذى يختفى عند منتصف النهار، أو كما قال لى "عندما ترتفع الشمس ويصبح الظل بين قدمى عندها تدور رأسى"، وهناك ساعة أخرى فى اليوم تصبح مهمة الدليل عندها صعبة، وهى ساعة الشفق، بين غروب الشمس وظهور النجوم"؛ ففى هذا الوقت تصبح كل الاتجاهات فى الصحراء الشاسعة واحدة، وعندها تصبح البوصلة ذات فائدة كبيرة.

ففى إحدى المرات واعتمادًا على الاتجاه الذى رصدته فى الصباح، فوجئت فى الفترة بين غروب الشمس وبزوغ النجوم أن

الدليل ينحرف بنحو ٩٠ درجة عن وجهتنا الصحيحة، ولكن تلك المرة يجب ألا تُؤخذ مقياسًا، خاصة وأن دقة الدليل الجيد - مثل سنوسى بوحسان - فى معرفة وجهته تعد خارقة للطبيعة.

انتهى حوارنا، وتم تحميل آخر الإبل، وتقدم الدليل القافلة، وتبعته الإبل الواحدة تلو الأخرى.

كما دفَّأ أفراد القافلة أيديهم وأقدامهم للمرة الأخيرة على النار التى أوشكت على الإخماد، ثم دسوا أقدامهم فى الأحذية البدوية، وهرولوا خلف الإبل، وهم يغنون بابتهاج. الشمس أصبحت دافئة الآن، وإن لم تكن هناك رياح قوية تهب من الشمال، فسرعان ما يتخلص المرء مما يلف به أذنيه وعنقه ثم فى النهاية من جيرده، وتُلقى الملابس الإضافية فوق ظهور الإبل، وتبدأ النكات فى التقارع، وكذلك سباقات العدو على الأقدام، وتشعر أن كل فردٍ سعيد بأنه لا يزال على قيد الحياة.

وتدريجيًا يبدأ الرجال فى تقسيم أنفسهم إلى مجموعات تتكون كل منها من اثنين أو ثلاثة أفراد ينفصلون على مسافات متباعدة بطول القافلة، يثرثرون حول شئونهم الخاصة أو أمورهم العامة، أما أنا ففى بعض الأحيان أتقدم القافلة، وفى أحيان أخرى أكون على مسافة من نهايتها كى أتحقق من الاتجاه الذى تسلكه، وأستمتع بالانفراد والعزلة.

ومع اقتراب الظهيرة، تبدأ بعض الأفكار الأقل شاعرية فى الانتقاص من استمتاعى ببهاء الطبيعة؛ إذ يتساءل عقلى أحيانًا عن المطاعم المفضلة التى توجد حيث الحضارة البعيدة؛ فأحيانًا كنت أتخيل نفسى فى مطعم الشواء بشبرد القاهرة، وأنا أطلب جمبرى على

الطريقة الأمريكية مع الأرز بالخلطة على الطريقة الشـرقية الـذى يشتهر به المطعم، أو أننى فى مطعم "بروينيه" بباريس حيث أطلـب مارينيه فير أوسيند ومعه ستيك وسوفليه، أو فى "كوفا" بميلانو أطلب طبقًا لذيذًا من الريزوت ألاميلانيز أو ربما فى " ريتز " بلندن أطلـب ستروبيرى ميلبا، أو فى منزل والدى بالقاهرة أتناول طبق شركسـية من الأرز وشراب اللوز، التى تعد قطعة فنية تخصص فيها أحد الخدم كبار السن العزيزين الذين يديرون منزل والدى فى القاهرة، والـذى يحتل مكانة خاصة أشبه بمكانة المربية التى خدمت طويلاً لدى إحدى الأسر الإنجليزية. وفجأة أجد أحمد أو عـبد الله يتجهـان صـوبى، ودون كلمة واحدة، أجدهمـا يضعـان فى راحـة يدى كيسًا مـن التمـر اللين - تلاشت الأحلام - ورغم كل هذا أتناولـه بنهم شديد، كما لو لم يكن هناك طعام ألذ منه فى العالم كله.

لا نتوقف من أجل الغداء، طالما أن الإبل تأكل مرتين فى اليـوم فقط، وإذا كنا قد غادرنا للتو إحدى الواحات، فإنه قد يكون هناك خبز طازج، نصف رغيف أو ربما رغيف كامل لكل فرد مع حصته مـن التمر، وبعد ذلك يصبح هذا الخبز الطازج خبزًا جافًا قاسيًا، وربما لا يصبح هناك خبز على الإطلاق، ولكن التمر يوجد دائمًا.

كان لدى جمل جُهز بهودج فوق ظهره؛ لذا كان أى فـرد منـا يستطيع أن يتمدد ويستريح فى داخله عندما يتعب من السير، وكـان أحمد يدعوه "النادى"، حتى إنه فى أحد الأيام بينما كنـا فـى وقـت الغداء، سأل عبد الله عنى وهل أخذت حصتى من التمـر والخبـز أو لا؟ فأجابه أحمد وهو يغمز بعينه ووجهه تكسوه سمة الوقـار "البيـه النهاردة بيتغدى فى النادى".

ومن الممكن بالفعل – إذا ما اعتدت على ذلك – أن تغفو فـــوق ظهر الجمل، وليس هناك ما يدعو للازدراء فى امتطاء الإبل، ولكـــن بصفة عامة فإن المرء يسير؛ لأن امتطاء الإبل أكثر إيلامًا من السير على الأقدام، وسرعة الإبل تبلغ نحو ميلين ونصف فى الساعة، ومن السهل على المرء أن يجاريها.

وفى بعض الأحيان، قد تومض فى الأفق أمام القافلـــة مســـاحة صغيرة من المياه، ربما تستمر على مدار يومٍ كامل مـــن الترحـــال، وهى لا تقترب مطلقًا، لكنها تظل تغرى بالبرودة وبدعوة سارة للتقدم حتى تدور الشمس دورتها صوب الغرب ويتلاشى السراب، وبالطبع فإن ما يظهر ليس سوى خداع بصر؛ فلا ماء هناك أو شيئًا من هـــذا القبيل. وهناك نمط آخر من "السراب" يحدث أحيانًـــا فـــى الصـــباح الباكر، وفيه تبدو النطاقات البعيدة عن المرء كما لو كانت تظهر فـــى الأفق، أو كما يقول البدو "رأسًا على عقب"، وهو يختلف عن النـــوع الأول؛ فهو ليس وهمًا بالكامل؛ إذ إنه يعد فى الواقع انعكاسًا مقلوبًـــا لصورة المنطقة التى تبعد نحو ٣٠ أو ٤٠ كيلومترًا من النقطة التـــى يقف عندها المرء، وعندما ترتفع الشمس فى الأفق يختفى هذا النـــوع من السراب فجأة مثلما ظهر، وهناك أيضًا نوع من السراب ينجم عن انعكاس الضوء على الصحراء؛ ففى بعض الأحيان – علـــى ســـبيل المثال – قد تبدو قطعة الحصى الصـــغيرة التـــى فـــى حجـــم كـــرة الكروكيت، التى على بعد ميل كما لو أنها فى شكل صـــخرة كبيـــرة ضخمة، تقف كعلامة أرضية، بينما تتخذ الهياكل العظمية للإبـــل أو البشر أشكالاً عجيبة، إلا أن البدو يعرفونها جيدًا.

ومن السخف القول إن السراب قد يغوى البدوى على أن يضل طريقه أو حتى يقوده إلى الهلاك؛ فمن تعوَّد السفر فى الصحراء يعرف السراب عندما يراه، بل إنه من الممكن بالفعل أن تعد ظاهرة انقلاب الرؤيا "رأسًا على عقب" عاملاً إيجابيًّا عند السفر طالما أنها قد توحى بطبيعة الأرض التى تمتد فى المواجهة؛ فالسراب ظاهرة مثيرة، لكنه ليس من مخاطر السفر فى الصحراء.

عند الظهيرة يكون هناك بضع ساعات من الحرارة تقل معها سرعة الإبل، وتصبح القافلة كلها هادئة وناعسة، وعندما يأتى المساء ويصبح الجو باردًا فإن الإبل تزيد من سرعتها مرة أخرى، إلى أن تصل إلى كامل لياقتها قبل الوقت الذى سنخيم فيه، ويغنى الرجال للإبل لكى يزيدوا من جهدها، وفى المقابل تستجيب الإبل بابتهاج لهذا التشجيع.

والأغانى بسيطة وشاعرية، ومليئة بأجواء الحياة فى الصحراء، فإحدى هذه الأغنيات تتخيل بدويًّا ينتظر قافلةً فى إحدى الواحات من المتوقع وصولها.

وهو يغنى للإبل المقتربة:

انقضى الليل

هيا يامرازم إلى سماء الصباح

هلمَّ بنا

بدد مخاوفنا

ويتحدث المغنى إلى إبله قائلاً:

الكثبان الرملية

بدت أمامنا

وتحدد الطريق للديار

ويخاطب المغنى إبله:

الكثبان الرملية تخفى العديد من الآبار

التى تفيض بماء لا ينضب

سوف نصل إلى حدودها التى تشبه الأساور

المزينة بالذهب والجواهر النادرة

وفى أغنية أخرى لا يزال المغنى يخاطب إبله قائلاً:

الآبار تختفى فى الكثبان

خلف أقنعة الرمال المنجرفة فوقها

تقترب منها فرادى وأزواجًا

آه يا من تبوح بأماكنها المخفية

وفى الأغنية الأخيرة التى سوف أذكرها تبين السلوك التقليدى للبدوى تجاه جمله؛ فهو أغلى ما يملك، ومن العار أن يتركه للموت دون صراع؛ فالبدوى قد يصبر على الانتقام من مقتل أخ أو ابن، ولكن إذا سُرق جمله، فإنه لن يهدأ حتى يجده ويعيده بقوة الذراع إذا ما تطلب الأمر ذلك، حتى إن البدو يقولون "إن مَنْ لا يخاطر بحياته من أجل جمله، لا يستحقه"؛ لذا يغنى قادة الإبل لدوابهم قائلين:

من أجل خاطرك

يا من تدللنا

كما تدلل الأم الحنون أطفالها

من أجل خاطرك
أبناء النبلاء
يمددون فوق الرمال
بلا قبر أو دفْن

ويلائم الرجال الأغنية بحسب المناسبات التى تُقال فيها؛ فالأغنية الأولى تستخدم عندما لا تكون الواحة بعيدة، بينما الثانية عندما تقترب القافلة من أحد نطاقات الكثبان الرملية، أما الثالثة والرابعة فعندما تكون قريبة من البئر، بينما تقال الأخيرة عند دخول أقاليم معادية.

وقت غروب الشمس كنت أحرص دائمًا على أن أكون بالقرب من الدليل، وبشكل سرى أراجع معه اتجاهنا من خلال بوصلتى فى ساعات الشك التى تسبق بزغ النجوم.

وعندما يحلُّ الليل كان المصباح يُشعل ويُعطى للدليل، وعندها نتبع فى الظلام تلك النقطة المتحركة من الضوء الأصفر الشاحب؛ فهى تومض بدعوى محرضة على أن نتبعها، لكننا لا نصل إليها مطلقًا، والإبل تحب أن يوضع المصباح أمامها، وتتحرك برشاقة لتلاحقه، وبعد اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة ساعة من السير المتواصل – إذا كانت الظروف مواتية – نصل إلى نهاية يوم من الترحال، على الرغم من أننا لم نكن نصمد كل هذه المدة فى معظم الأحيان.

"الدار يا عيَّان" جملة يصيح بها الدليل، ويكررها وراءه كل رجل فى القافلة، وعندها يجمع الرجال الإبل، ويقسمونها كالتالى: التى تحمل المياه تقف هنا، والتى تحمل الخيام هناك، بينما التى تحمل الأمتعة من أجل الحواجز تقف أبعد.

بركت الإبل، مع أصوات الرضا، بعد أن وضعت عنها أحمالها، والآن يجب علينا أن نكون يقظين؛ لأن الرجال المجهدين من عناء يوم السفر يصبحون أقل مبالاة، حتى إنهم يتركون الصناديق تسقط على الأرض بكل عنف بكل ما فيها من أدوات ثمينة وكاميرات.

يتم ترتيب الأمتعة فى شكل حواجز إذا ما كانت الليلة تنذر بأن تصبح عاصفة، وتنصب الخيام فى شكل مثلث، ما لم تكن الليلة هادئة وصافية.

لم أستطع يومًا أن أقرر أية لحظات كنت أشعر فيها بالرضا أكثر، أعندما تنصب الخيام بعد يوم شاق من الترحال، أم عندما تحل وتجمع تمهيدًا للعودة إلى الطريق مرة أخرى؟!

وفى هذا الوقت تُشعل النيران، ويُلقِى لهيبها المتطاير بالدفء فوق الرمال، وأول شىء يعد هو الشاى، وقد أصبحت أدرك تمامًا القيمة الفائقة لهذا السائل داكن اللون مر المذاق المُحلَى، الذى يعرفه البدو بهذا الاسم؛ فهم يعدون الشاى بأخذ حفنة من أوراقه وحفنة من السكر ويغلونهما معًا فى وعاء من الماء، والنتيجة قد تعدها ربة المنزل فى الغرب شيئًا أشبه بالجنون، لكنه منبه رائع يفيد بعد يوم شاق من الترحال فى الصحراء، ومنعش جيد لطاقة المرء وروحه.

لا يتباطأ أفراد القافلة فى إعداد وجبة المساء والتهامها؛ لأن عليهم بعد ذلك إطعام الإبل وإعداد أنفسهم للنوم، أما أنا فأقارن ساعاتى الست، وأملأها، وأسجل بيانًا بالصور التى التقطتها خلال اليوم، ثم أُغيِّر الأفلام السينمائية فى الظلام، وأصنف العينات

الجيولوجية التى جمعتُها وأخزنها، ثم أدون يومياتى، ويعيننى كوب الشاى البدوى الذى أشربه على استكمال كل هذه الواجبات، بل قد ينشطنى فى بعض الأحيان ويساعدنى على أن أسير فى الصحراء، فإذا لم تكن هناك رياح باردة قارصة، قد أسير لما يقرب من نصف ميل، وفى هذه الأثناء أنظر خلفى – من وقت إلى آخر – إلى ظلال القافلة، حيث الكتل السوداء للخيام، والأمتعة، والإبل الباركة التى تشبه لمسات هنا ولمسات هناك فى لوحة فاتنة، ولهب النار التى تحتضر فى منتصف هذا البحر الشاسع من الرمال يزيد الصورة غموضًا وخيالاً؛ فكل شىء حولى صامت، فلا توجد رياح تحف بأوراق الأشجار، أو صوت خرير مياه كالتى تتدفق من الغدير مثل التى يسمعها المرء فى الغابات البرية، ولا أصوات ضربات أو طرطشة الأمواج عندما تتكسر على جوانب السفن كما هو موجود دومًا فى البحر. لا شىء سوى الصمت، صمت الرمال والنجوم!

الفصل الحادى عشر

الطريق إلى بئر زيغن

«اعتبارًا من هذه النقطة سوف أُدوِّن
الأحداث كما سجلتها فى يومياتى».

الأحد ١٨ مارس: بدأنا السير فى التاسعة صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة والنصف مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ما يربو على ستة وأربعين كيلومترًا. بلغت درجة الحرارة العظمى ٢١ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٣ درجات مئوية. ظلت السماء ملبدة بالغيوم طوال اليوم، وإن صفا الجو فى المساء، كما سقطت بعض قطرات من المطر خلال فترة ما بعد الظهيرة، وتعرضنا لهبوب رياح شديدة من الشمال الشرقى، زادت حدتها بحلول الثانية والنصف ظهرًا لتصبح عاصفة رملية، ثم هبطت مع غروب الشمس، وعادت للنشاط من جديد فى الثامنة مساءً.

احتجبت الشمس، ولم يعد تقدُّم الدليل مستقيمًا كما هو معتاد، الأمر الذى تبينتُه من البوصلة التى كنت أحملها وأتحقق منها فى أثناء اليوم، وبحلول الخامسة والنصف مساءً ظهرت الشمس وصحح الدليل وجهته. وفى السابعة والنصف مساءً اعتمد فى سيره على هدى نجم الشمال، والذى يسميه البدو "الجدى".

كانت الأرض التى نجتازها تشبه - بصفة عامة - تلك التى عبرناها بالأمس، على الرغم من وجود تموجات طفيفة، كما كنا نمر على مدار اليوم برقع من الحصى الكبير داكن اللون.

فى الصباح حدث شيء مثير؛ فقد رأينا فى الأفق سلسلة من النقاط الغائمة التى تعنى اقتراب طليعة قافلة ما، وجاء دور نظارتى المعظمة التى تنقلت بين الرجال وحولهم، وسُحبت البنادق من مواضعها فوق ظهور الإبل، وهرع أفراد " التبو " ليحضروا حرابهم، ورتب الرجال أنفسهم على جانبى القافلة انتظارًا للمقترب، واستعدادًا حتى نكتشف هوية القادمين: أهم أصدقاء أم أعداء؟ ولم يتطلب الأمر وقتًا طويلاً حتى اكتشفنا أنهم أصدقاء، ثم التقى رجال كلا الفريقين وجلسوا القرفصاء بين القافلتين ليتبادلوا الأخبار، بينما كانت الإبل تتهادى فى سيرها، وتدفقت الألسن بما سمعت وأُخبرت عمَّن تزوج، ومَنْ وُلِد، ومَنْ تُوفى، ومَنْ ربح مالاً، وما الضغائن والنزاعات الجديدة التى بدأت؟ وما القديمة التى انتهت؟! وبعدها تفرق الجمع، وكل منهم يدعو للآخر، ثم هرولوا كل خلف قافلته (تلك هى طريقة عمل وسائل الاتصال اللاسلكية فى الصحراء).

الاثنين ١٩مارس: بدأنا فى الثامنة والربع صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة والنصف مساءً، قطعنا فى هذه الأثناء نحو ٤٩ كيلومترًا. بلغت درجة الحرارة العظمى ٢٢ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٥ درجات مئوية، ظل الطقس هادئًا وصافيًا، مع هبوب رياح قوية من اتجاه الشمال الشرقى، توقفت فى منتصف النهار، كانت الشمس قائظة مما جعل تقدمنا بطيئًا، ولكن المساء

كان باردًا، مما زاد من سرعة سيرنا، كانت الأرض منبسطة للغاية يكسوها الحصى الدقيق، وفى السادسة مساءً عبرنا منخفضًا بسيطًا يبلغ اتساعه نحو الكيلو مترين، وتوجد به رقع من الأحجار الرمادية فى جانبه الأيمن والأحجار البيضاء فى جانبه الأيسر.

كنا نسير جميعًا – إبلاً ورجالاً – بخطوات واسعة، وأطلق أفراد البدو والتبو العنان لسباقات العدو على الأقدام، وتبادلوا المقالب والنكات.

و"التبو" هم أناس بسطاء بدائيون، يتسمون بعادات طريفة وساذجة، ولكونهم فقراء فإنهم يحرصون أشد الحرص على ممتلكاتهم، وهم يرتدون قميصًا بسيطًا من القطن وزوجًا من السراويل، ويبذلون قصارى جهدهم ليحافظوا على هذا الرداء قدر الإمكان؛ فعندما يمتطى فرد التبو جمله – على سبيل المثال – فإنه يخلع سرواليه، ويعلقهما على ظهر جمله، ليحافظ عليهما من البلَى والتمزق، وعندما ينام فإنه يخلع ثوبه أيضًا ليحميه من الاحتكاك بالرمال، ويكتفى فقط بلف نفسه فى عباءة من الفرو.

وبينما كان أحد أفراد التبو يمتطى جمله فى هذا اليوم، قام بعض البدو بأخذ سرواليه وأخفوهما، وعندما ترجل عن جمله وبحث عنها، أصابه الفزع فى التو لتصوره أنهما قد يكونا قد سقطا فى أحد أماكن الصحراء فى أثناء سيرنا، ودون لحظة تردد، أدار وجهه وعاد بسرعة من الطريق الذى جاء منه ليبحث عن ممتلكاته الثمينة، وقبل أن تتملكنا الشفقة عليه ونطلق بضع طلقات لكى نطلب منه العودة، أصبح جسمًا دقيقًا وسط امتدادات الرمال الشاسعة، وسرعان ما عاد

إلينا على مضض بوجه مكتئب، ولكن مرح المازحين أخبره أن فـــى الأمر شيئًا ما، وعندما برز سروالاه بدا سعيدًا جدًّا باستعادتهما رغـــم استيائه من تلك المزحة.

فى الليلة السابقة زارت خيمتى بعض الإبل، وهددت بأن تسقطها فوق رأسى؛ فالإبل حيوانات ذكية، تحب أن تحكَّ رقبتها فـــى حبـــال الخيمة. وعندما ينام المخيم كله، تسعى للحصول على هـــذه المتعـــة البريئة، ويبدأ الأمر بأن تُدخل إحدى الإبل رأسها إلى حاشية خيمتـــى لترى إذا ما كنتُ مستيقظًا أو لا، فإذا لم تسمعنى أمتعض من تطفلهـــا تدرك وقتها أننى نائم، فتخرج رأسها وتبدأ فى حكِّ رقبتها فى حبـــال الخيمة، وسرعان ما ينضم إليها آخرون، عندئذٍ أستيقظ وقد تملكنـــى شعور بأن خيمتى تهاجمها عاصفة شرسة.

كان كل يوم يزداد إعجابى ببوحليجا كرفيق سفر؛ فقد كان رجلاً قليل الكلام ذا قلب كبير وروحًا كريمة، يحظى باحترامنـــا جميعًـــا، منحه عمره وشعر لحيته البيضاء هـــذا الوقـــار؛ لأن الخبيـــر فـــى الصحراء هو ذلك الشخص الذى يملك الحكمة التى تأتى إليه بمـــرور الزمن، وهى لا تقدر بثمن؛ لذا كنت أنا وزروالى نعـــول باســـتمرار على حكم ذلك الرجل، وكان لبقًا فى عرض اقتراحاته فيمـــا يتعلـــق بآرائى، وكنت حكيمًا بالقدر الكافى كى لا أستخف بها.

كان مثابرًا فى عنايته بالإبل، وطوال اليوم تسمع صوته الرائـــع وهو يوجه الرجال أو الإبل؛ فيقول لعبده " الجمل الأبيض مرهق، غدًا يا إبراهيم سوف ننقل حمولته على الجمل البنى العجـــوز"، أو يـــأمره قائلاً: " تحدث معهم يا رجل، تحدث معهم" عالمًا أنه من الأفضـــل أن

تسافر الإبل فى ظل التشجيع، ومرة أخرى يقــول: " غــنٍّ لهــا يــا إبراهيم"، كما كان يحث الإبل بقوله:"اتبعوا الدليل أيتها الإبل الجميلة"، أو يصيح " تعالَ معى يا حامد هذا السرج تزحزح من مكانه ســوف يؤلم ظهر الجمل"، وعندما يحل الغروب يصــدر أوامــره" أشــعلوا المصابيح، فالإبل تُسَرُّ بها".

وتعد الإبل ذات صفات نادرة جدًّا إذا ما قدرناها حــق قــدرها، وفى ضوء معرفتنا الضئيلة، فهى فى مهارة الحصــان إن لــم تفقــه مهارة، كما أنها فى بعض المواقف تصبح أكثر آدمية، ومن الأقــوال العربية المأثورة " صبور مثل الجمل " وهى مقولة صادقة؛ فإذا مــا أسأت معاملة أحد الإبل فإنه لن ينسى مطلقًا تلك الإساءة، لكنــه لــن يهاجمك فى التو، بل سوف ينتظر ويصبر، وإذا ما كررت الإســاءة مرة ثانية وثالثة، فإنه سوف يعقد عزمه على الانتقام منــك، ولــيس بالضرورة أن يكون ذلك على مرأى كثير من البشر، فهو هنا ســوف يسلك سلوكًا أكثر آدمية؛ إذ سوف يتحين الفرصة حتى يصبح معــك على انفراد، ثم يسعى نحوك، إما من خلال الإمساك بك بفمــه، ثــم إلقائك على الأرض، وإما أن يرفسك ثم يطأك بأقدامه. وهناك واقعــة مشهورة عن جمل ضرب رجلاً بأقدامه ثم بــرك فوقــه رافضًــا أن يتحرك حتى بعد أن عوقب من الرجال الذين هبُّوا لإنقاذ الضحية، بل إنه ظل منتظرًا ليتأكد من أنه نجح فى الإجهاز علــى هــذا الرجــل، والذى أجهز عليه بالفعل.

ويتخيل كثير من البشر أنه فى الصحراء لابد من أن تُربط الإبل بحبل وتجر، ولكن واقع الأمر أنه من العسير جدًّا أن تُبعد جملاً عــن

باقى القافلة؛ لأنه بالغريزة يدرك أنه إن تُرك فى الخلف فقد تُـرك للموت؛ لذا يظل قريبًا من القافلة قدر الإمكان، ومن المشاهد الحزينة أن ترى جملاً يشرد فى الخلف؛ إذ إنه يصبح مثل الجندى فى تقهقره، عندما يكون غير قادر على أن يظل مع رفاقه، عالمًا أنه لايوجد مَـن يستطيع حمله، وأن تركه فى الخلف يعنى كارثة له.

ويبرز ذكاء الجمل عندما يُوخذ من واحة ما ويُدفع إلى رحلة فى قلب الصحراء، فإنه بالغريزة يحاول فى أثناء الليل العودة إلى الواحة التى خرج منها، حتى ولو مضى على رحيله ثلاثة أو أربعة أيام.

وهناك بعض مآسى الصحرء التى تبدأ أحداثها عندما تترك الإبل كلها الرجال فى أثناء الليل، سواء فى رحلة الـذهاب أو فـى رحلـة العودة عندما تكون القافلة على بعد أيام من مقصدها، أو كما يحـدث فى حوادث أخرى مع الإبل التى اعتادت السير على الطريـق نفسـه لمدة عشرة أو خمسة عشر عامًا؛ إذ إنها قد تكمل الرحلة بمفردها.

كما حدث عندما كنا نقترب من " جالو"، وتحديدًا على بعد ثلاثـة أيام سفر من خيام البدو الذين استأجرت منهم ثلاثـة مـن الإبـل؛ إذ مرض أحدها مرضًا ميئوسًا منه، فوزعت حمولتـه علـى الجملـين الآخرين، وترك فى الصحراء، وكم تجادلت مع البدو طالبًا مـنهم أن نقتله ونوفر عليه عناء عذاب الموت، بل إننى عرضت عليهم أن أدفع ثمنه إذا ما سمحوا لى بأن أضع حدًّا لنهايته، ولكن لأن الجمل كان ذا أصل نبيل فقد رفضوا عرضى هذا، وقالوا " إنه فقط يشـعر بـبعض التعب، وسوف يعود على راحته إلى المخيم"، وعلمت بعـد ذلـك أن الجمل رجع بالفعل إلى دياره، وأصبح على ما يُرام.

وتعرف الإبل بالغريزة أيضًا أن لها دليلاً يقودها؛ فإذا ما توقفت القافلة فى منتصف الصحراء لمناقشة بعض النقاط المتعلقة بالطريق، فستجد الإبل قد احتشدت حول الدليل، وفى اللحظة التى يتحرك فيها سوف تتبعه، متجاهلة وجود أى شخص آخر فى القافلة، لكنها لن تتجاهل الدليل مطلقًا، أما إذا ما تجاهل أحدها الدليل واستمر فى التقدم مباشرة على رأس القافلة؛ فعندها قد يكون من الأمان للقافلة أن تتبعه؛ لأنه بكل تأكيد يعرف المكان الذى تنشده القافلة، بل إن البدو يقولون إن الجمل إذا رعى ذات مرة فى أية واحة، فإنه سوف يعرف طريق العودة إلى تلك الواحة حتى وإن كان على بعد مسيرة أيام منها.

وهناك حكاية بدوية شهيرة تروى أن جملاً وطهيوجًا رمليًّا[٣٢] تنافسا؛ فقال الطهيوج "إننى أستطيع وضع بيضى فى وسط الصحراء وأسافر أيامًا عديدة ثم أعود وأرقد عليها"، فرد عليه الجمل قائلاً "أما أنا فإذا ما شربت أمى من إحدى الآبار، وأنا مازلت فى رحمها، فإننى أستطيع السفر أيامًا ثم أعود وأشرب من البئر ذاتها".

وقد رأيت بنفسى أحد الإبل قاد قافلة عندما كنا على مسافة أربعة أيام من إحدى الآبار التى شرب منها منذ أربع سنوات مضت. وهناك واقعة أخرى شهيرة عن جمل أنقذ قافلة كانت تتوجه من واحة "الداخلة " إلى واحة "العوينات"، وكان دليلها لم يقطع هذه الرحلة من قبل، لكنه كان يقودها اعتمادًا على وصف بدوى آخر، وقد التبس الدرب عليه، وظلت القافلة تهيم لمدة اثنى عشر يومًا بلا هدف، ونفد الماء الذى معهم وفقدوا كل أمل فى النجاة، وفجأة تقدم أحد إبل القافلة

(٣٢) طائر من فصيلة الدجاج." المترجمان"

وتبعوه؛ فقد كان فى "العوينات" قبل ذلك بعدة سنوات، وعندما أصبح على مسافة سفر يومين منها، تنسم رائحة المكان كما يقول البدو، وتوجه بالقافلة صوب إحدى الآبار هناك.

وتستطيع الإبل المدربة تدريبًا جيدًا أن تصمد أسبوعين بلا ماء فى فصل الشتاء، بينما تصل هذه المدة لنحو اثنى عشر يومًا فى فصل الصيف.

ويحاول البدو دائمًا إطعام إبلهم عشبًا أخضر إذا ما استطاعوا؛ لأنه عندما يأخذونهم إلى " الدفا"، أو إلى رحلة طويلة بلاماء، فإن طعامهم يقتصر على التمر الجاف، وعلى الشعير إذا ما استطاعوا توفيره.

ومعظم الإبل التى توجد فى "برقة " هى إبل "حمالة" أو إبل للحمل، بينما يوجد نوع آخر هو إبل السرعة، وأفضل إبل السرعة هى إبل التبو أو الطوارق، وهى دواب بيضاء جميلة ذات أوصال نحيلة مع جسد رشيق، ومعدل المسافة التى تقطعها إبل الحمالة فى ظل ظروف سير جيدة تبلغ نحو ٢٥ ميلاً، بينما يصل هذا المعدل إلى نحو ٤٠ ميلاً لإبل الطوارق الممتازة، ومن المعلوم أنها قد تصل فى بعض الأحيان إلى ٧٠ ميلاً.

وقد يصبح الجمل محبًا ومخلصًا لسيده للغاية، حتى إن إبل السرعة أو " الهجن " جيدة التدريب قد ترفض النهوض بأى فرد آخر فوق ظهرها سوى سيدها.

وكقاعدة عامة تُحمل المياه فوق الإبل الأكبر سنًا والأحكم عقلاً، والتى تسير فى رزانة دون أية محاولة للعبث؛ فهى تدرك أنها تحمل

أكثر الأشياء قيمة فى القافلة كلها؛ لذا ففى اللحظة التى تنتهى عندها رحلة اليوم، ويحين وقت إنزال الأحمال، فإن هذه الإبل، الأكبر سنًّا والأحكم عقلاً تقف منفصلة عن باقى القافلة خوفًا من اصطدام قِرَب المياه التى تحملها، بل إننى رأيت بعضها يسير حول الخيام ويقترب من قرب المياه الملقاة على الأرض والمغطاة من أجل المساء، وتبذل عناية بالغة لتسير حولها.

وكان لدى أحد الإبل الذى دُرِّب لفترة طويلة على حمل خيمتى وكتبى وأدواتى، وقد اختير فقط لهذه المهمة؛ لأنه كان يبدو قويًّا وكبير السن، وقد اعتاد كل صباح عند التحميل أن يحضر بمفرده ويبرك بالقرب من خيمتى، وبطريقته المألوفة التى لا تخلو من شموخ ينتظر حتى توضع الأحمال فوق ظهره.

ويعد الجمل زوجًا غيورًا وناقته زوجة وفية؛ فالناقة لا تترك سيدها وربها مطلقًا وتتبعه دائمًا، بينما الويل لأى جمل مغامر يجرؤ على محاولة الاقتراب منها.

فى كل صباح ومساء كنت أسير مع بوحليجا ونحن نمتطى دوابنا نتحدث عن الإبل والصحراء وتاريخ البدو، وكنت حذرًا كى لا يصدر عنى أى تساؤل مباشر؛ فالبدو بشر متشككون، ومؤهلون للارتياب فى دوافعك، لكن الملاحظات العابرة من السهل أن تخرج تعليقات ومعلومات مثيرة، ومنها تلك التى رواها الشيخ الجليل " كان هناك زمن كانت فيه الكفرة مجهولة لقومنا، وذات يوم لاحظ أحد البدو من قبيلة "غوازى" التى تتركز فى "الأبيض" – وهى واحة صغير قريبة من بئر بوطفل – أن غرابًا اعتاد الطيران صوب

الجنوب ثم العودة مرة أخرى بانتظام كانتظام شـــروق الشـــمس، رآه لبعض الوقت وبعدها خرج ليتبع مسلكه صوب الجنوب، وفى النهاية وصل إلى "تايزربو"، وبعد يوم توقف عند أطراف الواحة، تزود بمـــا يكفيه من ماء لرحلة عودته، وعندما عاد أخبر قبيلتـــه عـــن أشـــجار النخيل والماء فى قلب الصحراء، فأعدت القبيلة بعثة اتجهـــت نحـــو "تايزربو" واحتلتها، وبعـــدها ذهبت إلى "بوزيمة"، ثم إلى "ربيانـــة"، وفى النهايـــة إلى "الكفرة" ذاتهـــا، وهكـــذا وصل البدو إلى "الكفرة".

أُعجبت بحصان بوحليجا منذ أن رأيته للمرة الأولى فى "جـــالو"، وقد سأل عبد الله من أجلى عما إذا كان من الممكن شـــراؤه، ولكـــن ثمنه كان باهظًا للغاية؛ لذا تظاهرت باللامبالاة وانتظرت فى حينه، لم يكن أحد من عائلة بوحليجا قد امتطى الحصان من قبل عدا الرجـــل ذاته، فلم تكن كرامة العجوز تسمح بذلك، لكنه – بكرم بالغ – ســـمح لى باستخدام الحصان متى كانت لى الرغبة فى امتطائه، وواقع الأمر أنه بدا فى هذه الرحلة أنه ملكى أكثر من كونه ملكًا لـــه.

تعبت ثلاث إبل فى هذا اليوم وبركت على الأرض دون إصدار أى أوامر لها، وهى لا تتصرف على هذا النحو ما لم يكن هناك سبب قوى لذلك؛ لذا نقلنا حمولتها لنسمح لها بالراحة، وفقدنا بعض الوقـــت فى هذه العملية، ولكن سرعان ما استطعنا تعويضه عندما حلت برودة الليل. وجعلتها نقطة للحديث مع كل أفراد القافلـــة فـــى كـــل يـــوم؛ وبالمصادفة ألتقط بعض المعلومات المثيرة.

ففى هذا اليوم تعلمت أن البدو لا يعرفون آثـــار حـــوافر إبلهـــم فحسب، وإنما يمكنهم – غالبًا – أن يقولوا ما إذا كانت الإبـــل التـــى

مرت فى هذا المكان أو ذاك تخص أفراد قبيلتهم أو لا، ويتعرفون على آثار إبل التبو فى الحال نظرًا لشكل خفها المميز والخطوات الواسعة التى تقطعها.

وإبل التبو أكثر بأسًا من إبل البدو، ويمكن استخدامها فى كل من الصحراء الشمالية فى "برقة" وفى الجنوب فى "السودان"، بينما يُغيِّر البدو إبلهم فى "الكفرة" عندما يبغون التوجه إلى الجنوب.

حينما كنت أسير مع سنوسى بوحسان "الدليل" أخبرنى بإحدى الخدع التى يستخدمها البدو عند رعى إبلهم وأغنامهم؛ فهم يحلبون الحيوانات فى الصباح ثم يضعون الحليب فى قرب يطمرونها فى الرمال حتى يحفظوها باردة، ونظرًا لأن لصوص الصحراء ماهرون ويستطيعون الوصول بسهولة إلى الموضع الذى تدفن فيه القرب؛ لذا فإن البدو الماكرين يدفنون قربتين واحدة أسفل الأخرى. وتُملأ السفلى بالحليب الطازج بينما تُملأ العليا باللبن الفاسد، وغالبًا ما يكتشف اللص القربة العليا ولا يبحث بعد ذلك أسفلها، وبذلك يجد مالك الإبل عندما يعود فى المساء حليبه آمنًا.

فى هذا اليوم قابلنا سربًا من الطيور الصغيرة يطير صوب الشمال، وبدا بعضها متعبًا، وأقبل بتلهف على الماء الذى قدمناه له، حتى إن أحدها حطَّ على يدى ليشرب غير مبالٍ بخطورة هذا الأمر.

وقد يرى المرء فى بعض الأحيان بالقرب من الآبار - التى قد يكون أفضل وصفٍ لها أنها حفر بها ماء - بعض الأجنحة والريش والعظام، التى تروى القصة الحزينة لهذه الطيور؛ فهى قد تكون من

الطيور المهاجرة التى مرت بهذه الآبار ومكثت بجوارها لبضعة أيام حتى تتعافى، وتكون هذه الآبار قد حفرت فى التو بواسطة قافلة عابرة، والماء متاحا بها بسهولة، والطيور ألفت هذه البقعة، وتدريجيًا تطمر الرمال المنجرفة الآبار، حتى لا تصبح هناك مياه أخرى بل بضع رقع من الرمال الرطبة فقط، وفى أحيان أخرى قد تصل الطيور إلى هناك مجهدة للغاية فلا تجد مياهًا ولا تستطيع الطيران نحو ١٠٠ أو ٢٠٠ ميل أخرى بحثًا عن بئر أخرى؛ لذا تبقى وتموت.

بحلول العاشرة والنصف صباحًا مررنا بمجموعة من الكثبان الرملية تدعى "الخويمات"، كانت تبعد نحو ثمانية أوعشرة كيلومترات على يسارنا، وهى تبدو – كما يشير اسمها – على شكل مجموعة من الخيام الصغيرة البيضاء. وفى الرابعة والنصف رأينا على يسارنا أيضًا على بعد نحو ثلاثين كيلومترًا علامة أرضية تُدعى "الفريق"، وهى عبارة عن أربعة تلال رملية تمتد فى صورة صف، وبحلول الساعة السادسة والربع مساءً، رأينا قمة علامة أرضية أخرى تُعرف باسم " المعزول" التى بدت مضببة على البعد صوب الجنوب الشرقى.

كنا جميعًا سعداء برؤية هذه العلامات الأرضية، والتى كانت مؤشرًا على تقدمنا فى الاتجاه الصحيح، ورغم أننا كنا على ثقة من أن معنا دليلاً ماهرًا، فإن الدليل الحقيقى – كما يقول البدو – "لا يُعرف إلا عند البئر"؛ أى فقط عندما يصل المرء إلى نهاية الرحلة، فعندها يصبح هناك يقين أن الطريق الذى سُلك هو الطريق الصحيح.

وقد برهن سنوسى بوحسان على أنه ثاقب البصر بدرجة تدعو للدهشة؛ ففى الصباح الباكر قبل استراحة التخييم أعلن أنه رأى

علامة " الخويمات " على الرغم من ضباب الصباح، وأننا كنا على بعد بضع ساعات قبل أن تستطيع أية عين أخرى فى القافلة رؤيتها.

بعد الظهر مررنا بهيكل عظمى لونه أبيض كان لجمل ممدد على الرمال، ومن الغريب أن يعد هذا الأمر شيئًا سارًّا فى الصحراء، لسببين: أولهما أنه مع رتابة المسافات غير المطروقة فإن أية إشارة إلى أن أحدًا قد مر من هذا الطريق تعد أمرًا مشجعًا، والثانية أن عظام الإبل من المألوف أن توجد بالقرب من الآبار؛ فالإبل على الأرجح تموت بالقرب من نهاية الرحلة؛ فعندما ينفد الماء فإنها تناضل حتى النهاية إلى أن يصبح الموت أقرب من الخطوة التالية.

ولا يحب البدو استخدام كلمة هيكل عظمى عند رؤيتهم لما يذكرهم بأن الموت قد مرَّ من هذا الطريق؛ لذا فإنهم يستعيضون عن هذه الكلمة القاسية بقولهم "غزال".

الخميس ٢٢ مارس: استيقظت فى الخامسة والنصف صباحًا، وشاهدت الشمس تشرق فى السادسة وسبع وعشرين دقيقة صباحًا، ودونت هذا الوقت فى يومياتى، بدأنا فى الثامنة صباحًا، وقطعنا نحو ٤٨ كيلومترًا فوق أرض منبسطة تمامًا تكسوها الرمال الخشنة والحصى، وكانت كثبان "المزوول" الرملية على يسارنا على بعد ما يقرب من خمسة وعشرين كيلومترًا، وبحلول فترة ما بعد الظهيرة تجاوزناها.

فى الصباح سمعت زروالى وعبد الله يناقشان أمر شدة تسطح هذه الأرض التى كنا نعبرها، ووجدت زروالى يقول " نعم إن وطننا مبارك"؛ فأجابه الرجل الذى من مصر " نعم، بالطبع، وأنا أؤمن أن

يوم الحساب سوف يكون هنا؛ فهو المكان الوحيد الذى قد يجده الله واسعًا وفارغًا بدرجة كافية ليحشد فيه عبيده".

كان أفراد التبو يجرون طولاً وعرضًا وأمام القافلة وعلى جانبيها، بحثًا عن روث الإبل من أجل الوقود؛ فهم يمضون حياتهم منفصلين قليلاً عن الأفراد الآخرين فى القافلة؛ لذا فهم يحبون أن يشعلوا نيرانهم الخاصة على مسافة قريبة من نار المخيم الرئيسية، وروث الإبل هو الوقود الوحيد المتاح فى هذه المنطقة، وأفراد التبو عداءون شديدو البأس، فقد يذهبون لما يقرب من خمسة أميال بعيدًا عن طريقهم ليجدوا هذه الخامة الثمينة، ولكن البدو كانوا يعترضون على سلوك أفراد التبو من الجرى والاستيلاء على كل الروث الموجود؛ إنها أحد قوانين الصحراء غير المرنة، التى تقضى بأن أى شىء يُعثر عليه فى الصحراء يخص أول من يضع يده عليه، ويحتكم أفراد التبو لهذه القاعدة فى تبرير موقفهم، بينما البدو فى المقابل يردون عليهم بقاعدة أخرى؛ إذ يقولون " أنتم ليس لديكم دليل يقودكم، كما أنكم لم تسمحوا لإبلكم بأن تتقدم القافلة، وحيث إنكم سوف تسيرون دون حاجة لاستخدام العصا، وتريدون منا أن نقود القافلة من أجل إبلكم، بينما تسبقوننا وتجمعون الروث، هذا الروث يخصنا لأنه من المفترض أن نصل إليه أولاً إذا ما ظللتم فى الخلف مع إبلكم حيث يُفترض أن تكونوا".

زاد الجدال حدةً، وفى النهاية حضروا إلىَّ لأحكم بينهم، وقد حكمت بأن البدو على حق، وأنه يجب على التبو ألا تكون لديهم نار بمفردهم وأن يكتفوا بنار المخيم، وفى المقابل يجب أن يمنحوا وجبة

ساخنة من التعيين العام فى كل ليلة، إلا أن التبو كانوا مختلفين تمامًا فى العديد من عاداتهم وتقاليدهم عن البدو؛ فهم غالبًا لا يستخدمون النار فى إعداد طعامهم، برغم أنهم - كما رأيت لا يرفضونها من أجل الراحة والبهجة - إذ إنهم يجففون اللحاء الداخلى لقمم النخيل فوق النار، ويصحنونه ويستخدمونه بعد ذلك فى إعداد نوع من العصيدة التى يدخل فى مكوناتها أيضًا البلح والجراد المطحونين، وهم لا يدعون أحدًا لمشاركتهم الطعام - بعكس البدو - ولا يمتعضون إذا لم يطلب منهم الآخرون مشاركتهم الطعام، والبدو ينتقدون بشدة النكوص عن واجب الضيافة، ولا يترك أفراد التبو شيئًا خلفهم على الطريق؛ لأنهم يؤمنون بخرافة مفادها أن كل من التقط شيئًا يخصهم سوف ينال منهم، إنهم نموذج مثالى للتناسق البدنى، والعمال المهرة، لكنهم بسطاء جدًّا فى نمط حياتهم وتفكيرهم، إلا أنه مع اختلاطهم أكثر وأكثر بالبدو تعلموا منهم بعض الأشياء.

فى هذا اليوم، مرض أحد الإبل، ووجدت بوحليجا يهبط من جمله ويسير إلى أن أصبح خلف الجمل المريض، ثم استدماه من ذيله، كنا نأمل أن يتعافى بعد ليلة راحة.

ونظرًا لأننا كنا واثقين من مؤننا من المياه فقد قررنا أن نشرب بعض الشاى؛ لذا تقدمت أنا وبوحليجا وزروالى وعبدالله ومعنا الدليل ليدلنا على الطريق الصحيح، وعندما أصبحنا بعيدين بمسافة كافية، أشعلنا النار سريعًا، وأعددنا الشاى، وعندما وصلت إلينا القافلة مرَّرنا أكواب الشاى على أفرادها عندما كانوا يمرون بنا، لذا لم تتوقف القافلة، وعندما مرَّ آخر جمل أطفأنا النار، وجمعنا أدواتنا، وأسرعنا

لنلحق بالقافلة المتهادية، كان بوحليجا علـــى جملـــه بينمـــا عبـــد الله وزروالى يمتطيان معًا أحد الهجن، أما أنا فكنت فوق صهوة الحصان "بركة"، ويجب أنه أقر أن هذا الحصان كان مفيدًا لى فـــى أغـــراض عدة؛ فبواسطته كنت أستطيع بسهولة إحضار الإبـــل مـــن نطاقـــات الرعى، والتى كانت تأبى تركها لتدخل "السريرة" من جديد، كما كنت أستطيع امتطاءه خلال توقفنا فى الواحات كى أزور أمـــاكن تثيرنـــى بينما أترك الإبل تستريح أو ترعى، كما مكننى من تقدم القافلة أو أن أظل خلفها لأسجل ملاحظاتى، وأن أجمع العينات بعيدًا عـــن أعـــين الرجال، وفوق صهوته كنت أستطيع اتخاذ مظهر جليل وأنـــا علـــى رأس قافلتى فى أثناء دخولنا الواحات أو خروجنا منها.

الجمعة ٢٣ مارس: قطعنا خلال هذا اليوم نحو ٣٦ كيلـــومترًا، ظلت الرياح تهب بشدة من اتجاه الشـــمال الشـــرقى طـــوال الليلـــة السابقة، بدأت بعد منتصف الليل بساعة واحدة، واســـتمرت طـــوال اليوم، وإن ازدادت حدتها خلال الفترة من الســـاعة الواحـــدة حتـــى الثالثة، وتوقفت فى المساء، كان الجو صافيًا والرؤية واضـــحة وإن أصبح غائمًا فى نهاية فترة ما بعد الظهر، وفى الساعة الخامسة بعد الظهر رأينا كثبانًا رملية تدعى " المزيل" تقع على بعد ٢٥ كيلومترًا فى اتجاه الجنوب الشرقى.

أصبح الرجال شغوفين بأن يستمروا فى السير يومًا كاملاً؛ لـــذا بذلوا كل ما فى وسعهم ليصبحوا على الطريق فى الثامنـــة صـــباحًا، عازمين على السير اثنتى عشرة ســـاعة متواصـــلة، لكـــن الجمـــل المريض حال دون ذلك؛ فعندما حان وقت الرحيل كان علينا مساعدته

للوقوف على قدميه، وعندها هز بوحليجا رأسه قائلاً " هـذا الجمـل سوف يصبح لحمًا يُؤكل قبل أن ينتهى اليوم"، وبعد ساعتين من ذلـك برك الجمل وأبَى أن ينهض، وخلال دقائق أصبح من اللازم أن يُذبح؛ لذا تركنا خلفنا ثلاثة رجال وجملين ليجلبا اللحم فيما بعـد، وقبـل أن نذهب بعيدًا وجدت بوحليجا يهرول نحونا فوق حصانه قـائلاً " إنـه جمل سمين دعنا نتوقف لفترة"، ولمعرفتى أن البدو يعشـقون اللحـم أوقفت القافلة، وأُشعلت النيران، وأُعدت الوليمة، وأكل كل فرد مـن اللحم إلا أنا وخادماى المصريان، وسألنى بوحليجا لماذا لم أشـاركهم الوليمة؟ فقلت لـه إننى لا أهتم بتناول لحم جمل مـريض. ووجدتـه يقول وهو يشير إلى بعض علب السردين التى كانت معنا " إنه أفضل من هذا السمك الصغير، لقد رأينا الجمل وهو يُذبح، ولكن من يـدرى ماذا حدث لهذا السمك الصغير منذ أن كان فى البحر".

ولحم الجمل الذى لم يُؤكل فى التو، جففه البـدو وقطعـوه إلـى شرائح رقيقة ليستخدموه فى تتبيل الأرز والعصيدة التى سوف تُطهى بعد ذلك.

بعد الظهر عندما عدنا للسير مرة أخـرى، قـال لـى سنوسـى بوحسان إننا إذا واصلنا السير حتى بزوغ القمر الوليد فسوف نصـبح قادرين على تناول غداءنا عند البئر فى اليوم التالى، ولكن عندما جاء المساء أخفت السحب نجم "الجدى" قبل أن يبزغ ذلك القمـر الوليـد، وكان علينا أن نتوقف ونخيم فى العاشرة والنصف مساءً، خوفًا مـن أن نضل طريقنا.

وفى هذا الجزء من الصحراء كان هناك القليـل الـذى يمكـن اكتشافه خارجيًا، ولكن الشىء العظيم الذى يمكن اكتشـافه هـو ذات

المرء، والتى يمكن فقط أن تستدعى للضوء وسط كل هـذا الصـمت والهدوء، والأمر سواء إن ذهب المرء إلى هذه الرحلة بنيَّـة العـودة للحضارة مرة ثانية بأسرع ما يمكنه، أو عاش هنا واستمتع بكل لحظة منها.

وعندما كانت الشمس تميل فى الأفق، رأيـت زروالـى يجلـس بمفرده ويرسم بإصبعه بعض الخطوط على الرمال، ثم يتأملها، كـان يمارس "اليازرجا" أو "علم الرمل"، والذى يسـتخدمه البـدو لمعرفـة طالعهم، وفى اللحظات التى كان يدير فيها بصـره عـن الخطـوط المرسومة على الرمال، كان يتطلع متأملاً فـى الألـوان المتوهجـة لغروب الشمس؛ فالبدو بطبعهم يقدرون الجَمَال، ويُجِلُّـون الطبيعـة؛ فكيف لا يفعل هو ذلك؟!

يومًا بعد الآخر كانت الأجواء التـى نعبرهـا تكـاد أن تكـون متطابقة، حتى إن الصور التى التقطتها خلال هذه الأيام السبعة تبـدو كما لو أنها أخذت للمخيم ذاته ولكن من زوايا مختلفة؛ لذا فإن تواصل الامتدادات الشاسعة من الرمال القاحلة النائية التى لا يميزهـا شـىء عدا هيكل عظمى لإحدى الإبل أو بضع حصوات فى حجم الجـوز؛ كانت تدفع المرء للسكينة؛ فلم يكن هناك شىء يشغل عقل المـرء أو يقطع تأمله.

فيا لها من صورة ساحرة تملكها تلك الصحراء النائية! ويا له من تأثير مطهر لعقل المرء وجسده! وكيف لهذه اللمسة المتواصـلة مـن اللاتناهى - يومًا بعد يومٍ وليلاً بعد ليلٍ - أن تؤثر فى العقل والروح، وتغير مفهوم المرء للحياة؟! وكيف يبدو سعى المرء صغيرًا وتافهًـا

فى محيط الحضارة العادية؟ وكيف تبدو جهوده ضئيلة أمام تلك الصحراء؟!

السبت ٢٤ مارس: فى الخامسة والنصف صباحًا، استيقظنا مجهدين؛ فقد أوينا إلى مضاجعنا فى الثانية بعد منتصف الليل. ظل الجو صحوًا وصافيًا طوال النهار، مع وجود نسمة رقيقة هبَّت من الشمال الشرقى فى الصباح، وتوقفت فى منتصف النهار، تاركةً لنا حرارة الجو المرتفعة، وفى العاشرة والنصف مساءً هبَّت رياح شمالية شرقية قوية من جديد.

فى التاسعة والنصف صباحًا بدأت البيئة تتغير قليلاً؛ فالرمال أصبحت أنعم والأرض أقل تموجًا، وفى العاشرة مررنا برقع من الصخور السوداء المهشمة، التى استمرت طوال اليوم. وفى المساء رأينا على يميننا حطب وادى "الزيغن"، وفى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة توقفنا من أجل وجبة ساخنة، واسترحنا بالقرب من أول حطب وصلنا إليه. كانت مؤننا من الوقود قد نفدت فى اليوم السابق، ولم يكن لدينا شىء ساخن لنأكله أو نشربه منذ صباح اليوم الذى قبله، وفى الخامسة والربع مساءً رأينا كثبانًا رملية فى اتجاه الجنوب الشرقى على بعد نحو ٤٠ كيلومترًا تقريبًا، كانت تلك الكثبان تمتد باتجاه الجنوب فى خط يتجه صوب وادى "الزيغن"، وبحلول الثامنة والنصف مساءً بدأت أجمة الحطب فى الازدياد عددًا وامتدادًا.

عندما بدأنا فى الصباح كان أملنا أن نصل إلى بئر "زيغن" فى هذا اليوم، وبعد ذلك ثار جدل حول عدم وصولنا إليها حتى الآن؟!

وألمح بوحليجا إلى أنه ما من شك أن الدليل مال كثيرًا صوب الغرب، وإلا لكنا قد وصلنا إلى البئر قبل ذلك، بينما جاء زروالى، الذى اختار بوحسان ليصبح دليلنا، فى صف الدليل، وقال إننا لم نصل لأننا فقدنا وقتًا كثيرًا فى ذبح الجمل وإعداد الوليمة التى أقيمت فى اليوم السابق، أما حامد فقد كان لديه تفسير آخر؛ إذ قال " إن الإبل لا تُقاد طوال الوقت؛ فالمرء ينام ويستيقظ، والإبل لاتزال على مرمى البصر (فقد كان من عادة الرجال أن يتخلفوا عن الركب من أجل غفوة لمدة نصف ساعة تقريبًا، وتساعدهم سرعة الإبل البطيئة والآثار التى تخلفها فى الرمال على أن يلحقوا بالقافلة بسهولة عندما يستيقظون) لذا قد تكون هى السبب".

وعندما توقفنا لنشعل النار ونتناول أول وجبة ساخنة منذ ثلاثين ساعة، تذكرت أن هذا الموضع هو بالضبط الذى ضللنا فيه طريقنا فى الرحلة السابقة إلى "الكفرة " عام ١٩٢١، وبعد تناول الطعام تركنا داوود عم زروالى مع جمله الوحيد ليذهب إلى واحة " تايزربو"، التى تقع إلى الغرب من " زيغن" على مسافة يوم سفر، كان يعتزم الذهاب إلى هناك ليحضر زوجته وابنته، ويتوجه بهما إلى "برقة" حيث توجد هناك فرصة أكبر للعمل، وقد وافق زروالى على أن يساعده فى تدبير شئونه فى هذا الإقليم، ولابد من أن الأمر كان يتطلب إرادة قوية من ذلك الكهل حتى يقطع هذه الرحلة الطويلة إلى الشمال بصحبة امرأتين وجمل واحد فقط، وقد سألته كيف سيستطيع تدبير هذا الأمر؟! فأخبرنى أنهم فى اليوم الأول سوف يسيرون جميعًا، وفى اليوم الثانى، ونظرًا لأن وزن الماء فوق ظهر الجمل

سوف يصبح أقل، فسوف تركب ابنته أخفهم وزنًا، وفى اليوم الثالث زوجته، وعندما سألته ولكن افرض أن جملك أصابه مكروه؟ فأجابنى بهدوء " الحماية تأتى من عند الله"، أعطيته أرزًا، ومكرونة، وشايًا، وسكرًا، وبعدها قرأنا الفاتحة، ورحل عنا وهو سعيد للغاية.

سُرَّ البدو بالوليمة الكبيرة التى أعدت من الأرز ولحم الجمل وذهبوا إلى مضاجعهم فى رضا بالغ. وكانت بالفعل ليلة جميلة؛ لذا تركت خيمتى، وأمضيت بعض اللحظات الهادئة تحت القمر الذهبى، والنجوم الشاحب بريقها، وسكونها المبهج، وصحبتها المشجعة، الذين أعادونى إلى فراشى – كما هى العادة – مع أمل جديد وثقة كبيرة.

وهذا ما دونته فى مفكرتى عن اليوم التالى:

الأحد ٢٥ مارس: بدأنا فى السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهرًا، قطعنا خلالها ٢٤ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ١٤درجة مئوية، تعرضنا لرياح شمالية شرقية استمرت طوال الليلة السابقة وحتى الرابعة والنصف من صباح هذا اليوم، ظل الجو ملبدًا بالغيوم طوال الصباح واحتجبت الشمس خلفها، وبحلول منتصف اليوم سقطت بعض زخات من المطر، ليصبح الجو صافيًا بعد الظهر، امتد طريقنا وسط أجمة صغيرة من الحطب الجاف، التى بدأت تزداد تدريجيًا فى الارتفاع من بضع بوصات إلى ما يقرب من ثمانية أقدام كلما اقتربنا من البئر.

كانت تفصل روابى الحطب تلك نطاقات رِملية تتناثر فوقها قطع من الصخور السوداء المهشمة، وتدريجيًا بدأت الرمال تصبح أنعم، إلى أن أصبحت رطبة على بعد بضع بوصات من السطح.

وفى التاسعة والربع رأينا على بعد نحو ٣ كيلومترات صوب الشمال الغربى كثبان " الواشكا" الرملية، وهو عبارة عن بئر صغير من مجموعة آبار " زيغن"، وفى التاسعة والنصف مررنا على يسارنا "بماتان بوحوح" وهو بئر "زيغن" القديم، وخيمنا بجوار بضع أشجار النخيل التى تحيا على مياه بئر " الهراش " التى تعد أفضل آبار المجموعة.

والبئر فى الصحراءِ ليست هى تلك البئر التى نجدها فى أماكن أخرى من العالم؛ حيث تُحفر بإتقان ويشيد حول فوهتها بناء حجرى مع وجود دلو ورافعة أو مضخة؛ ففى هذا الجزء من الصحراء البئر عبارة عن بقعة صغيرة يكون الماء فيها قريبًا من السطح، ويمكن الوصول إليه بسهولة عن طريق الحفر، وفى الفترة التى تفصل بين زيارة القوافل تطمر الرمال المنجرفة المكان وتسد ذلك الثقب المائى الذى يكشفه البدو بأيديهم، ليجدوا الماء على عمق ثلاثة أو أربعة أقدام.

عندما تكون الرحلة التى تقطعها القافلة طويلة، فأول شىء يجب التفكير فيه هو الإبل، وبعد أن تُسقى وتهضم طعامها جيدًا، يعد الاغتسال أحد أهم عناصر البرنامج، وإذا كان الماء قليلاً فعلى الملابس أن تنتظر حتى الوصول إلى البئر التالى؛ لأن المخزون المائى للقافلة يجب أن يُوضع فى الاعتبار.

وبمجرد أن يرتاح الرجال تُملأ قرب المياه وتُترك طوال الليل، وفى صباح اليوم التالى يتوجه رجلان أو ثلاثة إليها مبكرًا ليروا أيًا من هذه القرب تسرب الماء الذى بها، وإذا كان من الممكن معرفة سبب هذا التسرب، كما يقومون أيضًا بفرز القرب الجيدة من السيئة، لأنه فى الرحلة يجب أن تؤخذ المياه فى اليوم الأول أو الثانى من تلك التى تسرب أو غير الموثوق بها.

ودائمًا ما تعد الليلة الأولى عند البئر – مهما تكن القافلة متعبة – فرصة للابتهاج البالغ والرقص والغناء. وقبل الوصول إلى البئر فإن تصور المرء للراحة هو التوقف عن السير ما لا يقل عن أربعة أو خمسة أيام والكثير من الماء لتعويض الحرمان السابق، وينشغل الذهن بالفكرة السارة لوجود ماء يبلل المرء به نفسه، لكن اللافت للنظر أنه بعد يوم واحد من الراحة فإن حمى مواصلة السير سرعان ما تتملك المرء مرة أخرى، ليترك بشغف رفاهية الوفرة لصالح حرمان الطريق، ولا يعنى الأمر شيئًا إذا ما كانت نقطة التوقف تلك بئرًا كبيرة محاطة بواحة خصبة مليئة بسبل الرفاهية؛ فالمرء يعود بتلهف للقناعة بالسير لما يربو على اثنتى عشرة ساعة، والحياة فقط على التمر الجاف.

عندما تكشط البئر فإنها تكون فى مساحة منضدة الشاى الصغيرة التى تتسع لشخصين، وتجعل الرمال الرطبة جدرانها تتماسك، وعادة ما تترك لفترة وجيزة حتى يتم ترسيب ما بها من رمال، ورغم ذلك يظل بالماء الكثير من الرمال التى تكون تصفيتها مزعجة، حتى إننى لم أشرب ولو لمرة واحدة كوبًا من الماء دون أن يكون معكرًا، ولم

أستطع ولو لمرة واحدة أن أرى قاع كوبى خلال شربى منه؛ فــالفلتر الذى قال لى أحد أصدقائى بأننى يجب أن آخذه معى، لــم أســتخدمه مطلقًا حتى وصلنا إلى السودان، وهناك كان المــاء ســيئًا بالفعــل؛ وعندما حاولنا فى هذا الوقت أن نجعل هذا الفلتر الشهير يعمل وجدنا أنه لا يوجد به الحلقة المطاطية لإحكام وصله، وكانت هذه هى نهاية قصة هذا الفلتر.

والتراب فى الصحراء – وهو أمر قد يكون من الضــرورى أن نشير إليه – مختلف تمامًا عن التراب فى أى مكان آخر؛ إذ إنه ليس ملوثًا؛ لأن الرمال شىء نظيف، وملابس البدو تترك فى الهواء. أمــا الحشرات فهى أمر لابد منه، ولا يلقى البدو إليها بالاً؛ فربما أكون قد أخذت حمامى للتو، وجلست لأشرب كوبًا من الشاى مع رجــالى... حسنًا، أنت مضطر للتعايش مع هذه الأشياء.

الفصل الثانى عشر

الصحراء المتغيرة وتصويب الخرائط

«الاثنين ٢٦ مارس: عند بئر الفاشر إحدى آبار مجموعة زيغن. بلغت درجة الحرارة القصوى ٢٧ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٦ درجات مئوية، كان الجو صحوًا وصافيًا مع هبوب رياح شمالية شرقية، تطورت بحلول الساعة الحادية عشرة إلى عاصفة رملية، استمرت حتى السادسة والنصف مساءً، ولم تهدأ الرياح إلا بعد ساعتين من هذا الوقت».

كان لزامًا أن يكون توقفنا عند "زيغن" لمدة ليلة واحدة، إلا أن العواصف الرملية العاتية فرضت علينا أن نمكث يومًا آخر، و"زيغن" تحديدًا هى مجموعة من أربع آبار، اثنتان منها هما اللتان مررنا بهما يوم الأحد، ثم بئر" الهرَّاش" التى كنا نخيم بجوارها، والأخرى هى بئر " بوزيراج " التى تبعد نحو ٢٠ كيلومترًا فى اتجاه الشرق.

فى أثناء اليوم تحدث بوحليجا مع عبدالله عن قدومى للصحراء قائلاً " أنتم جريئون أيها المصريون، فأن يحضر البيه مرتين إلى أرضنا، التى لم يزرها أى غريب من قبل، فتلك جراءة. لماذا جاء إلى هنا تاركًا كل خيرات الله التى توجد هناك فى مصر، إن لم يكن

من أجل غاية سرية؟ لقد جاء إلى أرضنا المجهولة لكى يقيسها ويعد خرائط لها، ويا الله! ليست مرة واحدة بل مرتين!".

حتى صديقى الحميم بوحليجا كان مرتابًا فى نوايا قدومى إلى وطنه.

واكتشفت فى النهاية السر وراء عداء أولئك الذين يعيشون فى الصحراء تجاه الأفراد القادمين من العالم الخارجى؛ فالأمر ليس تعصبًا دينيًّا، أو تحيزًا قبليًّا بل إنه تحديدًا غريزة حماية الذات؛ لأنه إذا ما توغل غريب واحد إلى داخل "الكفرة"، ذلك المركز العزيز على حياة قبيلتهم، فإن الأمر سوف يكون كقول البدو " إن أنف الناقة أصبح داخل حاشية الخيمة"، أى أن بعده سوف يأتى آخرون، والمحصلة النهائية قد تصبح هيمنة أجنبية، وهو ما يعنى فقدانهم لاستقلالهم وسدادهم للضرائب، ومن الصعب لومهم لأنهم يخشون هذه النتائج.

* * *

والتغيرات التى يحدثها الزمن فى الصحراء - والتى اعتدنا أن نظن أنها لا تتغير أبدًا - مثيرة للغاية؛ فعندما مرَّ رولفس بالجانب الغربى من "زيغن" وهو فى طريقه إلى "الكفرة" عام ١٨٧٩، روى عن وجود امتدادات واسعة من النباتات الخضراء، أما الآن فلا يوجد مثل هذه الخضرة، بل يوجد تحديدًا مقدار ضخم من الحطب الجاف، وعلى الرغم من أن رواية رولفس قد أكدها بوحليجا، الذى قال إنه عندما كان طفلاً اعتاد والده أن يأخذه إلى "الكفرة" عندما كان يذهب ليحضر التمر؛ لأن البدو يعتقدون أن مياه "شيكهيرا" - مركز

قبيلة زوىّ بالقرب من "جالو" – سيئة على الأطفال في الصيف، وكانت الرحلة فى هذه الأيام تقطع فى ثلاثة أيام وخمس ليالٍ دون توقف، وكانوا لا يُطعمون الإبل سوى وجبة واحدة بين "جالو" و"زيغن"، وعندما يصلون إلى المكان الأخير، كانت الحيوانات تطعم على العشب الأخضر الذى كان ينمو هناك آنذاك، إلا أن ما كان يبدو خطأً فى رواية رولفس هو وصفه لكثرة الخضرة عند "زيغن"، وهو ما يعد برهانًا على نتيجة اختلاف الظروف بعد خمسة وأربعين عامًا. ومن المحتمل أن يكون سبب التغيير هو نقص الماء فى التربة، وهو الذى أحال الشجيرات الحية إلى حطب جاف.

كانت رحلتنا من "بوطفل" إلى "زيغن" نموذجًا لغدر الصحراء؛ فعلى الرغم من كل الاحتياطات التى استطعنا التفكير فيها، فإن وقودنا قد نفد وقودنا، ونفق أحد إبلنا، وأصاب الإجهاد جملين آخرين حتى أوشكا على السقوط، ونفد طعام الإبل أيضًا، حتى إنها كانت تقتات فى المسافة من "زيغن" إلى "الكفرة" على سعف النخيل – الذى تم جمعه من مكان سابق – وكان طعامًا رديئًا بالفعل.

وفى هذه الفترة سمعت من أحد البدو مثلاً يحمل قدرًا من السخرية، مفاده "إن الحياة مثل الناقة، يومًا تعطيك لبنها ويومًا آخر تخذلك".

فى الليلة الثانية لنا عند "زيغن" رصدت النجم القطبى بالثيودوليت، وعندما راجعت ما رصدته وجدت أن "زيغن" كانت تبعد نحو ١٠٠ كيلومتر فى اتجاه شرق الشمال الشرقى عن الموضع الذى حدده رولفس، وتفسير ذلك أنه لم يزر المكان وإنما اعتمد على ما

أخبره به البدو؛ لذا لم يستطع رصد موضعها بدقة،كما وجدت أيضًا أن "زيغن" كانت تقع على ارتفاع ٣١٠ متر فوق مستوى سطح البحر.

الثلاثاء ٢٧ مارس: بدأنا فى الثامنة والربع صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ما يربو على سبعة وأربعين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٢٦ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٨ درجات مئوية، ظل الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح شمالية شرقية باردة طوال النهار والليل مع وجود بعض السحب البيضاء. عند بئر " الهرّاش"، حدد الدليل وجهتنا صوب "الكفرة" بنحو ٥ درجات من اتجاه جنوب الجنوب الشرقى، سرنا لمدة ساعتين وسط حطب يمتد لنحو ١٠ كيلومترات جنوب شرق البئر، ثم دخلنا نطاقًا من الرمال الناعمة قليلة التموج، وبدأ هذا التموج يزداد تدريجيًا إلى أن دخلنا نطاقًا من الكثبان الرملية بعد الظهر.

فى الساعة الثانية والنصف رأينا سلسلة من الكثبان الرملية صوب الشرق، مع وجود بعض الصخور السوداء " الجارات " أو التلال الصغيرة التى كانت تفصل بينها، وكانت تبعد عنا بنحو ٢٠ أو ٣٠ كيلومترًا، وتتفرع صوب الشمال الشرقى بقدر ما نستطيع رؤيته، ثم تلا ذلك الغرود – كثبان رملية – وكانت تمتد فى اتجاه الجنوب الغربى أيضًا. وفى الخامسة والنصف قطعت علينا تلك الغرود طريقنا، وحتمت علينا أن ندخلها، إلا أنها لم تكن عالية أو عسيرة الاجتياز لحسن الحظ.

أثّر فيَّ من جديد ذلك الانفصال الكامل بين البدو والتبو في أثناء السير؛ فقد كان السود يقولون إنهم لا يحبون الزويّ ويخشونهم، كما لاحظت أن سلوك إبل التبو كان أفضل وأكثر التزامًا من تلك التي مع البدو؛ فقد كان لكل جمل من جمال التبو حبل للقيادة، ولم تكن تجرى على سجيتها كما تفعل إبل البدو.

بعد الظهر مررنا بعلم "جبل الفضيل"، ومثل معظم أعلام الصحراء فإن اسمه يعد ذكرى لاسم أحد الأفراد الذين فقدوا حياتهم في هذه المنطقة.

فالفضيل كان أحد أفضل أدلاء الصحراء، وكان يقود قافلة من "جالو" متوجهًا بها إلى "الكفرة"، وهبّت عليهم عاصفة رملية شديدة جدًّا، وعلى الرغم من أنه لا يوجد دليل صريح على ما حدث، فإن الشواهد التي عُثر عليها في النهاية روت القصة بطريقة أخرى، فعينا الفضيل لابد من أن تكونا قد تأثرتا بشدة من الرمال العاتية، فربطهما بضمادات حرمته الإبصار، وفرضت على من معه أن يصفوا له الأعلام التي يمرون بها، وعلى الرغم من ذلك ضلت القافلة عن آبار "زيغن"، وحاولوا أن يناضلوا للتوجه مباشرة إلى "الكفرة"، إلا أن الصحراء تلقتهم بقبضتها التي لا ترحم، ولم ينجُ من القافلة بأسرها سوى جمل واحد؛ حيث ناضل ذلك الحيوان ليعود إلى دياره في "الكفرة"، تقوده غريزته التي لا تُخطئ، وهناك تعرفوا عليه من خلال علامة في عنقه وعرفوا أنه يخص الفضيل؛ لذا شرع المنقذون في تتبع آثار أقدام الجمل عائدين إلى الصحراء، إلا أن مساعدتهم جاءت متأخرة جدًّا، فقد كانت جثث الرجال ممددة على الرمال بالقرب من

العلم الذى يعرف الآن باسم "الفضيل"، وقد باحت الضمادات التى كانت فوق عينى الدليل العجوز بالقصة المأساوية.

الأربعاء ٢٨ مارس: كانت هناك سحب كثيفة طوال اليوم وبزغت الشمس قليلاً، كما كان الجو غائمًا أيضًا فى المساء، تطورت الرياح الشمالية الشرقية الباردة إلى عاصفة رملية امتدت لنحو ثلاث ساعات ونصف، واستمرت الرياح الباردة فى المساء، وفى العاشرة والنصف مساءً سقطت بعض قطرات من المطر.

ظللنا نسير وسط الكثبان الرملية لمدة ساعتين، وبعدها دخلنا أرضًا متموجة تغطيها صخور سوداء محطمة، كان التقدم عسيرًا على الإبل، وبعد ساعة من ذلك انتهى نطاق الصخور السوداء، ودخلنا من جديد نطاقًا من الكثبان الرملية.

وبحلول الحادية عشرة والنصف ظهرًا أصبحت سلسلة تلال "حوايش" على يسارنا والكثبان الرملية والصخور السوداء "الجارات" على يميننا، وفى الثانية عشرة والربع مررنا على يسارنا – على بعد أربعة كيلومترات – بعلم "غور المخزان"، وهو عبارة عن تلال من الصخور السوداء يتراوح ارتفاعها بين ٥٠ و١٥٠ مترًا، وفى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة مررنا بعلم " الجارة وابنتها"، وهو عبارة عن تلّين مخروطى الشكل، يتناسبان مع الاسم الذى أطلق عليهما.

فى هذا اليوم تحدثت مع بعض البدو عن أننا ضللنا طريقنا فى هذه المنطقة عام ١٩٢١، ولم يبدُ على أى منهم اندهاش؛ فهذا الأمر بالنسبة لقاطنى الصحراء جزء من حياتهم اليومية، أن يفقد المرء طريقه، أو إحدى إبله، أو ينفد ماؤه، أو مؤنه.

الخميس ٢٩ مارس: لم يتم تسجيل درجة الحرارة الصغرى فى هذا اليوم؛ نظرًا لتحطم الترمومتر الخاص بقياس درجة الحرارة الدنيا خلال العاصفة.

ظلت تلال "حوايش" تمتد على يسارنا حتى وقت الظهيرة. وفى الساعة الحادية عشرة والنصف دخلنا نطاقًا من الكثبان الرملية الناعمة شديدة التموج، وكان عبورها صعبًا على الإبل والرجال، وفى الواحدة والنصف مررنا بجارة الشريف التى كانت توجد إلى اليمين منا، وهو أكبر علم رأيناه على الإطلاق؛ إذ كان عبارة عن جارة على شكل سلسلة يبلغ طولها نحو ١٥٠ مترًا وارتفاعها نحو ١٠٠ متر، بالإضافة إلى ثلاث جارات أصغر بجانبها: اثنتان إلى الجنوب وواحدة إلى الشمال، وبحلول الساعة الثالثة دخلنا مرة أخرى نطاقًا كثيفًا من الكثبان الرملية، وبعد ساعتين من ذلك مررنا بمنطقة منبسطة ذات رمال أكثر خشونة تتخللها رقع من الصخور السوداء.

فى الثالثة والنصف صباحًا قد بدأنا نواجه أسوأ عاصفة رملية تعرضنا لها؛ فقد انتزعت الخيام من أوتادها، وأهيلت خيمتى فوق رأسى؛ فحطمت بعض أدواتى، ومن أهمها الكرانومتر الصغير الذى كان معى. وأصبحت مهددًا بالاختناق نتيجة لانهيار الخيمة فوقى وازدياد وزنها نتيجة للازدياد المضطرد للرمال المتراكمة فوقها، إلا أننى – لحسن الحظ – استطعت الإمساك بأحد أوتاد الخيمة، ورفعت به قماش الخيمة من فوق وجهى، وحاول بعض الرجال أن يهبوا لمساعدتى، لكننى صرخت فيهم أن يضعوا أكياس الدقيق وبعض الحقائب فوق خيامهم وخيمتى حتى يحفظوها راسخة، ومكثت فى

وضعى غير المريح هذا – تحت الخيمة – لمدة ساعتين أو ما يقـرب من ذلك، وكانت الرمال المندفعة بقوة من الثغرات التى فــى الخيمــة أشبه بطلقات الرصاص، وقد عانت الإبل والرجال بشــدة، ولــو أن سارى خيمتى انحرف جزءًا من البوصة عند سقوطه لكان قد حطــم الكرانومتر الكبير الذى معى وعندها تُرى أى اختلاف كـــان سـوف يحل بالنتائج العلمية لبعثتى؟!

فبالنسبة للعالم فإن عمل المستكشف إما أنه نجح وإما أنه فشــل، وهناك خط جلى يفصل بينهما. أما لدى المستكشف ذاته فإن هذا الخط مضبب للغاية، فقد ينجح خلال رحلته فى الوصول إلــى مــا يريــد، ويكدس كل المعلومات التى ينشدها، ويصبح على بعد بضعة أميــال من نهاية الرحلة، وعندها، فجأة، ينهار جمله، ويصبح لزامًا عليه أن يتخلى عن الجزء الأثير من حقائبه؛ فالماء والطعام لهمــا الأولويــة دائمًا، ويصبح عليه أن يترك خلفه الصناديق التى تحتوى على أدواته العلمية وتسجيلاته، وقد يكون حاله أكثر سوءًا، ويضحى بكل شـــىء، وربما بحياته، وبالنسبة للعالم الخارجى فإن ما حدث يعد فشلاً، والنقاد الكرماء قد يدعونه الفشل المجيد، ولكنه على أية حال فشــل. ولكــن تُرى إلى أى مدى كان هذا الفاشل قريبًا من النجـــاح؟ ففـــى بعــض الأحيان فى هذه الرحلات الطويلة قد يكون الشخص الذى فشــل قــد فعل أكثر، وتحمل مشقة أكثر من الرجل الــذى نجــح، ويتعـــاطف المستكشف أكثر مع ذلك الرجل الذى ناضل وفشل مقارنة بذلك الذى نجح؛ لأن المستكشف وحده هو الذى يعلم كيف أن الرجل الذى فشــل قاتل كى يحافظ على ثمار عمله.

والبدو يدركون هذا؛ فهناك ميزة فى شخصـيتهم تفاجئـك بـل تدهشك فى بعض الأحيان، حتى أصبحت متفهمًا لها، فلا يوجد مـرح أو ابتهاج عندما ينتهى يوم السير إلى مقصده، كأنهم يقولون "اليوم قد وصلنا، ولكن من يدرى غدًا؟! فنجاحك اليوم أمر لا يدعو للتفـاخر"، إنها ليست مهارتك. إنه القدر؛ فربما تبدأ غدًا رحلة أسـهل وتفشـل فشلاً ذريعًا؛ ففى رحلتى الأولى الطويلة فى الصحراء الليبيـة عـام ١٩٢١، فى المسافة الممتدة بين واحة "بوزيما" وهى إحدى واحـات مجموعة "الكفرة"، وواحة "الكفرة" ذاتها، واللتان يفصل بينهمـا نحـو ثلاثة أيام سفر، مررنا ببقايا قافلة هالكة، وكانت هناك يـد لا تـزال بارزة من الرمال، وقد أصبح جلدها أصفر مثـل رق المخطوطـات، وبينما كنا نمر، توجه إليها أحد الرجال فى توقير وأخفاها بالرمـال؛ ورغم أن الرحلة مدتها ثلاثة أيام، فقد ضل هؤلاء الرجـال طـريقهم وماتوا من العطش!.

وهناك الكثير من القصص المأساوية التى تحكى عن هلاك قوافل كانت على مرمى البصر من إحدى الآبار. وبدلاً من أن يردعهم ذلك عن أن يسلكوا الطريق ذاته، فإن البدو يقولون فقط إن الله – سـبحانه وتعالى – هو الذى كتب عليهم أن يموتوا على هذا الطريق، حتى إن أحد البدو قال لى يومًا "إن أمعاء الطيور أفضل من ظلام القبور"؛ أى أنه يفضل أن تأكله النسور على أن يواريه الثرى.

كان يومًا شاقًا للغاية، نظرًا لصعوبة التقدم عبر الكثبان الرمليـة الناعمة، ورغم هذا فقد كان الرجال سعداء؛ لأننا أصبحنا قريبين مـن "الكفرة"، كما حفزهم على السير الأنباء عن أن بوحليجا – الذى يقـيم

فى "الهوارى"، أول موضع للتوقف عند أطراف "الكفــرة" – ســوف يذبح خروفًا، ويعد وليمة لنا.

كانت الإبل ضعيفة ونحيلة، إلا أن ثلاثًا منها كانت ديارها فــى "الكفرة" قادت الطريق طوال اليوم دون أى توجيه على الــرغم مــن صعوبة السير بين الكثبان الرملية.

وبحلول الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقــة رأينــا جــارة "الهوارية"، ذلك العلم الضخم الذى يشــير إلــى الاقتــراب مــن "الكفرة".

الجمعة ٣٠ مارس: بدأنا فى السابعة وخمس وأربعــين دقيقــة صباحًا، وتوقفنا فى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، قطعنــا خلال هذه الفترة نحو ٣٥ كيلومترًا لنصل إلــى "الهــوارى"، وفــى المساء سقطت بضع قطرات من المطــر. كانــت الأرض منبســطة، ورمالها ناعمة يتخللها نطاقات من الصخور الحمــراء والســوداء، وبحلول الساعة التاسعة والنصف دخلنا نطــاق الرمــال الحمــراء الخاصة " بالكفرة"، بينما كنا نمر طوال اليوم بقطع مــن الأخشــاب المتحجرة، وفى الساعة الواحــدة والربــع ظهــرًا عبرنــا جــارة " الهوارية"، وفى الساعة الثالثــة والنصــف رأينــا أشــجار نخيــل "الهوارى"، وبعد ساعة ونصف الساعة من ذلــك دخلنــا الواحــة، وسرعان ما خيمنا فى "عوادل".

وصلنا إلى أولى نقاط "الكفرة"، ذلك الاسم الذى أطلق فى وقــت رولفس على أربع واحات تنفصل عن بعضها على نحو مــا، وهــى

"تازربو"، و"بزيمة"، و"ربيانة"، و"كيبابو"، ولكن في الوقت الحالي تُسمى بالأسماء السابق ذكرها.

وتقع "الهوارى" في أقصى شمال "الكفرة" الحالية، وهي واحة صغيرة نسبيًّا، تتكون من ثلاث قرى هي "هوارى" و"هواويرا"، و"عوادل" وعلى بعد سبعة عشر كيلومترًا جنوبًا توجد "التاج" حيث الحكومة المحلية والمنطقة العمرانية الرئيسية، وهي تقع على جرف صخرى يطل على منخفض الواحة، التي تقع في الجنوب، وتحتوى على قرى: "جوف"، و"بويما"، و"الزروك"، و"التلاليب"، و"الطولاب".

كنت قد عزمت على التوجه في اليوم التالي مباشرة إلى "التاج" البلدة الرئيسية في "الكفرة"، إلا أن بوحليجا طالبني بحق الضيافة، وأصر على أنني يجب أن أتوقف يومًا في الواحة حيث موطنه، وبعد ليلة جيدة من الراحة التي لم تزعجها عواصف رملية أو خيام منهارة، وبعد الحلاقة، كنت في أتم الاستعداد أن أوفي طعام الإفطار حقه، والذي أرسله لنا بدو قافلة وصلت للتو من "واداي". وفي هذه الأثناء كنت قد جمعت بعض المعلومات المثيرة التي جعلتني أفكر في تغيير خططي. كما أرسلت رسولاً إلى "التاج" ومعه خطاب إلى سيد العبيد ابن عم السيد إدريس ورئيس السنوسية في "الكفرة"، وإلى جداوى الوكيل الشخصي للسيد إدريس أنبئهما باقتراب وصولي.

بعد الظهر رافقني زروالي إلى "الهوارى" حيث استقبلني في الزاوية الإخوان ووجهاء البلدة، وبعد كلمات الترحيب المعتادة، وتبادل المجاملات، ذهبنا لتناول طعام الغداء في دار عم زروالي، وتظاهر زعماء البدو بأنه ما كان عليَّ أن أحضر مباشرة إلى

"الهوارى"، بل كان يجب أن أخيم خارجًا لأمنحهم الفرصة للأستعداد لمراسم الاستقبال. وعلى ما يبدو أنهم سمعوا عن استقبالى فى "جالو"، وكانوا يرغبون فى فعل شيء مثله لى هنا.

سمعت إشاعات عن تآمر بعض زعماء الزوىّ علىّ؛ فقد كانوا يرتابون فى غرض حضورى للمرة الثانية إلى "الكفرة"، وكنوع من الاحتجاج رفضوا الحضور للمشاركة فى الغداء، كانوا ذوى نفوذ، وسلوكهم هذا جعلنى عازمًا على التعجيل فى الذهاب إلى "التاج" قبل أن يستطيعوا إرسال كلمة قد تسبقنى وتضر بوصولى.

بعد الطعام امتطيت عائدًا إلى الديار عبر الضوء الجميل للقمر، وعندما وصلت وجدت مهمة شاقة تنتظرنى؛ فقد كان "عجيلة" – أكبر أبناء بوحليجا – قد لدغه عقرب، وإيمانًا فى صندوق أدويتى، أكثر مما كنت أثق فيه أنا نفسى، طلب بوحليجا منى أن أعالجه، أخذت الترياق المضاد للدغة العقرب، وذهبت إلى المنزل، حيث وجدت الصبى مريضًا جدًّا، يحترق من الحمى.

وفى اللحظة الأخيرة قبل أن أترك القاهرة، أُدرج هذا الترياق ضمن مؤنى، وشرح لى أحد الأطباء من أصدقائى بينما كان يصافحنى وأنا أودع البشر التى كانت تحيطنى – ربما بصورة أكثر استرشادية – كيف يستخدم هذا الترياق. وكانت المرة الأولى لى على الإطلاق التى أحاول فيها استخدام هذا النوع من الحقن، وحاولت أن أستحضر المشهد وأستعيد نثار هذه التعليمات المتفرقة، ولكن ما صدمنى هو ذلك الاختلاف بين هذه الحجرة ذات الإضاءة الشاحبة مقارنة بما كان عليه الحال عندما كان أصدقائى وأقاربى يراقبون كل

حركة لى وهم يودعوننى بحرارة عندما أضيف هـذا الترياق إلى تجهيزاتى.

على كل حال، وعلى الرغم من عدم تيقنى إن كانت الحالة متأخرة عن العلاج أم لا، فقد أعطيته الترياق، وعدت بعد ذلك إلى مخيمى متسائلاً عما ستئول إليه الأمور، وقبل أن يمضى وقت طويل سمعت حشدًا يقترب من خيمتى مع صياح عال، بدا الصوت فى أُذُنى عدائيًّا بعض الشىء، وظننت أنه من المحتمل أن يكون الصبى قد مات بالفعل، وأن موته سوف يلقى على كاهلى بدلاً من ذلك الترياق. دعوت رجالى أن يحموا صندوق الأدوات العلمية، الذى شككت أنه قد يكون الهدف الأول لهجومهم، وأهلت نفسى لاقتراب عدائى، كانت لحظة مزعجة، إلا أن ارتياحى كان عظيمًا عندما ميزت فى صياح أولئك القادمين نبرة الابتهاج أكثر من العداء، وبعد ذلك دخل بوحليجا إلى خيمتى وشكرنى بدفء ومودة من أجل العلاج الذى أعطيته لابنه، وأعلن فى حماسة " لقد كان مثل السحر، ربنا عظيم، فقد جعل دواؤك الصبى يتعافى من جديد".

رددت عليه بعبارة مماثلة وقلت له "إن الشفاء من عند الله"، وكانت الحمى قد هدأت بالفعل، ومن الواضح أن الصبى كان فى طريقه للشفاء تمامًا. شكرت الله فى سرى، لحسن الطالع الذى خدمنى؛ فلو مات هذا الصبى لأصبح موقفى سيصبح خطيرًا. وعندما رحل زائرى خرجت إلى ضوء القمر والليل الجميل.

الفصل الثالث عشر

الكفرة.. الأصدقاء القدامى وتغيير الخطة

«الأحد ١ أبريل: بدأنا فى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الثانية ظهرًا، قطعنا نحو سبعة عشر كيلومترًا، ووصلنا فى نهايتها إلى "التاج". بحلول الحادية عشرة والربع دخلنا منطقة صخرية وعرة، صخورها شديدة الاستدارة، تغطيها رقع من الأحجار الرملية الحمراء والسوداء، استمرت إلى أن وصلنا إلى "التاج"».

حضر عجيلة ليساعدنا فى تحميل الإبل، كان قد تعافى تمامًا من لدغة العقرب، وأصبح قادرًا على مرافقتنا إلى "التاج"، كما أرسل بوحليجا إفطارًا لى ولرجالى، وعندما تظاهرت بأنه ما كان عليه أن يكبد نفسه هذه المشقة، أبدى اعتراضه قائلاً " إنه كان علىَّ أن أمنحه الفرصة لأن يستضيفنا الأيام الثلاثة المعتادة"، وبعد ذلك بقليل حضرت إحدى الإماء من عنده ومعها وعاء ضخم ملىء بالأرز والدجاج والبيض.

بدا جليًا أنها تزينت من أجل هذه المناسبة، وكانت فاتنة بالفعل فى ردائها الأزرق الأنيق الذى كان يزينه نطاق أحمر يلف خصرها النحيل.

أخبرتها أننا بصدد التحرك فى الحال ولا حاجة بنا للطعام.

فأجابت بخجل "ربما تحتاجونه خلال الطريق، لقد طهوته بنفسي".

فطمأنتها قائلاً " في هذه الحالة سوف أقبله بكل سرور"، بدا واضحًا أنها سُرَّت بذلك، وفي التو رحلت وعادت من جديد ومعها وعاء آخر لا يقل حجمًا عن الوعاء السابق وكررت طلبها، أذعنت للمحتوم وأرسلت شكري لسيدها.

تلقينا وداعًا سارًا من أهل "عوادل"، كنت وقتها أتقدم القافلة وأنا أمتطي فرس بوحليجا، فلم نكن نحتاج إلى دليل في الوقت الحالي؛ لأنني كنت أعرف الطريق، حتى إن سنوسي بوحسان قال "إيه، البيه يعرف الطريق جيدًا، وسرعان ما سيصبح دليلاً في أرضنا".

كان الاقتراب من "الكفرة" من الشمال يتسم بعنصر المفاجأة مما ضاعف من تشويقه؛ فقد سرنا عبر أرض قليلة التموج تحيطها مرتفعات غير منتظمة قليلة الارتفاع، تشكل الأفق أمامنا، وفجأة انفتحت هذه القمم عن مجموعة من الأبنية التي يتعذر تمييز جدرانها من أية مسافة عن الصخور والرمال التي تحيطها، نظرًا لأنها كانت تطابقها في اللون والشكل، كانت تلك هي "التاج" مقر عائلة السنوسي في "الكفرة"، وبينما كنا ندخل إلى البلدة، رأينا الأرض تهبط فجأة إلى وادي الكفرة، والذي يتخذ شكل حوض بيضاوي ضحل يبلغ أقصى اتساع له نحو ٤٠ كيلومترًا بينما كان أقل اتساع له نحو ٢٠ كيلومترًا، وتتناثر داخله أشجار النخيل، التي تقطعه في خطوط غير منتظمة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتوجد به ستة محلات عمرانية هي: "بويما"، و"بوما"، و"جوف"، و"زورّوك"،

و"تلاليب"، و"طلاب". وبالقرب من "جوف" تمتد مساحة من المياه الزرقاء تقترب من مساحة بحيرة، وفى هذه النقطة الوسطى من رمال الصحراء القاحلة تعد امتدادات المياه هذه عطية ونقمة فى آنٍ واحد؛ فالمشهد المجرد لهذه الكمية الكبيرة من المياه يجلب الانتعاش للعين التى سئمت التطلع للاشىء عدا الرمال، لكنها للحلوق الجافة تعد أسوأ من مرأى السراب؛ لأن ماءها كان مالحًا.(٣٣)

فى أثناء دخولنا إلى "التاج" استقبلنى أصدقائى القدامى بحفاوة بالغة، وكان سيد العبيد ابن عم السيد إدريس، ورئيس السنوسية فى "الكفرة" مريضًا بالروماتيزم، إلا أن كلاً من سيدى صالح البشكارى، والقائم مقام، وسيدى محمود الجداوى وكيل السيد إدريس، والعديد من الإخوان، حملوا كلمات ترحيبه، وقادونى إلى دار السيد إدريس التى كنت سأمكث بها، وهى الدار ذاتها التى أقمت بها فى رحلتى الأولى "للكفرة" منذ عامين، وفى التو شعرت أننى عدت إلى دارى. ووجدت السيد البشكارى يقول مازحًا "سوف يصبح عليك أن تقود رجالك عبر طرق الكفرة، فحتى زروالى لم يطأ هذا المكان منذ ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا".

وفى التو بدأت مراسم الضيافة، بالقهوة التى أحضرها قائد المجموعة. وكان لدى بعض الوقت لاستراحة قصيرة قبل أن يحضر العبد ليصطحبنى إلى دار السيد العبيد لتناول الطعام.

---

(٣٣) واقع الأمر أنه توجد بحيرتان صغيرتان فى هذه المنطقة ماؤهما شديد الملوحة على الرغم من وجود مياه حلوة على عمق صغير بالقرب من شواطئهما، والتفسير الوحيد لهذه المياه المالحة هى أنها جزء مكشوف من إحدى طبقات المياه الجوفية الموجودة بالمنطقة. " المترجمان "

ومقادًا بالرسول ذاته الذى حضر لاصطحابى منذ عامين، سرت عبر الشوارع ذاتها، ودخلت الدارِ الرائعة نفسها لزعيم السنوسية مع شعور غريب أن الزمن ظل واقفًا فى هذا المكان أو عاد من جديد. ودار سيد العبيد عبارة عن متاهة من الممرات التى تصطف بها أبواب الغرف التى يعيش خلفها أفراد عائلته وخدمه. دخلنا حجرة مألوفة بدت كما لو كانت قد زينت بصورة أكبر من ذى قبل، بسجاجيد رائعة، والعديد من الوسائد الملونة المطرزة بطرز كثيفة، كما علقت على الجدران مجموعة لا تُنسى من الساعات والبارومترات والترمومترات التى كان يُسَر بها مضيفى، وكان عدد الساعات الموجودة فى الحجرة لا يقل عن اثنتى عشرة ساعة مختلفة الأحجام والأشكال تعمل كلها.

حضر لاستقبالى سيدى صالح، واعتذار عن الغياب القهرى لمضيفى السيد العبيد، وبعد ذلك مُدَّت أمامى وليمة تليق بالحكام أو بمن تعرض للموت من رتابة العيش فى الصحراء، وكانت تتكون من: لحم الحملان، وأرز، وخضراوات، وملوخية وهو نبات مصرى يشبه السبانخ، وخبز لذيذ، وخل حلو، ولبن، وحلوى، تلاها قهوة ولبن تم مزجهما بعجينة اللوز، وفى النهاية أكواب الشاى الثلاثة التقليدية المعطرة بالعنبر وماء الورد والنعناع. وعندما انتهت وجبة الطعام عدت إلى منزلى، وكان لدى بالكاد وقت لأن أرى أمتعتى، وأناقش أمر الإبل اللازمة للمرحلة التالية من الرحلة، وبعد ذلك حضر العبد ليصطحبنى مرة أخرى إلى دار السيد العبيد من أجل العشاء، كان البشكارى هو مضيفى هذه المرة أيضًا، وبدا وقورًا وكريمًا وهو يرتدى جبة جميلة من اللونين الأصفر والذهبى، واستبدل بطربوشه

البدوى التقليدى الناعم الذى كان يرتديه كوفية بيضاء حريرية وعقالاً ذا لونين أخضر وذهبى.

وعندما وصلت هذه الوجبة إلى مرحلة الشاى المعطر والبخور، فجأة بدأت الساعات تدق كل واحدة بنغمتها الخاصة، لتعلن الثالثة، وفق التوقيت العربى والتى تعنى التاسعة وفق توقيت العالم الخارجى، أغلقت عينى لدقيقة وشعرت أننى عدت إلى أوكسفورد، حيث تدق الساعات بتنويعات نغمية لا تنتهى فى كل الكنائس التى تواجه المدينة الجامعية.

خرجت إلى ضوء القمر مع عبير ماء الورد والبخور العالق بى، ووقفت عند حافة سلاسل التلال أتطلع إلى مياه البحيرة، ثم تتداعى ذكريات رحلتى السابقة "للكفرة" عندما كانت هى هدفى. أما الآن فهى تعد بداية لأكثر مراحل رحلتى إثارة، وفى هدوء المساء سمعت صوت الإخوان والطلبة وهم يرددون "الحزب".[٣٤] ووجدت عبد الله ينسل من الظلام ويقف أمامى. وقال بنبرة منخفضة، كرجل يفكر بصوت عالٍ " إنها ليلة النصف من شعبان، وربنا سوف يحقق أمانى كل من يدعو الليلة".

ولبضع دقائق وقفنا - نحن الاثنين - صامتين، وكان وجهى صوب الجنوب الشرقى حيث تمتد طرق غير مطروقة وواحات مفقودة، بينما استدار عبد الله صوب الشمال الشرقى حيث تقع مصر وأسرته وأطفاله، ولم أكن فى حاجة لسؤاله عما سوف يدعو من أجله.

---

(٣٤) دعاء كان يتلوه السنوسى الكبير، وقد ورثه إخوان السنوسية، وأصبحوا يرددونه بعد صلاتهم." المترجمان "

الاثنين ٢ أبريل: عندما كنت فى "الهوارى" أخبرتنى قافلة بدوية من "الواداى" أن إحدى شركات البترول الفرنسية توجهت صوب الشمال لما يقرب من بئر "سارا" على طريق التجارة الرئيسى من "الواداى" إلى "الكفرة". وكان ذلك هو الطريق الذى عزمت على أن أسلكه فى البداية، ولكن بدا أنه لا يوجد سوى جزء صغير منه – الممتد بين "سارا" و"الكفرة" – هو الذى لم يكتشف، ومرة أخرى سمعت بعض القصص الغامضة عن واحات مفقودة تقع على الطريق المباشر صوب الجنوب، والذى كنت قد خططت فى بعض الأوقات أن أقوم باكتشافه، على الرغم من علمى أن الطريق المباشر إلى "دارفور" فى "السودان" كان عمليًّا لا يستخدم مطلقًا سواء بواسطة البدو أو السودانيين بسبب صعوبته وخطورته المفترضة. أدارت قصة شركة البترول الفرنسية رأسى مرة ثانيةً صوب هذه الواحات، وعقدت عزمى على محاولة العثور عليها بدلاً من مواصلة خطتى الأصلية.

ورحلت مقررًا أن أفعل كل ما هو ممكن لأكتشف هذه الواحات المفقودة، ولكن إذا ما فشلت فى ذلك فقد كنت سأعبر الصحراء الليبية من خلالِ الطريق المطروق عبر " واجونجا " و"الواداى"، وبعدها أتجه شرقًا صوب " دارفور".

حضر لمقابلتى كل من زروالى وسليمان بومتارى – وهما من تجار الزوىّ الأغنياء – ليناقشا خطة رحلتى صوب الجنوب، ولم يكن بومتارى محبذًا للطريق الذى قررت أن أسلكه، وقال إن آخر قافلة سارت فى هذا الاتجاه كانت منذ ثمانى سنوات – كان قائدها أخى

محمد – وقد التهمت وذبحت عند حدود "دارفور". ولم يسلكوا الطريق الذى تبغى أنت الذهاب عبره، بل ساروا فى طريق من أسهل الطرق من "العوينات" إلى "ميرجا" – واحة صغيرة تبعد نحو ٢٩٠ كيلومترًا جنوب شرق العوينات – هذه الرحلة التى تقترح أن تقطعها تمر عبر نطاق لم يعبره أى بدوى من قبل، و"الدفا" – طريق طويـل بلا ماء– بين "العوينات" "وإردى" طويل وخطير. ربنا يرحم القافلة فى مثل هذه الحرارة، سوف تتساقط إبلك مثل العصافير فـى مواجهـة الريـاح الجنوبية الحارة. وحتى إذا عبرتها بسلام، فمن يدرى كيف سيستقبلك السكان الذين يقطنون تلك التلال؟ لاتدع تلهفك علـى السـفر يسـبق حكمتك، ويحول دون اختيارك طريق التجارة الآمن إلـى "واجانجـا" و"أبيش". شكرته على نصحيته لى، لكننى كنت أعلم أننى لن آخذ بها.

بعد أن تناولنا الغداء الملكى الذى أعده لنا سيد العبيـد توجهنـا لزيارة ابنه شاروفا، وهو شاب ذكى، متعطش للمعرفة. وقد ذهب إلى أبعد ما يكون فى العالم الخارجى؛ حيث ذهب إلـى "بنغـازى" تلـك الحاضرة التى تعد بالنسبة إليه – بكل ما تعنى الكلمة مـن معنـى – مدينة العالم، وقد اعتذر لمرض والده، وعرضت عليه فى المقابل أن أرسل إليـه دواءً قد يكون مفيدًا له.

الثلاثاء ٣ أبريل: كان الجو دافئًا للغاية، مع وجود سحب كثيفـة ورياح جنوبية غربية سيئة. بعد الغداء المعتاد ذهبت إلى زيارة شمس الدين وأخيه الصغير وهما أبناء عم شاروفا، كان الفتى الكبير شـديد الذكاء يملك عينين تبدوان كما لو كانتا تسألان عن العالم. وهناك قدَّما لى ثلاثة أكواب من اللبن وعجينة اللوز، ومربى أعدت فى المنـزل،

وكنت أعلم أن رفض هذه الضيافة يعد إهانه؛ لذا رحلت عن تلك الدار وأنا فى حالة خدر شديد من كثرة الطعام. وقد زاد العشاء بعد ذلك فى دار سيد العبيد من سوء حالتى.

مرة أخرى ناقشت مع الحضور خطة الذهاب عبر طريق "أركينو" و"العوينات"، وأصبحت أكثر عزمًا عن ذى قبل. وجاء الرد لنرى ما سوف يقوله بوحليجا عندما يصل من "الهوارى".

الأربعاء ٤ أبريل: أيقظنى جدَّاوى الذى أحضر لى – كالمعتاد – قدحًا من الشاى المعطر. وبينما كنت أرى أحمد وهو يعد أدوات الحلاقة الخاصة بى فكرت أن هناك بالطبع أوقاتًا يرحب فيها المرء براحة الحضارة ورفاهيتها، ولكن مع طول السفر فإن المرء يشعر أنه فى داره أكثر عندما يكون فى تحركه مقارنة بالراحة فى إحدى الواحات.

الجزء المبكر من اليوم أنفق فى التقليل من معظم الصناديق الخشبية، وإعادة ترتيب الحقائب من أجل الإعداد للرحلة الطويلة صوب الجنوب، وقد تطلب الأمر عناية خاصة؛ فاعتبارًا من الآن وصاعدًا لن تتاح أية فرصة لتغيير الإبل إلى أن نصل إلى "الفاشر" فى السودان، على بعد ٩٥٠ ميلاً تقريبًا.

وكان السؤال الخاص بالتزود بأحذية جديدة لرجال قافلتى أصبح مُلحًّا؛ لأن الأحذية البدوية التى صنعت لهم فى "جالو" كانت قد بليت تمامًا.

قبل موعد الغداء زارنى بعض زعماء الزوىّ، الذين حضروا بصفة رسمية ليبدوا احترامهم، وبصفة غير رسمية ليرضوا فضولهم

وشكركم نحو حجم قافلتى والأدوات التى كنت أحملها، وحـاولوا أن يكتشفوا الخطط التى وضعتها لرحلتى إلى "السودان".

كان الغداء كالمعتاد عند سيد العبيد، وبلغتنى أخبار سارة؛ حيث إن الدواء الذى أعطيته إياه كان لـه تأثير جيد. وقد أمضيت فترة ما بعد الظهر فى الإصغاء إلى أسئلة حول الأسلحة والذخائر، وبعد ذلك خرجت فى تمشية طويلة بهدف جمـع ملاحظـات بالبوصـلة عمـا يجاور "التاج".

الخميس ٥ أبريل: تحـدث زروالى طويلاً مع بوحليجا – الـذى وصل ليلاً من "الهوارى" – ورفض الأخير تمامًا فكرة الذهاب إلـى "الفاشر" عن طريق "العوينات".

وزارنى بوحليجا محاولاً إقناعى بالذهاب عبر طريق "الواداى"، وعندما رأى أنه من المحتمل ألا يؤخذ بنصحه أصابه اليـأس، وقـد بينت لـه بوضوح أنه لا يوجد شيء يمكن أن يثنينى عن قرارى بأن أسلك طريق العوينات إلى "الفاشر"؛ فوجدته يقول "يا الله! إنه طريـق خطر، والعديد من القوافل التهمها سكان التلال التـى توجـد علـى الطريق. إنهم لا يخافون الله، ولا يخضعون لسلطان أى رجل، وهـم مثل الطيور الجارحة يعيشون فوق قمم الجبال، وسوف تواجـه مـن مشاكل معهم".

فأجبت " نحن رجال مؤمنون، وقدرنا فـى يـد الله – سـبحانه وتعالى – وإذا كان الموت مكتوبًا، فسـوف يـأتى فـوق الطريـق المطروق وبجوار أقرب الآبار.

فقال "إن العديد من لحى الزوىّ قد دفنت فى هذه الأجزاء المجهولة؛ فالبشر هناك خائنون لا يخشون الله أو أى إنسان".

فأجبت "ربنا يرحم أولئك الزوىّ الذين فقدوا حياتهم، إن حياتنا ليست أكثر قيمة من حياتهم؛ فهل تكون شجاعتنا أقل منهم؟"

جادلنى مرة ثانيةً قائلاً "إن الماء فى هذه المنطقة نادرًا وسيئًا للغاية"، والله – سبحانه وتعالى – يقول ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

فأجبته "إن الله – سبحانه وتعالى – سوف يروى ظمأ المؤمن الحقيقى، وسوف يحمى أولئك الذين يؤمنون به".

وعندما شعر أنه فى خطر أن يهزم فى الجدال، غيَّر طريقته فى الحديث، وقال بحزم "لا يوجد أحد من رجالى يرحب بمرافقتك على هذا الطريق، كما أننى لا أستطيع إرسال إبلى أيضًا، فهو مثل إرسالها إلى الموت؛ إذا وجدت أى شخص يرحب باستئجار إبله فأنا مستعد أن أدفع له، ولكن لا رجالى ولا إبلى سوف يصحبونك فى هذه الرحلة".

فرددت عليه بقوة "افعل ما تريد، سوف أذهب من هذا الطريق، وسوف يصبح الأمر بينك وبين السيد إدريس عندما يعلم أن بوحليجا لم يلتزم بكلمته".

وهنا توقف الجدال. وكنت قد علمت بالفعل أن بوحليجا ورجاله قد أوعزوا إلى بعض مالكى الإبل فى "الكفرة" حتى ألا يساعدونى فى خطتى الجديدة، وكان يأمل بذلك أن يجبرنى على قبول خطته وسلوك الطريق الآمن عبر "الواداى".

أعد جدَّاوى غداء ضخمًا؛ فقد كانت أيام الضيافة الرسمية الثلاثة الخاصة سيد العبيد قد انتهت بالأمس، ومن ثم أمكن لجداوى بصـــفته وكيل إدريس فى "الكفرة" أن يُضيِّفنا.

وكان بوحليجا على وشك الرحيل، لكننى دعوتـــه أن يشـــاركنا طعامنا، فقَبِلَ على أمل أن يقنعنى بأن أغير رأيى، بينما كنت آمل أنا – وربما بصورة أكثر قوة – أن أقنع ذلك الكهل بأن الطريـــق لـــيس خطرًا كما يصوره، وبعد كوب الشاى الثالث افترقنا، ولم يكن أى منا قد نجح فى إقناع الآخر، لكننى شعرت أن كلماتى الأخيرة قد أثــرت فيه.

عند الظهر حضر إلىَّ العبد ليخبرنى أن سيـــده – سيد العبيـــد – يتطلع إلى مقابلتى، كنت قد علمت بالفعل أنه لم يكن فى حاجـــة لأن يتعجل مقابلتى رسميًّا؛ لأنه كان يعانى بشدة من داء النقرس، وكـــان من العسير عليه أن يهبط إلى حجرة الاستقبال، ولكنه لم يكن يريد أن يجعلنى أظن أنه قد انتهك قواعد الضيافة بالتأخر عن لقائى؛ لذا سمح لى – بكرم شديد – أن أراه برغم آلامه.

كانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها سيد العبيد فـــى هـــذه الرحلة، وبينما كنت أقاد إلى حضرته، شعرت أنه أشبه بصورة رائعة خرجت من قصص ألف ليلة وليلة. كان يرتدى قفطانًا حريريًّا أصفر اللون موشًّى بخيوط حمراء، وعلى كتفيـــه بـــورنس مـــن الحريـــر الأبيض، بينما يرتدى على رأسه عمامة من الشاش ناصـــع البيـــاض تنسدل من الأجناب، والتى تعد غطاء الرأس التقليدى لزعماء أســـرة السنوسى، ويحمل فى يده عصاة ثقيلة من الأبنوس ذات مقبض ضخم

من الفضة، كان صورة للبساطة والنبل، ولا يستطيع أحد أن يشك فى كونه محاربًا مهيبًا، كان يجلس فوق مقعد ضخم ذي ذراعين كبيرتين، وعندما دخلت حاول النهوض، فأسرعت إليه ممسكًا بيده ومتوسلاً إليه ألا يكبد نفسه مشقة النهوض؛ إذ كان يعانى بشدة من داء النقرس، وبدأ حديثنا بسهولة حول موضوع علته، والذى يعانى منها منذ عدة سنوات، وقال "فى أثناء الليل، عندما تشتد وطأة الألم، أصلى لله – سبحانه وتعالى – لعله يقصر عدد أيامى فى هذا العالم؛ لأننى لا أستطيع أداء الصلوات كما يجب".

وبعد ذلك ناقشنا أمر رحلتى إلى "السوادن"، ووجدته أيضًا يحثنى على أن أسلك الطريق الآمن عبر "الواداى". وقد أوضحت له أن السيد إدريس موجود الآن فى مصر؛ لذا علىَّ أن أعود فى أسرع وقت إلى وطنى، وأحاول أن أرد إليه بعض الضيافة التى أغدقها علىَّ السنوسية ببذخ، ومن حسن الحظ أن الطريق إلى "السودان" عبر "العوينات" معروف أنه أقصر من طريق "الواداى".

فقال "أنت صديق عزيز لنا، وأنا أثق أن السيد إدريس يفضل أن تصل متأخرًا آمنًا إلى مصر، على أن يسمع أنه قد أصابك أى مكروه".

فأجبت "قدرنا فى يد الله سبحانه وتعالى، وخطانا كتبها علينا، ومعى بركة زعيم السنوسية".

تحدثت بكل تصميم، واستغرق سيد العبيد فى التفكير لبضع دقائق، وببطء رفع رأسه وكفيه صوب السماء وقال مستجيبًا لرغبتى "ربنا ينجح سعيك، ويعيدك سالمًا إلى أهلك، لقد زرت ضريح جدنا

في "جغبوب"، وقبة سيدى المهدى هنا، ونلت بركتهما" ثم اقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وبعدها قرأنا الفاتحة ومنحني بركته، ومرة ثانية دعا الله – سبحانه وتعالى – أن يرشدنا ويسدد خطانا ويمنحني ويمنح رجالي الثبات. شعرت بسعادة بالغة وأنا أشق طريقي عبر الممرات والساحات المختلفة؛ فقد أراحني أن أعلم أنني نلت مؤازرة سيد العبيد، وأنه لم يُبدِ أية معارضة لخطتي الجديدة للذهاب إلى "السودان" عن طريق "العوينات".

كل رجال قافلتي كانوا موجودين هناك عندما دخلت إلى الدار، ونظرة واحدة في وجوههم أخبرتني إلى أى مدى كانوا يحبسون استثارتهم؛ فقد كانوا ينتظرون منذ أن توجهت إلى سيد العبيد أن يسمعوا رأيه حول الرحلة إلى الجنوب. وببطء اتخذت طريقي صوب حجرتي وطلبت منهم أن يحضروا؛ فقد كان عليَّ أنا أيضًا أن أقمع استثارتي التي كانت تعود للنجاح وليس للترقب. وكانت هناك فترة توقف طويلة قبل أن أستطيع التحكم في صوتي وأجعله غير مبال كما يجب أن يكون، وقلت " لقد بارك سيد العبيد رحلتنا إلى "العوينات"، وقرأنا الفاتحة"، ولم أكن أحتاج حتى على النظر في وجوه الرجال؛ فقد كانت معنا مباركة زعيم السنوسية، ومؤازرة سيد العبيد؛ لذا فسوف يمنحنا الله – سبحانه وتعالى – الثبات والنجاح، والهدى الذى يأتي من عنده".

الفصل الرابع عشر

الكفرة وموضعها على الخريطة

«الجمعة ٦ أبريل: بدأ اليوم بوصول وعاء ضخم ملىء بالزهور رائعة العبير، أرسلها إلينا سيد العبيد. وكانت تلك هى الطريقة التى تناقض بها الصحراء اسمها من حين إلى آخر، لدرجة أننى أتحدى "الريفيرا" أن تنتج أرق من هذا أو أكثر منه عبيرًا».

كان يوم الجمعة، يوم راحة المسلمين، وقد حضرت الصلاة فى المسجد، وكان من المنتظر حضور أمراء السنوسية الصغار، وجاء بعض البدو فى أفضل ملابسهم، ولكن جنبًا إلى جنب وقف من يرتدى أغلى القفاطين الحريرية مع من يرتدى أرخص "الجيردات"، وخلع كل فرد نعليه عند الدخول. راقبتهم لفترة، ها قد جاء أحد أعيان الزوىّ أو لعله تاجر من المجابرة بملابسه الثمينة التى تكشف ثنياتها عن أنها خرجت للتو من الصندوق، وفى عينيه الكحل، الذى يوضع بمراود – عصا الكحل – من العاج أو النحاس. كان كل ما يرتديه ذلك الرجل جديدًا، وينبعث منه عطر نفاذ، لعله ماء ورد نقى من الذى يقطر فى "الكفرة"، أو لعله مسك، أو عطر آخر قوى من السودان. دخل فى وقار واحتل مكانه. وجاء آخر يرتدى جيردًا باليًا، وذو وجه برونزى ذابل ليس مكتنزًا لكنه لا يقل وقارًا عمن سبقه. وقد يكون للملابس دور، ولكن جزءًا من هذا الوقار يعود إلى الكرامة

والشجاعة الطبيعية لدى هؤلاء البشر، وتبرز هذه الصفات بجلاء بين أولئك الذين يرتدون جيردات بالية عن أولئك الذين يرتــدون حريــرًا رقيقًا ويتعطرون؛ إذ تسلبهم هذه الأشياء فى بعض الأحيان بعضًا من سماتهم المتفردة.

جاء أحد العبيد، إنه العبد المفضل وموضع ثقــة أحــد زعمــاء السنوسية، وكانت حلته الحريرية لا تقل قيمة، إن لم تفق فى ألوانهــا الزاهية، وكان هناك القليل الذى ينمُّ عن أنه عبد، كان يشعر بأهميته، ويسير – على نحو لا يقل وقارًا – عبر صفوف المصــلين، ليتخــذ مكانه بجوار أحد النبلاء أو ربما بجوار أحد الشحاذين؛ ففى المســجد لا يستوى الفقير مع الغنى فحسب، لكنــه بطريقــة مهذبــة ينــال انتقامه؛ لأنــه فى منزل الله – سبحانه وتعالى – حيث السيد هــو الله وحده، يشعر الشحاذ قد يفوق ذو الرجل الثرى، طالما أنه لم يــنغمس فى ترف العالم ولم ينسَ الله سبحانه وتعالى، ويعد الجيرد القديم الرث ثوبًا ملائمًا للبدوى للذهاب إلى المسجد من أجل الصلاة، مثل ملاءمة ثوب من الحرير المطرز لرجل سوف يذهب لمقابلة زعيم السنوسية.

استعد المصلون الآن؛ فقد انتهى المؤذن من النداء للصلاة، وحل الصمت، فقد دخل أمراء السنوسية الصغار إلــى المســجد، وشــغلوا الموضع الذى حجز لهم، واستدارت كل الأعين صوبهم، وعلى الرغم من حداثة سنهم فقد بدوا خجولين قليلاً ومرتبكين بعض الشــىء. لــم ينهض أحد عندما دخلوا؛ لأن هذا هو بيــت الله ســبحانه وتعــالى، وداخله فإن الله وحده هو السيد، اعتلى الإمام المنبر، وبدأ فى الوعظ، وغالبًا ما تكون موضوعات الخطب واحدة؛ فهى تحــض المصــلين

على أن ينأوا بأنفسهم عن العالم ومباهجه، ويستعدوا لحياة السعادة فى العالم الآخر من خلال فعل الخير ودائمًا ما يردد من يلقى الخطب "احذروا من زينة العالم ومباهجه؛ لأنها شديدة الإغراء؛ فبمجرد أن تسقط ضحية لها تفقد روحك وتضل بعيدًا عن الله سبحانه وتعالى، تقربوا من الله سبحانه وتعالى بأداء الحسنات، وإطاعة أوامره. هذه الحياة سوف تنقضى، بينما العالم الآخر هو الأبدى. أعدوا أنفسكم من أجله، ربما تصبحون سعداء فى الآخرة".

كان المسجد من الداخل جميلاً، ببساطة خطوطه وجلالها، وحوائطه العارية، المدهونة بالجير الأبيض النظيف، بينما كُسيت الأرض بالسجاجيد والحصر، وجلس المصلون القرفصاء على الأرض فى خشوع، كان هناك نحو مائتين منهم يصطفون فى صفوف تتجه كلها صوب مكة (الكعبة)، وكان بعضهم يُسَبِّحُ على مسبحة من حبات الكهرمان، والبعض الآخر أفقر من أن يكون لديه مسبحة؛ لذا يحسبون عدد مرات تسبيحهم على أصابعهم. وكان مظهر بعضهم يشى بأنه غنى موسر، وآخرون بأنهم من بدو الصحراء، إلا أن أكثر الانطباعات التى تدهشك هى تلك النظرة المحلقة والسكينة والقناعة المرسومة على وجوههم، حتى فوق تلك الوجوه المنهكة والكادحة فهناك أمارات رباطة جأش تبين أن الرجال قد رضوا بقدرهم، لا يتذمروا من ذلك.

بعد الغداء فى دار سيد العبيد، حضر سليمان بومطارى مرة أخرى ليتحدث عن الرحلة إلى الجنوب، وأخبرنى أن بوحليجا ومحمدًا، اللذين سيصبحان دليلينا، قد التقيا وبحثا الأمر سويًّا، إلا أن بوحليجا كان لا يزال غير مرحب بالذهاب معنا.

أمضى عبد الله اليوم فى "جوف" ليجمع أيــة معلومــات يمكنــه الحصــول عليهــا حول طريق "العوينات"، ويمحاول اكتشاف ما إذا كان أفراد التبو سوف يسمحون لى باستئجار إبل مــنهم مــن أجــل الرحلة إلى هناك أم لا.

بعد العشاء عند سيد العبيد، أمضيت بعض الوقت فى مكتبة السيد إدريس، الذى كان قد أعطى تعليماته لجدَّاوى أن يفتحها لــى، وهــى عبارة عن حجرة متوسطة المساحة، زاخرة بالصناديق التى تحتــوى كتبًا. سقفها كان مزخرفًا بألوان زاهية، رسمها أحد الفنانين من أحباب السنوسية، والذى حضر من تونس متطوعًا لهذا الأمر، كما يحدث فى ميدفيل بأوروبا عندما يكرس الرسامون والنحاتون حيــاتهم ليزينــوا الكنائس، وكانت كل قطعة صغيرة من الأثاث فى الحجرة قد جــاءت إما من مصر أو من بنغازى، كما كانت بها نافذة تطل على الخــارج ذات مصراع خشبى وحيد للحماية من الشمس. ولم يكن من الســهل التحرك فى الحجرة؛ نظرًا لاصطفاف الكتــب والصــناديق بطــول الحوائط وفى منتصف الحجرة أيضًا.

وكان هناك العديد من الصناديق العتيقة التى تستخدم كخــزائن، وفى الوقت ذاته مجهزة بملحقات على جانبيها تمكــن مــن تحميلهــا مباشرةً فوق الإبل فى حال نقلها. وكانت المكتبة غير منظمة إلى حد ما؛ فقد كومت الكتب فيها الواحد فوق الآخر بغير اهتمام؛ لأن الســيد إدريس كان غائبًا لفترة طويلة، كما كــان هنــاك عــدد كبيــر مــن المخطوطات الموضوعة فى حافظات مغربية جميلة، والعديــد مــن الكتب الحديثة التى طبعت فــى القــاهرة والهنــد، بالإضــافة إلــى

مخطوطات من المغرب والجزائر وتونس. وباستثناء بعض الكتب باللغة الفارسية كانت كلها عربية، كما وجدت أيضًا مخطوطين أو ثلاثة للقرآن الكريم مزخرفين بماء الذهب - كان امتيازًا كبيرًا أن يسمح لى بالدخول إلى هذه المكتبة؛ لأنه، كقاعدة عامة، لم يكن يسمح لأحد بذلك - ووجدت العديد من المخطوطات القديمة التى كتبت بعناية بالغة على رق الغزلان، وهى أعمال فى: الفلسفة، واللغة العربية، والفقه، والتصوف، والشعر، وأخرى فى التعاويذ والسحر. أمضيت الكثير من الساعات المثيرة والممتعة بين هذه المجموعة، وكانت الأجواء والبيئة المحيطة ملائمة تمامًا؛ فقد كنت بعيدًا للغاية عن الضوضاء، ويفصلنى عن العالم أميال عديدة، تكفى لأن يشعر المرء أنه فى حالة تسمح له بتشرب الأفكار التى توجد فى هذه المخطوطات واستيعابها. وجرب أن تجلس على مقعد مريح وسط الحضارة، وحاول أن تقرأ مثل هذه الكتب فإن رنة واحدة من الهاتف كفيلة بأن تنتزعك منها.

السبت ٧ أبريل: تلقيت زوجًا أنيقًا من الأحذية البدوية هديةً من شاروفا، كما حضر زعماء الزوىّ لزيارتى مرة أخرى، وتحدثنا خلال تناولنا القهوة عن تاريخ الزوىّ، واكتشفت أن الزوى لم يكونوا أول من انتزع "الكفرة" من التبو، بل قام بذلك - فيما سبق - قبيلتا "غوازى" و"جاهام"، حتى إن اثنتين من أسماء قرى "الكفرة" هما عبارة عن اسمين لعائلتين من قبيلة جاهام، وهما: "طولاب"، و"زوروق".

أعطيت كل فرد من زوارى صورة للمجموعة كنت قد التقطتها لهم منذ عدة أيام مضت، وكانوا سعداء بها.

أدركت فى نهاية هذا اليوم مخاطر "الكفرة"؛ فقد كاد رولفس أن يفقد حياته هنا بسبب قلة الطعام، بينما أكاد أن أفقد حياتى بسبب الكرم، فقد تغذيت بإفراط - كالمعتاد - عند سيد العبيد، وتلا الطعام شرب القهوة، ثم ثلاثة أكواب من الشاى، المعطر بالعنبر وماء الورد والنعناع، وبعد ذلك ثلاثة أكواب من الحليب الممزوج بعجينة اللوز، ثم أصر شاروفا على أننى يجب أن أذهب إلى داره، وقدَّم لى ثلاثة أكواب أخرى من الشاى المعطر، تبعها مرة أخرى بثلاثة أكواب من اللبن الممزوج بعجينة اللوز، وكنت أعلم جيدًا أن الرفض يعنى الإهانة، لذا ابتلعت المشروب الذى أصبح الآن يدفعنى للغثيان، إلا أن النهاية لم تأتِ بعد، فقد اصطحبنى بعد ذلك شمس الدين إلى داره ووضع أمامى بسكويتًا وبندقًا وكأسًا ضخمة مليئة بعصير الفاكهة، أصبح الأمر أصعب من أن يتحمله بشر من لحم ودم، ولكن الرفض يعنى الإهانة، ثم تلاها ثلاثة أكواب من القهوة وتناولتها وأنا مثل رجل ذاهب إلى حبل المشنقة.

وبينما كنت ممددًا فى حجرتى لأتعافى، طاف بخلدى العديد من الأفكار، لعل من أطرفها أننى تمنيت لو مات قبل أن يولد ذلك البدوى - أيًا كان - الذى اختار رقم ثلاثة كرقم سرى يميز الضيافة فى الصحراء، ولعله من حسن الحظ أنه لم يختر رقم سبعة عوضًا عن ثلاثة. فقد جئت إلى الصحراء مستعدًا تمامًا للهلاك بواسطة قسوة الطبيعة، أو الرجال المعادين، ولكن فكرة الهلاك من خلال عسر الهضم لم تخطر على بالى مطلقًا.

ورغم هذا ذهبت فى الموعد المحدد إلى دار سيد العبيد من أجل العشاء، وكان بعض زعماء البدو رفقائى فى الاستضافة، ومرة

أخرى ناقشنا أمر الرحلة صوب الجنوب، وأصر بوحليجا على رفضه الذهاب عبر طريق "العوينات".

وقال إن الشروط التى وضعها السيد إدريس، تتعلق برحلة إلى "الواداى" وليس "دارفور"، وما كان ليرسل رجاله أو إبله إلى هذا الطريق. وجادلته قائلاً إنه طالما تعاقد على تزويدنا بخمس وثلاثين (مراحل) – أو يوم سفر من الكفرة صوب الجنوب – فإنه يجب ألا يكون هناك فرق سواء استخدمت هذه (المراحل) فى الذهاب إلى "الواداى" أو إلى "الفاشر" أو حتى العودة إلى مصر، لم يقنعه هذا التفكير، ولكن عندما لاحظ أننى مصمم، وأن سيد العبيد لا يعارض خطتى، وأننى مستعد لاصطحاب إبل أقل مما يتطلبه الأمر فى العادة، وافق كارهًا بشرط ألا يذهب هو أو يرسل أحدًا من رجاله.

الأحد ٨ أبريل: وصل أمر حصان بوحليجا إلى نهايته، فقد اشتريته بثلاثة وثلاثين جنيهًا، كان قويًا وقادرًا على السفر بصورة عظيمة، ولا يحتاج للشرب سوى كل يومين.

بعد الغداء التقطت صورة لسيد العبيد، وتحدثت معه طويلاً عن مرضه، وكيف أنه يتحمله بجلد حقيقى، وعن الوضع الراهن فى برقة ومصر، وخططى للسفر إلى السودان.

صادف سوء الحظ أعمالى العلمية فى "الكفرة"؛ فلم يكن من السهل علىَّ الفرار من المراقبة، أو التحرك بمفردى، أو استخدام أدواتى العلمية دون إثارة الريبة، وكان من أسوأ الأمور أن ظلت السماء ملبدة بالغيوم منذ أن وصلت إلى هناك، وكنت غير قادر على أن أرصد الشمس أو النجم القطبى باستخدام الثيودوليت.

بعد العشاء أصبحت متعبًا للغاية؛ فقد استنفدت كل حبوب عسر الهضم التي أحضرتها معى، وكنت أشعر أنه قد يكون من المريح أن أعود مرة أخرى إلى بساطة الصحراء.

الاثنين ٩ أبريل: ظل الجو ملبدًا بالغيوم، وهبَّت بعض النسمات الباردة. أمضيت يومًا هادئًا، أقرأ داخل مكتبة السيد إدريس، وأُحمض بعض الأفلام، وأشترى قربًا وشعيرًا للرحلة، كما أعطانى سيد العبيد نسخًا كتبها بخط يديه من خطابات السيد المهدى للإخوان، وأهدانى إحدى سكاكين البربر فى جراب من الفضة ومسدسًا ذا زند مكفف بشغل نحاسى جميل.

الثلاثاء ١٠ أبريل: انقشعت السحب بعد ظهر هذا اليوم، والتقطت بعض الصور للوادى، ورتبت مع صانع أحذية ليصنع أحذية لى ولرجالى، وأن يزودنا بأحزمة عريضة للكتف من تلك التى يوضع بها الرصاص، والتى أصر الرجال على الحصول عليها بعد الإشاعات المحذرة التى سمعوها.

قابلت محمد سكر للمرة الأولى، والذى من المفترض أن يكون دليلنا على طريق "العوينات"، وقد راقنى كثيرًا.

الأربعاء ١١ أبريل: سمع سيد العبيد عن شرائى لحصان بوحليجا، فأرسل لى سيفًا من سيوف الطوارق وبندقية إيطالية قصيرة من ماركة " كاربين" لكى أحملهما عندما أمتطيه.

وأخيرًا أصبحت قادرًا على أن أجمع ملاحظاتى باستخدام ثيودوليتى، وكنت تواقًا لمعرفة هل سوف تتفق نتائجى مع نتائج رولفس أو لا؟

الخميس ١٢ أبريل: أرسلت إحدى بنادقى هدية إلى سيد العبيد. وتوجهت بعد الظهر مع السيد محمد بوتمانيا وزروالى إلى "جوف"، وهناك قابلنا زعيم القرية، وزرت السوق الذى يعقد أسبوعيًّا هناك، والزاوية التى تعد أقدم مدرسة سنوسية فى "الكفرة"، والمسجد الموجود بها.

و" جوف " هى المركز التجارى "للكفرة"، وكان من المثير أن أجد فى سوقها خراطيش البنادق التى يعود تاريخ صنعها إلى ثلاثين عامًا مضت جنبًا إلى جنب مع علب الصلصة الإيطالية القادمة من "بنغازى"، والقماش القطنى الأزرق والأبيض المصنوع فى "مانشستر" والمستورد من "مصر"، والجلد والعاج وريش النعام القادم من "الواداى"، إلا أن منتجات الجنوب بصفة عامة ليست كثيرة فى "الكفرة" فى الوقت الحالى، باستثناء تلك التى يجلبها التجار الذين حال أمر ما دون أن يستكملوا رحلتهم إلى الشمال فيضطروا أن يبيعوا ما أحضروه فى "برقة" أو"مصر".

وقد شهدت "الكفرة" أفضل أيامها بوصفها مركزًا تجاريًّا قبل احتلال السودان؛ ففى هذا الوقت كان من الأسهل تدفق منتجات "الواداى" و"دارفور" عبر"الكفرة" مقارنةً بالطريق الذى يوجد فى الشرق، وحتى الآن لا تزال بعض السلع تهرب عبر "الكفرة"، كالعاج الذى تحرم الحكومة السودانية تجارته.

بالإضافة إلى التجارة التى تمر عبر "الكفرة"، فإن معظم زعماء الزوىّ الكبار الذين لديهم ما يكفى من العبيد يمارسون الزراعة؛ حيث يزرعون الشعير والذرة، ويعد السنوسية أكثر تقدمًا منهم؛ لأنهم

يزرعون البطيخ، والعنب، والموز، والكوسة، والخضراوات الأخرى الشهية، التى يعد تناولها رفاهية كبيرة بعد رتابة الترحال فى الصحراء، كما يزرعون النعناع والورد، ويصنعان منهما ماء الورد وروح النعناع اللذين يعدان عنصرين أساسيين فى مراسم الضيافة فى الصحراء، ومن أشجار الزيتون القليلة ينتج زيت الزيتون فى معاصر بدائية، وتقتصر الحيوانات فى "الكفرة" على الإبل، والغنم، والحمير، وبعض الخيل، ويعد اللحم باهظ الثمن نظرًا لوجود مساحات محدودة للرعى في هذه المنطقة. وتعلف الحيوانات على نوى التمر المطحون، الذى يعد غذاء رئيسيًا جيدًا، إلا أن الأعشاب الخضراء قد تعد ضرورية فى بعض الأحيان. والسنوسية الذين يعدون أكثر تطورًا من جيرانهم فى كل شىء يربون الدجاج والحمام.

* * *

وعندما كنت فى "الكفرة" علمت أن أسعار العبيد قد ارتفعت ارتفاعًا كبيرًا فى السنوات الأخيرة؛ لأنه لم يعد هناك عبيد جديدة تأتى من "الواداى"، نتيجة ليقظة السلطات الفرنسية فى هذه المقاطعة. ويتحايل البدو أحيانًا على هذا الأمر من خلال إبرام عقود زواج على الإماء فى "الواداى"، وعندما يعودون يطلقونهن ثم يبيعوهن. وفى إحدى رحلاتى عام ١٩١٦ عُرض علىَّ إحدى الإماء مقابل ستة جنيهات ذهب أو ما يعادل (١٢٠ فرنك)، أما الآن فالسعر يتراوح بين ثلاثين وأربعين جنيهًا، وبصفة عامة يعد سعر الإماء أرخص من العبيد، وقد يتزوج البدو من إمائهم فى بعض الأحيان، وإذا ما أنجبت الأمة طفلاً ذكرًا فإنها تصبح حرة على نحو تلقائى. ولا يوجد لدى

البدو أى تحامل تجاه اللون؛ لأنه إذا ما ولدت إحدى الإماء طفلاً من شيخ القبيلة، وكان هذا الطفل أكبر أبنائه الذكور، فإنه سيصبح عندما يشب - بحكم واقع الأمور - رأس القبيلة، مهما كان سواده، فى حين يظل أبناء العبيد عبيدًا، كما يصبح طفل الأمة والرجل الحر حرًّا مهما كان فقيرًا، حتى وإن مات والده وأصبح يتيمًا، فإنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يصبح عبدًا. واقتناء العديد من العبيد يعد من الأمور المفضلة لدى البدو، وقد يصبحون ذوى قوة ونفوذًا أكبر من الرجال الأحرار استنادًا إلى ثقل أسيادهم. وهم يعاملون جيدًا ويصبحون أعضاء فى الأسرة، ويرتدون ثيابًا جيدة؛ لأن ثياب العبد الرديئة تنعكس بصورة سيئة على سيده؛ تمامًا مثلما تنتقص ملابس الخادم الرثة من تألق الرولزرويس الخاصة بالمليونيرات.

والعبد الأثير للسيد إدريس - على كاجا - لا يعد أكثر الرجال الذين يثق بهم فحسب، بل لديه أيضًا قوة وسلطة بين البدو أنفسهم أكثر من العديد من الرجال الأحرار؛ فهذا العبد يعامل كمؤتمن؛ فإذا ما حضر إلىَّ عبد السيد عبيد ومعه رسالة، فإنى أتلقاها على اعتبار أنها حقيقة مطلقة، عالمًا أنه من واجبه أن يتلو بالضبط ما قيل له. وبالطريقة نفسها، فإذا ما رغبت فى أن يصل شىء ما إلى أذن سيد العبيد، وتحديدًا إلى أذنه فقط؛ فأنا أعلم أننى أستطيع أن أقوله لعبده دون لحظة تردد واحدة، وأثق تمامًا أن الأمر لن يذهب إلى أى مكان آخر، ويسمح للعبد بشراء أمة لنفسه ليتزوجها.

وذات مرة سألت على كاجا عن أسعار العبيد فتذمر قائلاً " لقد أصبحوا باهظى الثمن هذه الأيام؛ فمنذ أيام اشتريت أحدهم وكلفتنى

٤٠ جنيهًا بالعملات الذهبية الإنجليزية"، قالها بنغمة كما لو لم يكن هو نفسه عبدًا.

وأضاف قائلاً إن العبد رث الملابس الذى تراه الواحة غالبًا ما يكون عبدًا قد أُعتق، ويُنظر إليه بفضول بالغ من قبل العبيد الآخرين، بينما يشعر هو فى قرارة نفسه بالعار؛ لأنه أعتق ولم يعد ملكًا لأحد.

* * *

هناك العديد من أشجار النخيل التى تنتشر فى وادى "الكفرة"، والعديد منها تخص السنوسية؛ فعندما دعا الزوىّ السيد بن السنوسى ليأتى إلى "الكفرة"، منح كل فرد منهم السنوسى ثلث ممتلكاته من الأرض والنخيل، ومن ثم أصبحت نسبة امتلاك النخيل بين السنوسية والزوىّ هى واحد إلى اثنين على الترتيب، واعتبارًا من هذا الوقت أصبح ينظر بإجلال إلى الزوىّ، كما قام السكان القاطنون فى الوادى بزراعة أشجار جديدة مما زاد من حيازتهم، ولا يزال المرء يستطيع رؤية تلك الجدران التى تفصل بين أرض السنوسى وتلك الخاصة بالزوىّ.

* * *

فى طريق عودتنا من " الجوف " مررنا بحفل زفاف؛ فقد كان الضابط قائد الفرقة العسكرية فى "الكفرة" يتزوج، ودعانى والد العروس لأن أفرغ بندقيتى على شرف هذه المناسبة، وكنت سعيدًا بأن أجامل هذا الضابط الذى كان صديقًا قديمًا لى، وبينما كانوا يطلقون بنادقهم للتحية، عدوت بحصانى إلى الحفل – وفق الطريقة

البدوية الأصيلة – وكبحت جماحه فجأة أمـــام العـــروس، وأطلقـــت بندقيتى صوب الأرض أمامها، وكان ما يدعو للدهشـــة هـــو كيـــف استطاع "بركة" – الحصان – فى اللحظة التى ســمع فيهـــا صـــوت البنادق أن يعدو ويحضر بى فى سرعة بالغة عند الموضـــع الملائـــم لإطلاق النار، فقد كان ذلك جزءًا من تدريبه.

الجمعة ١٣ أبريل: حضر إلىَّ أحد عبيد السيد إدريس يشكو مـــن مرض يعانى منه منذ شهرين، بدا كما لو كان عسر هضم يصـــاحبه قىء مستمر، أعطيته أثيرًا ممزوجًا بالسكر واللبن والأرز كـــدواء، وفى المساء أصبحت حالته أفضل.

وصل بوحليجا من "الهوارى" ومعه سبعة عشر جمـــلاً وناقـــة، وطلبت منه أن يكملها خمسة وعشرين كما اتفقنا من قبل.

زارنى العريس وحماه ليشكرانى على المجاملة التى قمتُ بها فى موكب الزفاف.

السبت ١٤ أبريل: أحضر بوحليجا باقى الإبل، وكان يعانى مـــن مأزق إرسال أحد معنا؛ فلم يكن يبغى إرسال ابنه أو حتى أحد عبيـــده فى هذه الرحلة الخطرة، التىَ قد لا يخرج منها أحد على قيد الحيـــاة، بينما فى المقابل كان هناك احتمال بعيد أن يكون القدر رحيمًـــا بنـــا ويدعنا ننجو، وفى هذه الحالة – رغم أنها قد تكون بعيـــدة الاحتمـــال بالنسبة إليـــه – فإذا لم يكن هناك من يمثله معنـــا، فكيـــف لـــــه أن يستعيد إبله أو على الأصح قيمتها؟ لأنه من الطبيعى أن يبيعهـــا فـــى نهاية الرحلة.

قضينا فترة بعد الظهر فى حزم الأمتعة، بينما أمضيت المساء فى جمع الملاحظات العلمية، أُصبح الطقس أكثر روعة، وكانت تلك هى الليلة الثالثة التى استطعتُ فيها رؤية النجم القطبى منذ أن وصلنا إلى هذه البقعة، وكنتُ قد عزمت ألا أترك "الكفرة" قبل أن أتمكن من رصده على الأقل فى ليلتين مختلفتين.

الأحد ١٥ أبريل: أنفقنا الصباح فى تحميل الإبل، وكان بوحليجا لا يزال يواجه مأزق إرسال رجل معنا، لكن طالما حصلت على الإبل فكان سيان عندى ما سوف يقرره.

كان العبد الذى كنت أعالجه مندهشاً من تحسن صحته، وجاء ليشكرنى، ولم يكن أحد أكثر اندهاشاً منى بما استطعت فعله.

فى الثانية بعد الظهر تحركت القافلة صوب "عزيلا"، وهى آخر آبار وادى "الكفرة" فى الجنوب، وكنا سنتوجه هناك "للتجهيز"، والذى تطلب بضعة أيام لاستكمال استعدادنا النهائى، كما اشتريت خروفين من أجل "بوزافار"؛ حيث لم يكن أحد منا قد قطع هذه الرحلة من قبل. كان كل رجالى يرتدون ملابس جديدة، ويبدون فى مظهر مبهج فى ملابسهم البيضاء النظيفة وأحذيتهم الحمراء، وقد نظفوا بنادقهم بعناية، وكانت تتألق وهى معلقة خلف ظهورهم، كما بدت معظم الإبل الجديدة نشيطة وقوية.

الاثنين ١٦ أبريل: أخذ عبدالله الحصان إلى "التاج" لتركيب حداو له؛ لأننى وجدت أن الأرض الصخرية كانت قاسية عليه، كما أرسلت صينية نحاسية إلى القائد كهدية زفاف، وأرسلت آخر ثلاث زجاجات من البوفريل إلى عبد السيد إدريس المريض.

تأخر رحيلنا؛ لأن دليلنا كان لا يزال مشغولاً مع القاضى حول بعض الأمور القانونية المتعلقة بالإبل.

الثلاثاء ١٧ أبريل: تناولت الإفطار فى "الجوف" عند سليمان بوماتارى مع زروالى، وعبد الله، والقائد، وصلاح، ومحمد بوتامنيا، وقد ظل الجميع يداعبون القائد؛ لكونه عريسًا جديدًا، ورفض أن يشاركهم تناول الأطباق المطهية بالبصل، ووجدتُ بوتامنيا يقول له وهو يغمز بعينيه " إنهن لا يسامحن عندما يكن صغارًا".

اشتريت أحد الهجن أو إبل العَدْو لاستخدامى الشخصى، ودفعت تسعة جنيهات ثمنًا له، وفى النهاية أصبحنا مستعدين لنبدأ فى اليوم التالى.

وبينما كنتُ أجمع آخر ملاحظاتى عن النجم القطبى، أصبح لدى أمل قوى بأننى سوف أنجح فى وضع "الكفرة" فى موضعها الصحيح على الخريطة. وكنتُ شغوفًا بالتحقق مما حدده رولفس عن موضع "الكفرة"، والتى قام بها اعتمادًا على ملاحظات رفيقه ستيكر فى "بوما"؛ "فالتاج" لم تكن قد بنيت فى زمن رولفس.

إلا أنه عندما جمعت ملاحظاتى الأولى عن "التاج" اكتشفت أنها لا تتفق مع نتائج ستيكر فى "بوما"، والتى تبعد نحو كيلومترين عن التاج بدرجة ٥٤ درجة صوب الشرق من الشمال الحقيقى؛[٣٥] لذا

---

(٣٥) يفرق الجغرافيون بين نوعين من اتجاه الشمال هما: الشمال الحقيقى " الجغرافى"، والشمال المغناطيسى. واتجاه الشمال الحقيقى ثابت لا يتغير، بينما الشمال المغنطيسى – الذى تستخدم البوصلة لتحديدة – يتغير من منطقة إلى أخرى نتيجة لما يعرف بالانحراف المغنطيسى للمنطقة، وعند معرفة قيمة هذا الانحراف يُعاد تصحيح قراءة البوصلة لتتوافق نتائجها مع الشمال الحقيقى. "المترجمان"

عزمت على ألا أترك "الكفرة" حتى أرصد عددًا كافيًا من الرصدات الآمنة تكفى لتلافى حدوث أى خطأ محتمل؛ فقد رصدت النجم القطبى بواسطة الثيودوليت على مدار ست ليالٍ مختلفة، وفق الضوابط التى ذكرها دكتور بول فى ورقته العلمية المستخلصة من نتائج الرحلة، والتى بيَّن فيها أن مدى الخطأ المحتمل لا يزيد عن دقيقة واحدة فى خطوط الطول أو العرض.

ووفقًا لنتائج ملاحظاتى، عندما تم استخلاصها بعد عودتى إلى القاهرة، وجدت أن "الكفرة" تقع على بعد نحو ٤٠ كيلومترًا جنوب الجنوب الشرقى من الموضع الذى حدده رولفس طبقًا لملاحظات ستيكر، كما وجدت أن منسوب "الكفرة" يكاد أن يكون على الارتفاع نفسه الذى سجله رولفس، البالغ ٤٠٠ متر "لبوما" عند منسوب أرض الوادى، ونحو ٤٧٥ مترًا " للتاج" عند حواف الوادى.

الفصل الخامس عشر

واحة أركينو المفقودة

«الأربعاء ١٨ أبريل: أخيرًا عثر بوحليجا على رجلين وافقا على أن يذهبا مع إبله هما: بوكارا وحميد، كانا فقيرين، وبدا فى عينيهما أن المال الذى سيجنياه أكبر من الخطر المنتظر».

أرسل سيد العبيد ثلاثة أفراد نيابةً عنه ليودعونا، وأحضروا منه خطاب وداع مسَّ قلبى. كما جاء بوحليجا ليسلم علينا، وفى اللحظة الأخيرة كانت هناك دموع فى عينيه، ولا أحسب أن سببها الخوف على إبله أو الرجال الذين أرسلهم معنا، فعلى الرغم من خلافنا حول الطريق، فقد ظللنا صديقين حقيقيين، كان بيننا ود واحترام متبادل.

أما رجالى فقد ودعهم أصدقاؤهم، كما لو كان ذلك هو آخر لقاء لهم. كان هذا الوداع هو أكثر الوداعات المؤثرة طوال هذه الرحلة. "ربنا يخلى السلامة ترافقكم...اللى مكتوب وهوه اللى هيحصل. ربنا يرشدكم للطريق الصحيح، ويحميكم من الأشرار". كان هناك قليل من ذلك اليقين بسلامة الوصول الذى يتملك أولئك الذين يذهبون وأولئك الذين يبقون عندما يكون الفراق لقضاء عطلة.

كانت هناك بعض الرعشة فى جُمل الوداع الأخيرة؛ فالكل يعلم ما قد مر فى الأيام الماضية والخوف الذى تعرض له الرجال.

وكنت أستطيع أن أخمن ما يجول بعقولهم؛ فبينما كنت مستثارًا بأفكار الواحات المفقودة، والسير فى طرق غير معروفة، والذهاب إلى المجهول، كانوا يفكرون أن هذه المرة قد تكون الأخيرة التى يصافحون فيها أصدقاءهم، حتى إنه كانت هناك نظرة شفقة تعتلى وجوه بعض أولئك الذين جاءوا ليودعونا ويدعوا لنا برحلة موفقة، كما لو كان دعاءهم لرجالٍ هالكين، ورغم هذا - فلأنهم بدو - فقد كانوا يشعرون أيضًا بأن ذلك مكتوب.

قرأنا الفاتحة - السورة الأولى فى القرآن الكريم - وختمناها بكلمة آمين، ثم تلا ذلك النداء لإقامة الصلاة...

كنا عند حدود وادى "الكفرة"؛ حيث تنتهى الواحة وتمتد الصحراء أمامنا، وتبادلنا الوداع عند هذا الموضع، وبينما كنا نعبر الوادى إلى الصحراء المنبسطة، نظرنا خلفنا صوب أشجار النخيل، كانت الشمس وقت الغروب وبدأ الليل يرخى سدوله، وصارت "الكفرة" ذاتها فى الضوء المتضائل تومض كما لو كنت تنظر إليها من ثقب كاميرا. ورجع أولئك الذين جاءوا لوداعنا، ولم يعودوا ينظرون خلفهم أكثر من هذا، بينما انطلقنا نحن صوب المجهول.

كنت متلهفًا على الرحيل من "الكفرة" حتى أجعل رجالى يحولون ذهنهم صوب المهمة التى تواجههم.

أخيرًا قمنا بالبداية الحقيقية؛ فكل شىء أمامى مجهول، ملىء بالغموض والسحر الكامن فى تلك المناطق من سطح الأرض، تلك التى لم يطرقها أى إنسان من العالم الخارجى.

بدأنا فى الرابعة والنصف ظهرًا، وتوقفنا فى الثامنة والربع مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة خمسة عشر كيلومترًا، كان الجو صحوًا وصافيًا، يخلو من الرياح. سرنا فوق رمال قاسية يكسوها حصى دقيق للغاية، ذات تموج طفيف، وبعد أن تركنا نخيل "عزيلا" و"الكفرة"، عبرنا نطاقًا من الحطب يشبه ذلك الذى فى "زيغن"، وفى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة دخلنا السريرة، وفى السادسة والنصف مساءً مررنا بتل صغير يشكل الحد الجنوبى لوادى "الكفرة"، وفى الثامنة والربع وصلنا إلى "حطية الحوش"، التى يميزها الحطب الجاف، الذى لابد من أنه كان أخضر فى يومٍ من الأيام. تركنا رجلين خلفنا ليجلبا حملين من هذا الحطب سوف يحملانه على إبل التبو.

أصبحت قافلتنا الآن تتألف من سبعة وعشرين جملاً وناقة وتسعة عشر فردًا هم: أنا، وزروالى، وعبد الله، وأحمد، وحماد، وإسماعيل، وسنوسى بوحسان، وسنوسى بوجابر، وحامد الزوىّ، وسعد العجيل، وفراج "العبد"، وبوكارا، وأخوه الصغير حميد، والجمَّال، وحسان، ومحمد دليلنا، وثلاثة من أفراد التبو.

مداخلة من مذكراتى:

الخميس ١٩ أبريل: بدأنا فى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهرًا، وتوقفنا فى السابعة والربع مساءً، قطعنا نحو أربعة وعشرين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى نحو ٣٢ درجة مئوية، ودرجة الحرارة الصغرى ١١ درجة مئوية، كان الجو صحوًا وصافيًا، مع بعض السحب البيضاء. هبَّت نسمات من الجنوب

الشرقى توقفت عند الظهر، بعد أن تركنا "حطية الحوش" دخلنا إلى السريرة مرة أخرى، وكانت عبارة عن امتداد مسطح من الرمال القاسية يغطيها الحصى الدقيق، وكانت تمتد شرق الحطية سلسلة من الروابى الرملية تكسوها أحجار بنية داكنة، وإلى الغرب منها توجد سلسلة أخرى مشابهة تبعد نحو أربعة كيلومترات.

فى الثانية والربع ظهرًا مررنا بنهاية "حطية الحوش"، وكان اتساع الحطية نحو كيلومترين، وفى الثالثة وخمس وأربعين دقيقة شاهدنا "جارة" على يسارنا تبعد نحو كيلومترين، وفى الخامسة مررنا بجارة أخرى تبعد نحو أربعة كيلومترات عن يميننا، وفى السادسة والنصف أصبحت الرمال أنعم، مع وجود رقع من الأحجار الحمراء والسوداء، وأصبح السطح متموجًا.

تأخرنا فى البداية؛ فقد انتظرنا الجملين اللذين تركناهما خلفنا، واستثمرنا ذلك الوقت فى جمع الحطب، كان الجو حارًّا للغاية، وسريعًا ما شعرت الإبل بالتعب بسبب الحرارة. كانت المنطقة التى نعبرها تشبه تلك التى توجد بين " بوطفل " و"زيغن"، وبمعاونة هجينى الجديد أصبح من السهل علىَّ أن أتقهقر خلف القافلة لأجمع الملاحظات دون أن أثير الشبهات، وكان علينا أن نخيم مبكرًا بسبب حالة الإبل.

الجمعة ٢٠ أبريل: بدأنا فى الثانية صباحًا، وتوقفنا فى التاسعة والنصف صباحًا، وعدنا للسير مرة أخرى فى الثالثة والنصف بعد الظهر، وتوقفنا نهائيًّا فى الثامنة مساءً، قطعنا ثمانية وأربعين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بينما

بلغت درجة الحرارة الصغرى ١٠ درجات مئوية، والتى قيست بعد منتصف الليل بنصف ساعة، كان الجو صحوًا وصافيًا، مع وجود رياح جنوبية شرقية باردة فى الصباح الباكر، توقفت ظهرًا، ثم عادت للهبوب من جديد فى الرابعة بعد الظهر، وفى المساء تغير اتجاهها إلى الشمال الشرقى.

فى الرابعة صباحًا اجتزنا منطقة متموجة تنتشر بها الأحجار، وفى السادسة دخلنا السريرة المسطحة مرة أخرى، وفى الخامسة وخمسين دقيقة أشرقت الشمس. وحينئذ كانت تمتد على يميننا ويسارنا تلال رملية منخفضة على بعد يتراوح بين ٨ و١٠ كيلومترات، وفى الصباح شاهدنا أحد طيور السنونو،[٣٦] وبعد الظهر شاهدنا أحد الصقور، وفى الرابعة وعشرين دقيقة عبرنا كثبانًا رملية منخفضة، وشاهدنا جارة سوداء عبارة عن رابية طويلة منخفضة تقع فى اتجاه ١٠ درجات جنوب الجنوب الشرقى.

كان هذا أسوأ أجزاء الرحلة فى السفر – حتى الآن – إذا ما وضع فى الاعتبار ظروف درجة الحرارة؛ ففى منتصف اليوم كان السير صعبًا جدًّا؛ لأن الجو كان حارًّا للغاية، وفى المساء كان الجو شديد البرودة؛ لذا كنا نبدأ سير بعد منتصف الليل ونستريح خلال حرارة النهار. وكنا نعانى مشاكل مع الأمتعة بسبب صعوبة الحزم الجيد والتحميل فى الظلام. ومع ذلك فقد سافرت الإبل بشكل أفضل فى هذه الأيام.

---

(٣٦) يسمى أيضًا "بالخطاف"، وهو طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل. "المترجمان"

كان هذا هو اليوم الرابع من الشهر القمرى، والبدو يراقبون حالة الطقس فى هذا اليوم، لاعتقادهم أن طقس باقى الشهر سوف يكون مشابهًا لهذا اليوم، وقد أثبت هذا الأمر صحته خلال هذه الفترة.

السبت ٢١ أبريل: بدأنا في الثانية والنصف صباحًا، وفى السادسة صباحًا مررنا بمنطقة صخرية وتلالية استمرت لنحو ١٢ كيلومترًا، ثم مررنا على يسارنا بجاره تسمى " جارة كودى"، وفى التاسعة صباحا دخلنا مرة أخرى إلى السريرة، مع وجود كثبان رملية بعيدة من اليمين واليسار.

بعد أن بدأنا بقليل سقط أحد الإبل مريضًا، ورفض أن يقوم حتى بعد أن وضعت عنه كل حمولته؛ لذا تركنا بدويين خلفنا ليستدميانه ولكن جهودهما لرعايته ضاعت سدى، وكان يجب أن يُذبح، وقد حرمت على البدو أكل لحمه، ولكن بعد ذلك، عند توقف الظهيرة قام اثنان من التبو بإلقاء حمولة جمليهما، وعادا ليجففا لحمه ويتركاه لحين عودتهما من "العوينات"، على أن يلحقا بنا بعد ذلك، وقد أخرنا هذا الأمر نحو الساعة.

فى الليلة السابقة نام الرجال قليلاً، وكانوا متعبين للغاية بعد شروق الشمس، خاصة من تأثير الحرارة الشديدة التى أجهدت كل من الرجال والإبل؛ لذا توقفنا من الظهر حتى الساعة الرابعة، حيث كانت قافلة مجهدة للغاية تلك التى بدأت مرة أخرى فى الرابعة والنصف، وتحركت ببطء للأمام.

وعلى الرمال رأيت صقرين وعُشًا حديثًا للطيور.

الأحد ٢٢ أبريل: سافرنا فوق رمال خشنة منبسطة، كما كانت توجد بها بعض الروابى الرملية، التى يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة وعشرة أمتار، وكانت تكسوها صخور سوداء. وفى الخامسة والنصف صباحًا رأينا سلسلة من التلال على يسارنا تمتد من الشمال إلى الجنوب الغربى، وفى الثامنة صباحًا دخلنا منطقة تلال وعرة، استمرت طوال اليوم، كانت تسمى "وادى المار اهيج"، كما عثرنا فى طريقنا على بيض نعام محطم.

كان تحميلنا أفضل هذا اليوم، إلا أن الرجال كانوا متعبين، وسقط الكثير منهم محاولاً اقتناص نصف ساعة من للنوم، ثم لحقوا بالقافلة عندما استيقظوا.

أحضر لى بوكارا نسرين صغيرين جلبهما من عشهما الذى كان فوق قمة إحدى الجارات، وأمرته أن يعيدهما، وتابعته حتى فعل ذلك.

مرض هجينى، وأصبح لزامًا أن يسير بعد الظهر دون حمل أو حتى سرجٍ.

فى أثناء توقف الظهيرة، سقط الرجال نيامًا على الفور وتصاعد غطيطهم بقوة؛ فهذا النمط من الترحال عمل قاس وممل، لكننا اعتدنا عليه.

الاثنين ٢٣ أبريل: بدأنا فى الثانية والنصف صباحًا، وتوقفنا فى التاسعة والربع صباحًا، وعدنا للسير مرة ثانية فى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا فى التاسعة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ستة وأربعين كيلومترًا.

كانت تلك أكثر مراحل الرحلة إجهادًا، من بين كل ما قطعناه حتى الآن؛ فلمدة ثمانية أيام لم يُتح لنا سوى أربع ساعات للنوم كل يوم، كما كنا نبدأ بالكاد قبل الرجال الذين كانوا يقتنصون نصف ساعة من النوم، تاركين الإبل تتبع الوهج الشاحب لمصباح الدليل، ولم أستطع السماح لنفسى بهذا الامتياز بسبب قلقى على معداتى العلمية؛ فالتحميل الذى يتم فى الظلام غير آمن، وانزلاق الأربطة قد يعنى تحطيم المعدات أو الكاميرات.

وفى هذه الأثناء كان يتوقف جمل أو اثنان ويبرك ويأبى النهوض، وعندها يأتى أحد التبو ويضغط بإبهامه على أحد الأوردة الكبيرة فى جبهة الجمل فيعالجه، ويبدو أن هذا الأمر يريح الدابة.

أمضينا وقتًا عصيبًا فى عبور الكثبان الرملية العالية شديدة الانحدار، عندما برز فجأة أمامنا جبل مثل قلعة "ميدفيل" المختفى نصفها فى الضباب، وبعد بضع دقائق، بزغت الشمس فوقه لتحيل ذلك اللون الرمادى البارد إلى الوردى والقرنفلى الدافئ.

تركتُ القافلة تمضى، وجلستُ لمدة نصف ساعة فوق الكثبان الرملية، وسمحت لمشهد هذا الجبل الأسطورى أن يفعل ما يشاء بعقلى وقلبى؛ فقد وجدت ما أتيتُ للبحث عنه، تلك هى جبال أركينو.

كانت لحظة بارزة طول الرحلة، فأى مصاعب تحملتها، وأى مصاعب مازالت تنتظرنى كانت لا تعنى شيئًا عند مقارنتها بالبهجة التى تعترينى الآن أمام مرأى هذه التلال، لم يكن الأمر أشبه بالذهاب للبحث عن كنز مخفى يجب أن تحفر لتستخرجه من الأرض، فقد كان

يقف هناك منتصبًا عاليًا أمامى؛ لذا كنت أمتع عينى برؤيتـــه، حتـــى إننى حاولت استعادة لحظة اكتشافه، كنا نتهادى أعلى وأسفل، ونحــن نعبر الكثبان الرملية فى الساعات الرمادية الباردة التى تسبق الفجــر، وفجأة عند الكثيب الأخير بدا الأمر كأن أحدهم يسحب ستارة عن هذه التلال السحرية، التى لم أرَ شبيهًا لها فى الصحراء الليبية كلها، منـــذ أن تركت "السلوم" حتى وصلت إلى هذه البقعة، لم يكن هناك شـــىء يشبه جبال "أركينو"، تملكتنى رؤيته حتى شعرت لبرهة أننى لم أعـــد فى الصحراء بعد الآن.

الثلاثاء ٢٤ أبريل: كان قد مــرَّ ١١١ يومًـــا علـــى مغـــادرتى "السلوم"، ونحو ١٤٠ يومًا على مغادرتى " القاهرة".

اجتزنا منطقة وعرة، رمالهـــا تكســـوها الصـــخور، وأرضـــها متموجة. وفى الخامسة صباحًا دخلنا منطقة كثبان رمليـــة كثيفـــة، وبعد هذه الكثبان عادت الأرض صخرية من جديد، ثـــم بعـــد ذلـــك أصبحت رمالاً قاسية يكسوها الحصى. كان هنـــاك تـــل كبيـــر مـــن الأحجار الرملية يبلغ طولـــه ٢ كيلومتر تقريبًا، وارتفاعه مائة متر أو نحو ذلك تقريبًا إلى الشمال من جبل "أركينو"، وعلى بعـــد مائـــة متر فقط منه.

كان هناك شروق رائع للشمس، بظلالها الحمراء والذهبية التـــى تخترق السحب الرمادية، وسرعان ما توقفت الرياح الباردة، وأصبح الجو حارًّا وخانقًا.

وجبل "أركينو" عبارة عن كتلة من الجرانيت، تجوى[٣٧] سطحها الرمادى، وتحول إلى اللون البنى الضارب إلى الحمرة، وهو يرتفع فى اتساق لنحو ٥٠٠ متر من سطح الصحراء، ويتألف من سلسلة من الكتل المخروطية، التى تمتد معًا دون أى فاصل بينها. اقتربنا منه عند أقصى نقاطه الغربية، وعندما وصلنا صوبه، لم نستطع أن نقرر إلى أى مدى يمتد صوب الشرق، فعند أبعد نقطة شرقًا استطعنا رؤيتها فى هذا الاتجاه ارتفع ليصبح قمة جبلية واختفت معالمه فى الأفق، سرنا حول الركن الشمالى الغربى لكتل الجبل، ووصلنا إلى مدخل وادٍ كان يجرى صوب الشرق، وكانت توجد شجرة وحيدة فى هذا الفضاء، يسميها القرعان[٣٨] "أركينو"، ومنها استمدت الواحة اسمها. خيمنا بالقرب منها، وكانت تلك بقعة سيئة؛ لأن "قرادة الجمل"، التى تعيش فى ظل الشجر جاءت – حرفيًا – تعدو بالعشرات عندما اقتربت إبلنا؛ لذا اضطررنا إلى أن نخيم على مسافة ما من

---

(٣٧) التجوية: هى ظاهرة طبيعية تحدث فى الصحراء نتيجة لزيادة مدى التغير الحرارى اليومى وتأثر الصخور بهذا الأمر؛ ففى النهار تلهب الشمس بأشعتها سطح الأرض فترتفع درجة حرارتها، بينما فى الليل تنخفض درجة الحرارة انخفاضًا كبيرًا، وبالتالى تنخفض درجة حرارة هذه الصخور، ولما كانت الصخور ما هى إلا معادن تتمدد وتنكمش بالحرارة، ونظرًا لأنها رديئة التوصيل للحرارة، فإن تأثير ذلك التغير الحرارى والتمدد الناجم عنه ينحصر فى مستويات الصخور العليا دون السفلى، ويترتب على ذلك ضغوط تؤدى إلى إحداث تكسر بهذه الصخور، وفى الغالب الأعم يكون موازيًا لسطوحها. " المترجمان "

(٣٨) إحدى القبائل التى تسكن المنطقة، وجاءت تسمية قرعان من قرع كما ورد فى لسان العرب، وقيل إن جدهم الأقرع بن جالس الصحابي الجليل رضي الله عنه، وقد ورد اسم القرعان ضمن القبائل القحطانية العربية، ويتركز معظمهم في تشاد حيث تعلموا من اختلاطهم بالقبائل الزنجية الموجودة هناك الرطانة بالرغم من عروبتهم، كما ينتشرون فى شمال السودان خاصة في قرى "الطمبة" و"أوقر" و"أبوراى" و"الزغفروا" و"حلة دومي أم سيال". "المترجمان"

الشجرة، طالما أن الحشرة بدت أنها لاتبالى بالتخلى عن ظلها حتى لكى تهاجم الإبل.

وفى إحدى المرات التقطت إحدى هذا القرادات، وكانت تبدو مثل قطعة من الصخور المتحجرة. ضربتها بعصا فصدر عنها صوت يشبه صوت قطعة من الصخور. استدرت وتظاهرت بأننى مشغول عنها بشيء آخر، وتطلب الأمر ما بين ثلاث وأربع دقائق قبل أن تصدر عنها أية دلالة على الحياة؛ فالقرادة تعلم بالغريزة أن أمانها يكمن فى تظاهرها بأنها متحجرة، ثم انطلقت بلا مقدمات مثل البرق. ولا تجد هذه القرادات ما تحيا عليه عندما لا يكون هناك إبل؛ فهى تمتص دماء الإبل حتى تنتفخ، وعندها تستطيع الحياة، ويقول البدو إنها تعيش على ذلك أعوامًا، لكن بكل تأكيد تعيش بضعة أشهر.

بمجرد أن وصلنا أرسلنا الإبل إلى الوادى لتشرب وتعود بمؤن المياه التى كنا فى أمس الحاجة إليها.

وبعد ساعتين من نصبنا مخيمنا وصل رجلا التبو اللذان تركناهما خلفنا، ومعهما بعض لحم الجمل المذبوح، الذى أكلوه بنهم على العشاء، بينما ظلت الرياح الحارة العاصفة تهب طوال فترة ما بعد الظهر. وبينما كنت أستريح فى خيمتى تنبهت فجأة على شيء يداعب أذنى، حاولت أن أزيحه بعيدًا، دون محاولة اكتشاف ما هو، وفى هذه اللحظة هبَّت عاصفة ريح نفخت أحد حوائط خيمتى، والذى كان مرفوعًا للتهوية، وشعرت أن شيئًا ينساب سريعًا عبر جسدى، وحاولت القبض عليه غريزيًّا ولحسن الحظ أننى أخطأته، فقد كان ثعبانًا طوله نحو أربع أقدام، واستطاع رجالى الإمساك به بعد ذلك وقتله.

بعد الظهر نظَّم الرجال مسابقة فى التصويب، وبدأ الأمر مملاً، ولكن زادت إثارته عندما رصدتُ جنيهًا تركيًّا "مجيديا" كجائزة، وفاز سنوسى بوجابر فى المسابقة رغم قصر نظره، وقد عبَّر حميد عما يجيش فى قلب باقى المتسابقين عندما قال " إنه المجيدى الذى تلاعب بعواطفى وجعلنى عصبيًّا، فكم أصبت العلامة من قبل".

قمتُ بجمع الملاحظات والتقطتُ بعض الصور، وبالمصادفة عالجتُ أسنان الدليل.

وفجأة ظهر من الوادى بعض القرعان، وهم قبائل السود فى الجوار، ومكثوا ليتعشوا مع رجالى، لم يكن أحد قد حلم بحضورهم حتى ظهروا، فقد بدا الجبل قفرًا ومهجورًا، ولا يمكن للمرء أن يشك أن فى داخله يمتد وادٍ خصب مأهول بالسكان، وللحق فإن "أركينو" ليست مسكونة على مدار العام؛ ففى الوادى نباتات جيدة، وفى الماضى كان البدو، والتبو، والقرعان يُحضرون إليها إبلهم فى موسم الرعى، وكانوا يغلقون مدخل الوادى بالصخور، ويتركون الإبل هناك بلا متابعة لمدة ثلاثة أشهر، وعندما يعودون لاستعادتها - كما قال محمد الدليل - فإن الدهن فوقها يصبح هكذا، وضم قبضتيه ووضعهما فوق بعض.

الأربعاء ٢٥ أبريل: أحضرت لنا عائلة القرعان التى تقطن فى هذا الوادى ضيافة تتكون من: خروف، ولبن، وسمن - وهو زبد فى صورة سائلة بسبب ارتفاع درجة حرارة الجو - كما قاموا أيضًا بدفع غنمهم نحو مخيمنا حتى تحلب من أجل رجال القافلة.

بعد الغداء ركبت إلى "وادى أركينو" مع زروالى وبوكارا، وهو عبارة عن منخفض أو وادٍ ضيق متعرج، يمتد لنحـــو ١٥ كيلـــومترًا داخل الجبل، به أعشاب وشجيرات وبعض الأشجار العارضة ، زرنا كوخ القرعان؛ حيث التقطتُ صورًا لفتاة وصبيين من أفرد الأســـرة، وكان الصبيان يرتديان ثوبين أبيضين، يرمزان بأنهما من أبناء أحـــد الشيوخ، وعندما عدتُ إلى المخيم أرسلت هديـــة للأطفـــال الثلاثـــة، عبارة عن قماش ومناديل وأرز.

كانت ليلة مقمرة وجميلة، وقررت أن نمضى ثلاثة أيام أخـــرى فى "أركينو"، بسبب عشب الرعى الجيد هناك، كما بدت الإبل متعبـــة من الرحلة القاسية التى قطعتُها، وقد أصبح هجينى أفضل، والتقطـــتُ بعض الصخور من أجل العينات الجيولوجية، الأمر الذى أثار ارتياب بعض رجالى؛ فقد ظنوا أنه يوجد ذهب فـــى تلـــك الصـــخور التـــى جمعتها، وإلا لما كبدتُ نفسى مشقة حملها عند العودة للوطن.

الخميس ٢٦ أبريل: فى "أركينو"، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٦ درجة مئوية، ودرجة الحرارة الصغرى ٩ درجات مئوية، كـــان الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح قوية وحـــارة مـــن الجنـــوب الشرقى، لدرجة أنها أدت إلى انهيار الخيمة مرتين.

أرسلنا الإبل للشرب والرعى. كان يومًا يجعلك تتصبب عرقًـــا، فقد زادت درجة الحرارة عن ١٠٠ درجة فهرنهايت داخل الخيمـــة، وقلّت قليلاً عن ذلك فى الظل. وجمع الملاحظات كان عسيرًا بســـبب الرياح، ولم أبغِ أن أحتمى خلف خيمتى بينما أتركهم للخوف الحتمـــى الناجم عن إثارة الفضول والريبة. فى المساء توقفت الريـــاح وأعـــاد

إلينا المساء البارد الجميل وقمره الرائع ما أنفق في حرارة اليوم القائظ، وكان هناك رقص وغناء من بوكارا وبعض الرجال حتى منتصف الليل.

الجمعة ٢٧ أبريل: كانت "أركينو" هي أولى الواحتين المفقودتين اللتين أسعدني الحظ أن أحدد موضعهما على الخريطة؛ فقد كان هناك اعتقاد قديم أن هاتين الواحتين تقعان بالقرب من الركن الجنوبي الغربي لمصر، ولكن الموقع الإحداثي الذي بينته بعض الخرائط كان يبعد نحو ٣٠ إلى ١٨٠ كيلومترًا من موضعها، كما لم يصفهما أحد من واقع زيارته الفعلية، وقد بينت ملاحظتي أن "أركينو" تقع شمال خط عرض ٣٢" ١٢' ٢٠° وشرق خط طول ١٥" ٤٤' ٢٤° وعلى ارتفاع نحو ٥٩٨ مترًا من سفح الجبل؛ لذا فهي تقع داخل الحدود المصرية.

أما القيمة الحقيقية لهذه الواحة - كما "للعوينات" أيضًا - فتكمن في الإمكانات التي تتيحها لاكتشاف الركن الجنوبي الغربي من مصر، الذي لم يصل إليه أحد حتى الآن سواء من الجيش أو شركات البترول أو الرحالة، كما لا يعلم أحد على وجه اليقين مصدر المياه في هذا الجزء من الصحراء الذي يمكن الاعتماد عليه؛ فالماء في "أركينو" - على ما يبدو - ثابت، وصالح للشرب، وذلك على الرغم من أنه ليس صحيًّا للبشر كما كان المرء يأمل. ومن المتصور أن تثبت "أركينو" قيمتها الإستراتيجية في المستقبل، استنادًا إلى أنها تقع تقريبًا عند نقطة التقاء حدود مصر الغربية والجنوبية.

وتختلف كل من "أركينو" و"العوينات" عن الواحات الأخرى بالصحراء الغربية في مصر، في أنهما ليستا منخفضين في الصحراء

يستمدان ماءهما من المياه الجوفية، بل إنهما منطقتان جبليتان، حيث يتجمع ماء المطر فيهما فى أحواض طبيعية فى الصخور.

وسلاسل "أركينو " الجبلية - كما رأيتها - تمتد لنحو ١٥ كيلومترًا من الشمال إلى الجنوب، ونحو ٢٠ كيلومترًا من الشرق إلى الغرب، ولكن لم تكن هناك فرصة لاستكشافها فى اتجاه الشرق؛ لذا لا أستطيع القول ما إذا كانت تمتد فى هذا الاتجاه أبعد مما حددت، واستطعت فقط ملاحظة ما أمكننى رؤيته من الصحراء عند السفوح الغربية للجبل، وربما كانت سفوحه الشرقية تنساب لتصبح سلاسل تلالية بعد ذلك؛ حيث تمتد جبال العوينات أيضًا صوب الجنوب، وهناك فرصة لمزيد من الاستكشاف للجهة الشرقية لكلا هاتين الكتلتين الصخريتين مقارنةً بما كنتُ قادرًا على فعله بما لدى من الوقت وموارد تحت إمرتى.

وأقرب نقطة معلومة "لأركينو" و"العوينات" صوب الشرق أو بالأحرى الشمال الشرقى هى واحة " الداخلة"، التى تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر، ويقال إن هناك طريقًا كان يربط مصر وهاتين الواحتين، ولكن رحلة من "الداخلة" إلى "أركينو" و"العوينات" بالقافلة، قد تستغرق على الأقل أربعة عشر يومًا، وقد يكون من العسير القيام بها.

الفصل السادس عشر

واحة العوينات المفقودة

«السبت ٢٨ أبريل: بدأنا فى التاسعة والنصف مساءً لنقضى أول ليلة من السير المتواصل، ونتوقف فى السابعة من صباح يوم ٢٩ أبريل، قطعنا نحو ٤٠ كيلومترًا، ظل الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح حارة شديدة من الجنوب الشرقى طوال اليوم، واستمرت الرياح تهبُّ من الاتجاه ذاته طوال الليل، وإن أصبحت دافئة أكثر من كونها حارة. وكانت الأرض من نوع السريرة، ذات صخور كبيرة، أعاقت تقدم الإبل، وفى السادسة صباحًا وصلنا إلى الركن الغربى من جبل "العوينات"، وخيمنا بعد ساعة من ذلك».

مرّ اليوم فى هدوء؛ خاصة أثناء وقت الظهيرة من أجل رحلة المساء القادمة، ومع بداية المساء أرسلنا الرجال ليحضروا الإبل من رعيها. واستأجر بوكارا جملاً من التبو، ليريح جمله؛ لأنه أراد أن يكون قادرًا على بيعه بسعر مرتفع فى نهاية الرحلة، كما استأجرت أنا ثلاثة من أفراد التبو وإبلهم ليرافقونا، ولكن ليس للسبب ذاته، فقد كنا نحتاج إلى وسائل نقل أخرى، نظرًا لأن رحلتنا من "الكفرة" بيَّنت أن حمولتنا كانت ثقيلة جدًّا؛ فالإبل سرعان ما أصبحت مجهدة.

فى الساعة الثامنة مساءً أحضرنا الإبل، وبدأنا فى التحرك بعد ساعة ونصف الساعة من ذلك. كانت حمولتها خفيفة هذه المرة؛ لأننا لم نصطحب معنا مياهًا من "أركينو"؛ فالمياه هناك كانت سيئة للجهاز الهضمى بالإضافة إلى أن مذاقها كان غير مستساغ ، كما كان لدينا بين الرجال ثلاث حالات سيئة من الإصابة بالدوزنتاريا، امتطى المرضى الثلاثة الإبل منذ البداية، بينما أخذ باقى الرجال دورهم فى أثناء الليل.

بدأت القافلة وأفرادها فى أفضل مزاج، وفى إحدى الفترات الفاصلة، توقف أحد الأفراد ذوى الروح المرحة وبدأ فى الغناء، وخلال لحظة اصطف نحو نصف دستة منهم بجواره، وصار الكل يغنى، ويضرب الأرض بقدميه ويصفق بيديه فى إيقاع مشترك، بينما كان ركب الإبل يمضى، وكانت كلمات الأغنية دائمًا واحدة:

"إن كان عزيز علينا لنزوره

حتى لو كان بعيد الدار"

وتنطق بلهجة قوية، تختلف فى شطريها، وكما ميزتهما فمن الممكن ترجمة هذين الشطرين هكذا، دون أية محاولة لجعلها تلائم الإيقاع الموسيقى الذى قد يكون مطلوبًا ليكتمل التأثير لدى المستمع الغربى: " أيها المحبوب عيننا تسعى خلفك، حتى ولو كانت خيامك بعيدة".

مرة تلو الأخرى تكررت الأغنية، حتى انتهى العرض فى صيحة مفاجئة، وكنت أنا كل جمهور هذا العرض الصغير، أجارى

الإيقاع بسوطى، وعندما انطلقت صيحتهم الأخيرة، صحتُ " فرغوا البارود " بمعنى " أطلقوا بنادقكم"، وكانت إشارة إطلاق الابتهاج من البنادق، وبعدها اتخذنا أماكننا فى القافلة ومضينا فى بهجة.

إن السير ليلاً له مميزاته؛ فالوقت يمر أسرع مقارنة بينه وبين النهار – ما لم يكن المرء مجهدًا للغاية – والنجوم صحبة مبهجة لأى محب للطبيعة. وفى الأفق أمامنا كانت تلوح الكتل الداكنة لجبال "العوينات"،(٣٩) ومن الأسهل كثيرًا أن تسير وأمامك مقصد واضح، من أن تسير فوق سطح الصحراء المنبسط؛ حيث تشبه كل نقطة فيه أية نقطة أخرى، ويظل الأفق دائمًا على المسافة ذاتها التى تبعث على الجنون، اقتربنا بثبات نحو الجبال حتى ارتفعت الشمس فوقها، لوَّنت وذهَّبت ذراها، وألقت على الصحراء ظلاً ثقيلاً تتراجع حوافه باطراد صوب سفوح الجبال، بينما كنا نقترب منه من الاتجاه الآخر، وبعد فترة وجيزة من شروق الشمس أصبحنا فى مواجهة الجانب الشمالى الغربى من الجبال، وبعد ساعة من ذلك خيمنا بالقرب من حوائطه الصخرية، وعند هذه النقطة كانت هناك فجوة فى جانب الجبل، وفى نهايتها الداخلية كان يوجد كهف به بئر، نصبنا خيامنا عند فم هذا اللسان الصغير لبحر الرمال، وبعد عشر دقائق من ذلك غرقنا كلنا فى النوم، كانت تلك هى أول ليلة كاملة من السفر، وكان لدينا بعض النوم المتأخر علينا أن ننجزه، ورغم هذا، لم ننم بالقدر الذى كنا نتوقعه؛ فقد استيقظنا قبل الظهر، وتغير انتباهنا إلى الطعام؛ فمقولة

(٣٩) يبلغ ارتفاع هذا الجبل نحو ١٩٠٧ أمتار، ويقع معظمه خارج حدود الأراضى المصرية." المترجمان "

الفرنسيين "إن من ينام يشبع" قد تكون صحيحة وفق بعض الظروف، لكننا فى الصحراء نجد الأمور مُرضية عندما نكون قادرين على فعل الشيئين معًا؛ فقد كنا جميعًا نجد متعة بالغة فى شواء أجزاء من الخروف الذى أحضره محمد كضيافة لنا من "العوينات".

أمضيت بقية اليوم فى زيارة البئر الموجودة داخل الكهف، وجمع الملاحظات، والتطلع لما يحيط بنا؛ فعند هذه النقطة كان الجبل يرتفع على شكل جرف صخرى، مع وجود كتل من الصخور المستديرة، الضخمة والصغيرة، التى تتكوم قبالة سفوحه. والصخور التى تُكوِّن هذا "التابرى" - كما يسميه الجيولوجيون - قد نحتت بفعل سنوات من عمل الرياح والرمال المنجرفة التى أحالتها إلى شكل كروى مصقول، ربما كان العمالقة فى أيام البطولة يستخدمونها فى مقاليعهم ليقتلوا بها الوحوش أو ككرات فى بعض الألعاب الضخمة.

كانت العين أو البئر تقع على بعد بضعة أمتار من المخيم، داخل تجويف فى الجدار، ومسقوفة بصخور ضخمة، وهى عبارة عن بركة من الماء المتجدد الذى يظل باردًا نتيجة لحمايته من الشمس. والصحراء فى هذه المنطقة من العالم تعرف نوعين من الآبار: العين وهى بالمعنى المحدد للكلمة ينبوع، والبئر أو الماتان وهو عبارة عن موضع يمكن الحصول منه على الماء عن طريق الحفر فى الرمال. ونسمى آبار "العوينات" عيونًا، نظرًا لعدم وجود كلمة أفضل على الرغم من أنها ليست ينابيع، لكنها مخزون فى الصخور حيث تتجمع مياه الأمطار.

ويقال إنه يوجد فى "جبال العوينات" سبع من هذه العيون، وقد تمكنت من رؤية أربعٍ منها قبل أن أعاود التحرك صوب الجنوب. كما

سمعت أيضًا عن وجود بئر أو بئرين فى الواحة، ولكننى لم أرهما.

فى المساء كان المخيم مليئًا بالحياة والبهجـــة. وغنـــى الرجـــال ورقصوا كأن لم يكن هناك أيام مملة من الرمال الســاخنة والريــاح اللاذعة التى تعدو خلفهم وتنتظرهم.

الاثنين ٣٠ أبريــل: استيقظت مبكرًا، وذهبــت مــع زروالـــى، وعبدالله، ومحمد، وملكونى – من التبو – إلى العين الكبيرة الموجودة فوق الجبل، كان التسلق شاقًا للغاية، وبعد ســاعة ونصــف الســاعة وصلنا إلى العين، وكانت زاخرة بكمية وفيرة من الماء العذب يحيطه فى مشهد رائع غاب رفيع وطويل، وقد أخذت بعضًا من سيقانه معى لكى أصنع منها مباسم لغليونى؛ فهى تعطى للدخان مذاقًا لطيفًا.

مع بداية المساء امتطيتُ هجينى وخرجتُ مع ملكونى وسنوســى بوحسان وسعد لنستكشف الواحة، كانت ليلة مقمرة بها نســمات مــن الهواء الدافئ الذى كان يهب من الجنوب الشرقى، ولمدة أربع ساعات ظللنا نسير فوق سريرة وعرة بمحاذاة الركن الشمالى الغربــى مــن الجبل، وفى منتصف الليل دخلنا واديًا به سلسلة مــن الــتلال قليلــة الارتفاع، وكان قاع الوادى تكسوه الرمال الناعمة التى تنتشر فوقهــا الصخور الكبيرة التى جعلت التقدم عسيرًا على الإبل، وبعــد ســاعة عندما أصبحت أرواح الرجال وشجاعتهم – كما يقال – فى أدناهــا، توقفنا لبضع دقائق كى نحتسى الشاى القوى من "الترموس" الذى كان معى، ثم تقدمنا بعد ذلك، ولكن معنوياتنـــا كانــت علـــى أيــة حــال منخفضة. كان هناك شىء سحرى يتعلق بهذه الليلة وضــوء القمــر وتلك الجبال، يجعل منها تجربة تثير الخيال وتسمو بالروح. حــدثت

نفسى بذلك، لكن بدا أن الرجال قد أصابهم بعض هذا الشعور أيضًا.

فى الخامسة مساءً انفتح الوادى على سهل متسع من السريرة المستوية، بالإضافة إلى بعض التلال التى تبعد نحو عشرة أو خمسة عشر كيلومترًا صوب الشمال الشرقى. استدرنا بشدة صوب الجنوب حول أنف الجبل، وفى الفجر توقفنا من أجل صلاة الصبح.

بركت الإبل ووقفنا على الرمال ووجهتنا صوب مكة المكرمة؛ فعندما يصلى المسلمون فإنهم يقفون فى حضرة الله – سبحانه وتعالى– وليس كما يقول بعض الأفراد المضللين فى حضرة سيدنا محمدﷺ، الذى لا يعد إلهًا بل هو نبى، وأول أساسيات الصلاة هى نظافة الجسد والقلب والروح، وفى الصحراء فإن نظافة الجسد تصبح رمزية طالما أن الماء من الصعب الاستغناء عنه. فنقوم "بالتيمم" حيث نأخذ الرمال بأيدنا ونحكُّ بها كل يد وذراع، ثم نمرره بنعومة فوق وجوهنا، وبأكفنا المبسوطة وأذرعنا المرفوعة نتلو صلاة محددة، ثم نسجد حتى تلمس جباهنا رمال الصباح الباردة.

فى الصحراء الصلاة ليست طاعة عمياء لعقيدة دينية، بل إنها خبرة غريزية للمرء وتجربة تصالح مع أعماق ذاته؛ فالصلاة فى الليل تجلب الهدوء والسكينة، وفى الفجر عندما تدب الحياة من جديد فى جسد المرء، فإنه يتوجه – متلهفًا – إلى الخالق ليقدم اعترافه وعرفانه المتواضع بجمال العالم والحياة، وينشد إرشاده فى اليوم المقبل؛ فالمرء يصلى إذن ليس لأنه ملتزم بهذا، بل لأنه محتاج إلى هذا.

فى الساعة السابعة تمامًا وجدنا أنفسنا ندخل واديًا عريضًا يتجه صوب الجنوب بانحراف قليل صوب الشرق، وترتفع الجبال العالية

على جانبيه، وكان قاع الوادى منبسطاً مثل اللوحة المرسوم عليها باقات من العشب، التى تتخللها هنا وهناك أشجار السنط والشجيرات الصغيرة التى تعطى أوراقها عبيرًا أشبه بعبير أوراق النعناع عند هرسه، وفى الفواصل كانت الأرض تكسوها نباتات الحنظل الزاحفة، بأوراقها الخضراء المنقطة بكرات صفراء رائعة تشبه الجريب فروت، ويصنع القرعان والتبو من هذه الثمار "الأبرا"؛ فهم يغلون البذور بشدة حتى يتخلصوا من مذاقها المر ثم يطحنونها مع البلح والجراد فى هون خشبى، وتعد "الأبرا" طبقهم الرئيسى.

لمدة ثلاث ساعات ظللنا نصعد الوادى، وفى العاشرة خيمنا ونحن نعانى من القيظ والتعب، ولكننا كنا مسرورين. تناولنا وجبة جيدة من الأرز، وشربنا أكواب الشاى الثلاثة، ثم ذهبنا للنوم فى ظلال سلاسل الجبال، كانت إغفاءة غير مريحة، بسبب هجوم أسراب الذباب، وتحرك ظل هذه الحافة، الأمر الذى جعل كل منا يغير موضعه من وقت إلى آخر.

وبينما كنت أفتح عينى رأيت بجوارى مشهدًا بدا كأنه جزء من حلم جميل، كانت فتاة جميلة من القرعان، ذات جسد نحيل ممشوق لم يكن يشينه ذلك الزى البدائى الذى ترتديه، وكانت تحمل بين يديها وعاءً مملوءًا بالحليب، قدَّمته لى بحياء به كبرياء، ولم أجد بُدًّا من قبوله، وشربه بعرفان، وبعدها سألتنى عن دواء لأختها التى لا تلد أطفالاً، وعندما رفضت أن تصدق أنه ليس معى دواء من الممكن أن يساعد شقيقتها، عدت للحبوب الجافة، كعلاج غير مؤذٍ لعله أكبر من قدرتى، وأعطيتها أيضًا مجيدة ومنديلاً من الحرير هديةً لها. كما

ظهر أحد أفراد التبو ومعه قطعة من لحم "الوادّان" أو الخروف البرى، وفى المقابل أعطيته أرزًا ومكرونة، وبعدها ذهب إلى حال سبيله سعيدًا.

بعد أن تناولنا الطعام توجهت لرؤية بعض آثار الإنسان التى ترجع للعصور السحيقة؛ فعندما كنت فى "أركينو" تحدثت مع أحد القرعان، لأعرف بعض المعلومات عن سكان "العوينات" الحاليين، سألته إن كان يعرف أى شىء عن السكان السابقين للواحة؟ فأعطانى إجابة مفاجئة قائلاً " أنواع مختلفة من البشر عاشوا حول هذه الآبار، أكثر مما يستطيع أحد أن يتذكره، حتى الجن عاشت قديمًا فى هذا المكان".

"الجن؟! "تعجبت" وكيف عرفت ذلك؟"

فأجاب " ألم يتركوا رسوماتهم على الصخور؟!

وباستثارة حاولت إخفاءها سألته أين؟

فأجاب "فى وادى "العوينات"، هناك العديد من الرسومات فوق الصخور"، لكننى لم أستطع إغراءه بأن يصفها لى أكثر من قوله "هناك كتابات ورسومات لكل أنواع الحيوانات الحية، ولا يعرف أحد أى نوع من الأقلام استخدموها؛ لأنها محفورة بعمق كبير داخل الصخر، ولم يستطع الزمن أن يؤثر فى هذه الكتابات" - بذلت قصارى جهدى لكى لا أظهر له استثارتى - وتساءلت هل يستطيع إخبارى فقط أين توجد تلك الرسومات؟

فأجاب " فى نهاية الوادى عندما يبدأ ذيله فى التموج".

وطوال الوقت كنت أتذكر هذا؛ لذا بعد أن أنفقنا بعض الوقت في التأكد من مخزوننا من المياه - الذي يعد أكثر الأشياء أهمية - نظرت حولي من فوق قمة التلال إلى المنطقة المحيطة، وبدأت المهمة المثيرة المتمثلة في تفقد أرجاء الواحة، ولكن كان أكثر أجزائها تشويقًا هو العثور على تلك النقوش الصخرية، خاصة أن التاريخ الذي استطعت جمعه عن الواحة كان ضئيلاً للغاية؛ فقد عرفت أن "العوينات" كانت موطن التبو والقرعان الذين كانوا يتوجهون صوب الشرق ليهجموا ويسلبوا قبائل "الكبابيش"،[٤٠] وكانت "أركينو" و"العوينات" بالفعل أماكن جيدة للغاية لهذا الغرض، طالما أنها تزود بالماء القبائل الغازية، وفي الوقت ذاته كانت بعيدة جدًا عن أيدي "الكبابيش" حتى يجرؤوا على الثأر أو محاولة استعادة ما يخصهم.

وطبقًا للوصف الذي في مخيلتي اصطحبت ملكوني - الذي انضم إلى القافلة في "أركينو" - وتوجهنا ومع غروب الشمس إلى مكان تلك الرسومات التي توجد في الوادي عند ذلك المكان الذي يبدأ عنده في التلاشي، وينحرف بنعومة، وجدناها على الصخور التي تقع بالقرب من منسوب سطح الأرض، وكنت قد أُخبرت بوجود رسومات أخرى مشابهة على مسافة نصف يوم سير من ذلك المكان، ولكن نظرًا لأن الوقت كان متأخرًا، ولم أكن أريد أن أثير الريبة، لم أذهب إليها.

(٤٠) قبيلة الكبابيش: هي في الحقيقة مجموعة من القبائل العربية التي انصهرت في قبيلة واحدة أصبحت تعرف بهذا الاسم، والموطن الرئيسي لهذه القبائل غرب السودان، وهي منطقة شبه صحراوية وليس بها أنهار دائمة الجريان، ومن ثم فهي لاتصلح للزراعة الدائمة وإن كانت المراعي بها جيدة، ومن ثم يعيش أفراد هذه القبائل على رعي الأغنام." المترجمان "

لم يكن هناك شيء سوى رسومات الحيوانات؛ فلم تكن هناك أية نقوش، وبدا الأمر لى كما لو أن أحد الأشخاص حاول تصوير مشهد ما، ورغم بدائية الشخوص؛ فقد كانت تنمُّ عن يد فنية؛ فالرجل الذى رسم اسكتشات هذه الحيوانات كان لديه حس فنى، ورغم أن الصور التى على الحوائط الصخرية كانت بسيطة، فإنه لا يمكن القول إنها لم تنحت بمهارة. كانت هناك رسوم لأسود، وزراف، ونعام، وكل أنواع الغزلان، وربما الأبقار، رغم أن الكثير من هذه الأشكال قد تأثر بفعل الزمن، وكان عمق النحت يتراوح بين ربع ونصف بوصة، وكانت حواف الخطوط قد تآكلت بفعل عوامل التعرية؛ حتى إن بعض أجزائها كان من الممكن كشطه بسهولة بواسطة الأصابع.

سألت من رسم هذه الصور؟ والإجابة الوحيدة التى حصلت عليها جاءت من ملكونى – فرد التبو – الذى أعلن عن اعتقاده بأنها من أعمال الجن، وتساءل " أى رجال يمكنهم فعل هذه الأشياء الآن؟".

ورغم أننى لم أستطع الوصول إلى أية روايات متوارثة حول مصدر هذه الرسومات المثيرة، فقد صدمنى أمران لا يوجد زراف فى هذه المنطقة الآن، كما أنها لا تعيش فى أى صحراء مشابهة فى أية منطقة أخرى، وثانيهما أنه لا يوجد رسومات للإبل بين هذه الأشكال المنحوتة على الصخور، والمرء لا يستطيع الوصول إلى هذه الواحة إلا بواسطة الإبل، تُرى هل كان الرجل الذى رسم هذه الصور يعرف الزراف ولا يعرف الإبل؟ فكرت مليًّا وتذكرت أن الإبل جاءت إلى أفريقيا من آسيا منذ نحو ٥٠٠ عام قبل الميلاد.

فى الخامسة والنصف بدأنا التحرك صـــوب مخيمنـــا، وانتهـــى طريقنا عند ممر جبلى منحدر، يتسع بالكاد لشخص واحد، كان شـــديد الخطورة على الإبل، ووصلنا إلى أعلى نقطة فى الممـــر، وعنـــدها تخيرنا طريقًا منحدرًا إلى منسوب الصحراء التى توجد جنوب الجبل، وعند أعلى نقطة وصلنا إليها كانت هناك بعض القمم التـــى يرتفـــع منسوبها أعلى مما كنا عليه من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر. صعدت الإبـــل وهبطت هذا الممر المنحدر على نحو رائع على الرغم من الظـــلام، وفى العاشرة والنصف كنا عند سفوح الجبال.

بدا أنه من الأفضل أن نُريح الإبل، فتوقفنا فى الحادية عشرة لمدة ساعتين، تناولنا خلالها الشاى، وجاءت لزيارتنا أسرة التبو التى كـــان مخيمها فى الجوار، واقتنصنا غفوة قصيرة استيقظنا بعـــدها نشـــيطين. كانت هناك رياح باردة تهب، وكان الركوب للخيـــام فـــوق منســـوب الصحراء يعد من الأمور السارة، بعد مشقة تسلق الصخور واجتيازها.

وصلنا المخيم فى العاشرة من صباح يـــوم ٢ مـــايو، واســـتُقبلنا بإطلاق البنادق وبالترحيب اللائق.

الأربعاء ٢ مايو: عند وصولنا إلى المخيم وجدنا فـــى انتظارنـــا الشيخ هارى، زعيم القرعان الذى يسمى ملك العوينات ومعـــه مائـــة وخمسون فردًا من السكان المحليين، كان قد جاء فى اليـــوم الســـابق لزيارتى وانتظر عودتى، وهو كهل ظريف للغاية، ذو وجه هادئ به جلال، وأحضر خروفين وحليبًا وبعض الأبرا كضيافة، كان صـــائمًا، وصممت على بقائه معنا حتى الليل، وإلاّ ما استطعت أن أقـــدم لـــه الضيافة، طالما أنه لن يأكل أو يشرب حتى غروب الشمس.

تحدثتُ معه ومع محمد طويلاً، وكان الزعيم الكهل لا يزال متيمًا بوطنه الذى يوجد شمال "الواداى" وتنهد عندما تحدثنا عنه؛ فهو ينتمى إلى عائلة " الريزى"، التى تعد إحدى أسر الفرعان الحاكمة فى شمال الواداى، وقد جاء إلى "الكفرة " كمنفى اختيارى، عندما دخل الفرنسيون إلى "الواداى"، ثم استقر بعد ذلك فى "العوينات".

وجدت نفسى متعبًا بعد الثمانى والعشرين ساعة من السير التى تخللها تسع ساعات فقط من الراحة، ولكن الاغتسال ووجبة وغفوة قصيرة جعلت الحياة تستحق أن تُحيا من جديد فى المساء.

نظَّم بوكارا كورس من الرجال، وأمضينا المساء مع الأغانى البدوية والسودانية والتيبوية.

الخميس ٣ مايو: عندما استيقظت حضر هارى إلى خيمتى ومعه وعاء من اللبن، وعندما شكرته، هزَّ رأسه بحزن قائلاً " هذا هو كل ما أملك أن أقدمه لك، وهو ليس مقامك، لكنك سوف تسامحنا لأننا غير قادرين على أن نمنحك الضيافة التى يجب أن تنالها".

أكدت له أن المعنى هو الذى يُعوَّل عليه فى هذا الأمر وليس القيمة المادية لما يُقدم.

أمضينا اليوم فى الإعداد للتوجه نحو الجنوب، الذى كنت آمل أن يكون في الغد.

الجمعة ٤ مايو: رتبتُ مع هارى أن يرافقنا إلى "إردى" بوصفه دليلاً إضافيًّا؛ فمحمد لم يجتز هذه المنطقة منذ سنوات عديدة؛ لذا شعرتُ أن هارى قد يعرفها على نحو أفضل.

بعد الظهر ذهبتُ فى تمشية طويلة، لكى ألتقط بعض الصور للجبال، وخلال هذا الوقت كان " التبو " و" القرعان " المستوطنون، الذين يتناثرون حول الواحة، حيثما يوجد عشب لرعى دوابهم، قد سمعوا عن حضورنا، وجاءوا لزيارتنا؛ لذا كان لدينا العديد من الضيوف على العشاء هذا المساء، وأصبح المخيم مبهجًا للغاية، وكانت واحدة من الليالى السعيدة خلال هذه الرحلة.

* * *

قبل أن نترك "العوينات" يجب أن أذكر شيئًا عن بوكارا الذى يعد واحدًا من أكثر الرجال إثارة فى القافلة، وهو بحق صورة للرومانسية، كان طويل القامة، نحيلاً، رشيقًا، مرحًا دائمًا والغناء لا يفارق شفتيه، حتى فى اللحظات الحرجة من اليوم، سواء فى بداية الصباح أو نهاية الليل، وعندما يكون الرجال مجهدين من السير ليلاً ويحتاجون للتشجيع.

لم أكن أعلم أنه يدخن حتى ضبطته فى أحد الأيام وهو يجمع أعقاب السجائر من البقعة التى كانت فيها خيمتى، ومن بعدها شاركته سجائرى، وكانت متعة بالغة أن أعطيه رزمة من هذه المادة الثمينة، وأراه ينطلق – من السعادة – فى الرقص والغناء.

وبوكارا هو أحد أكثر البدو الذين قابلتهم ترحالاً؛ فرغم أنه كان فى الخامسة والثلاثين من عمره فقد سافر إلى: "الواداى"، "وبرقة"، و"بورنو"، و" دارفور"، وقد رأى أيامًا من الحظ السعيد فى الماضى، أما الآن فهو لا يملك سوى جمل واحد، وقد جاءت قرعته فى قافلتى

بعد أن رتب مع بوحليجا أنه سوف يحصل على حصة من المال الذى سوف يقبضه ثمناً للإبل المتبقية عندما تُباع فى نهاية الرحلة.

وهو يتحدث معظم لهجات قبائل السود، ويعرف الكثير عنهم، كما أنه أيضًا موسيقى رائع وذو روح مرحة؛ ففى إحدى الأمسيات لفَّ نفسه بالقماش الأخضر الخاص بخيمتي كما لو كانت عباءة، ومع سعد وحميد اللذين كانا يثغوان خلفه مثل الخراف، جاء إلى المخيم متظاهرًا بأنه أحد شيوخ البدو، جلب معه خروفين كضيافة، وعندما كشف عن شخصيته ظللنا نقهقه حتى قام بوكارا فجأة بإلقاء القماش الأخضر بعيدًا، وانتزع رمحًا من أحد التبو، وانخرط فى رقصة الحرب الخاصة بالتبو، وساعده فرد التبو من خلال ضبط الإيقاع فوق أحد الفناطيس الفارغة، وتلا هذا العرض المضحك حفلة من الغناء البدوى من "برقة"، و"فزان"، و"طرابلس".

وكثيرًا ما رأيت بوكارا يأبى امتطاء الإبل حتى عندما يكون البدو كلهم قد استسلموا للإغراء.

وسألته "لماذا لا تمتطى جملاً يا بوكارا؛ فهناك العديد من الإبل غير محملة؟"

فأجاب بنبرة ازدراء لهذه الفكرة: ماذا ستقول واشون – زوجته- إذا ما سمعت أن بوكارا قد ركب فى المسافة بين "أركينو" و"العوينات"؟

وأخبرنى أنه فى إحدى المرات عُهد إليه باصطحاب نحو خمسين جملاً إلى "العوينات" لترعى، وكان بمفرده وقد نفد طعامه.

وقال ببساطة " لمدة اثنى عشر يومًا لم أذق أى طعام فيما عـدا بذور الحنظل التى أفسدت شهيتى، وبعدئذ وصلت إلى"الكفرة"، وكـان الرجال الذين أرسلونى من أجل الإبل قد نسوا أن يرسلوا إلىَّ طعامًا، وكانوا ينتظروننى فى الكفرة مبكرًا".

وعندما تساءلت " ولكن لماذا لم تذبح إحدى الإبل؟ "

فردَّ بفخرٍ " وأسمح للرجال فى الكفرة أن يقولوا إن بوكـارا لـم يتحمل الجوع وذبح جملاً؟ "

وبوكارا متيم بزوجته بصورة تدعوا إلى التأمل؛ فعندما وصـلنا إلى "أركينو" قال لى "أشعر أننى أفضل الآن، لكننى أبكى مثل طفـل عندما أودع واشون فى "الكفرة"، وهكذا يكون الأمر دائمًا عندما أبـدأ رحلاتى؛ فإذا ما كانت الصحبة جيدة أنسى بسرعة".

الفصل السابع عشر

السير ليلاً إلى إردى

«الأحد ٦ مايو: أصبحنا على الطريق فى السادسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، سرنا اثنتى عشرة ساعة بشكل جيد، قطعنا فيها نحو أربعة وخمسين كيلومترًا، كانت رحلة مجهدة بكل ما فى الكلمة من معنى، ومع ذلك فبالنسبة لأول ليلة سير كان من المتوقع أن يكون الأمر كذلك. ولم تُتح للرجال أية فرصة للنوم فى أثناء اليوم، بل على النقيض كانوا أكثر انشغالاً من المعتاد، فرغم ضجرنا، كان علينا مراقبة الأحمال بعناية، وإعادة تنظيمها بين الحين والآخر، وعند الفجر سقط معظم الرجال خلفنا من أجل إغفاءة قليلة».

فرَّ أحد الإبل عائدًا إلى "العوينات"، وكان على مالكونى أن يترك القافلة عند منتصف الليل ويسعى خلفه. وفى النصف الأخير من الليل بزغ ضوء القمر، وفى الثالثة صباحًا هَّبت نسمة باردة منعشة، رعت الإبل ما شاء لها على العشب الذى ينمو هنا اعتمادًا المياه التى تتسرب بين التلال. وعندما وصلنا إلى وقت التخييم، وجِدتْ إحدى أفضل قربنا مثقوبة ونصف فارغة، كان سوء حظ؛ فلم نكن قد ادخرنا ماء من المرحلة السابقة، وكان علينا أن نمضى عشرة أيام قبل أن نصل إلى بئر، وطوال اليوم لم يظهر مالكونى أو الجمل الهارب.

دونت فى يومياتى ما يلى:

الاثنين ٧ مايو: ظلَّ الجو غائمًا طوال اليوم، كما هبَّت رياح شمالية شرقية توقفت بعد الظهر، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية، وعند السفر ليلاً لا يستطيع المرء تسجيل درجة الحرارة الصغرى، التى تراوحت بين درجتين وثلاث درجات؛ لأننا كنا نتحرك فى هذا الوقت، بدأنا فى السادسة والنصف مساءً، وتوقفنا فى الحادية عشرة والنصف مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٢٠ كيلومترًا، كانت الرمال ناعمة للغاية والأرض شديدة التموج تتخللها نطاقات من عشب جاف صالح للرعى.

بعد الظهر وصل فرد التبو ومعه جمل محمل بالأمتعة التى كانت فوق الجمل الهارب، وأخبرنا أن جمل مالكونى قد ألقى حمولته وفر عائدًا إلى منطقة الرعى فى "العوينات"، وأن مالكونى يسعى خلفه، وبحلول الحادية عشرة والنصف مساءً توقفنا فى منطقة رملية ناعمة للغاية ترصعها الصخور والرقع الصالحة للرعى بالقرب من "بارت شيزو" انتظارًا للهارب، وبعد وصولنا بوقت قليل ظهر مالكونى، إلا أننى كنت قد قررتُ ألا نتقدم أكثر فى هذه الليلة؛ فقد شعرت أن الراحة سوف تفيدنا جميعًا.

الثلاثاء ٨ مايو: بدأنا فى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، فى ظل وجود سحب كثيفة، وبعد ساعتين من ذلك أمطرت السماء قليلاً، وقام البدو – الذين تعتمد حياتهم على المطر – غريزيًا بالصياح مرحًا والغناء للإبل بحماس.

كانت الأرض متموجة، وقاسية، تكسوها الصخور والحصى الكبير، وبعد قليل من بدايتنا عبرنا بعض الغرود[٤١] الصغيرة، ثم عادت الأرض منبسطة مرة أخرى، تكسوها الرمال الناعمة، وفى الثالثة والنصف صباحًا دخلنا حزامًا من الكثبان الرملية العالية، عبرناه بعد ساعة ونصف، وبعد الكثبان عادت الأرض مرة ثانية إلى السريرة القديمة المألوفة، وهنا عثرت على قطع من قشر بيض النعام.

فى بداية اليوم أخذ آرامى - أخو مالكونى - كيسًا وذهب ليجمع بعض الحطب، وكان واسمه يحكى مصيره؛ لأن "التبو" و"القرعان" يسمون الرجل الذى قتل آخر "أرامى" - وقال إنه سوف يلحق بنا بعد ذلك، ولم يكن لدينا ما يقلقنا عليه؛ خاصةً وأنه أخبرنا أنه يعرف الطريق جيدًا، إلا أنه بعد ساعتين من السير على الطريق أصابنا القلق، وتوقفنا لانتظاره، وأطلقنا العديد من الطلقات لنلفت انتباهه، ونوجهه إلى موضعنا، وصاح الرجال باسمه بأعلى ما يستطيعون، ولكن كل هذا ذهب عبثًا.

استدرت إلى ملكونى وسألته عما ينوى فعله.

فقال" أخى مجنون، فلم يطلب منه أحد جمع الحطب، لقد غادر المخيم دون حتى أن يتناول طعام الإفطار، ربما دعاه الله إلى أجله، عندما يبزغ القمر سوف أترك حمولة جملى، وأعود للبحث عنه؛ فإذا كان حيًّا فسوف أعود به، أما إذا كان ميتًا فسوف أدفنه وألحق بكم

(٤١) هى عبارة عن كثبان رملية صغيرة الارتفاع، لكنها بالغة الطول، تفصل فيما بينها مسافات قصيرة جدًا. "المترجمان"

بعد ذلك". قال ذلك بهدوء وببساطة كما لو أنه شيء طبيعي. نقلت الأمتعة من فوق جمل مالكوني إلى جمل آخر، وعاد للبحث عن أخيه.

وكان آرامي بالفعل قد نجا من الموت أكثر من مرة، وتمنى كل شخص أن ينجو هذه المرة أيضًا، إلا أن محمدًا كان يشك في هذا، وقال " ربنا رحيم، لكنني أظن أن آرامي قد مضى إلى حتفه".

كنت أخشى أن يكون على صواب؛ فقد كان هناك شيء غريب في آرامي منذ البداية. وقد علمت أنه في إحدى رحلاته من "إردي" إلى "العوينات" نفدت مؤنه من المياه، وأصابه "عطش سيئ" كما يدعونه أبناء الصحراء، ووصل إلى "العوينات" نصف ميت، ومثل هذه التجارب تترك بصماتها على المرء، وبالطبع فإن الأمر يتطلب وقتًا طويلا قبل أن يعود المرء إلى نفسه مرة ثانية. وقد لاحظت في عينيه تلك النظرة الغامضة، المجهدة، الغريبة، وكم تساءلت عنها. وكنت أعلم أنه إذا لم يعد فإن الصحراء – في أحد صورها القاسية – سوف من نصيبها.

ففي الصحراء، فوق الدروب الطويلة التي تخلو من الماء، وتحت تأثير الإرهاق والعطش والتعب وقلة النوم غالبًا ما يفقد الرجال رءوسهم، أو كما يقول البدو " يسيرون إلى حتفهم"، وهو ما يعني أنه ما لم يكن رفاقهم منتبهين إلى هذا الأمر، ويبقونهم مع القافلة، فإنهم يسيرون بعيدًا في الصحراء، متجاهلين حتى غريزة الإبل التي تبقيها مع القطيع. وفي هذه الحالة، إذا ما عاد الهائم فجأة إلى وعيه، فإن عليه أن يجلس حيث وجد نفسه ولا يتحرك؛ لأنه من المعروف أن

رفاقه عندما يدركون غيابه، سوف يتعقبون آثار القافلة ثم آثاره على الرمال لينقذوه، وقد قابلتُ بدويًّا فى "الكفرة" كان قد تاه عن قافلته ثماني عشرة ساعة، وعندما أنقذ كان غائبًا عن الوعى، ويعانى بشدة من الظمأ، وقال "إن الله كان رحيمًا بى؛ فقد كنت قادرًا على أداء صلاتى، والتوجه إلى الله قبل ما ظننت أنه الموت المحتوم"، ثم أضاف مبتسمًا " لكننا نعيش ونموت بمشيئة الله سبحانه وتعالى".

الأربعاء ٩ مايو: بدأنا فى الرابعة والربع بعد الظهر، وتوقفنا فى العاشرة والربع مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة أربعة وعشرين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى سبع وثلاثين درجة مئوية، كانت هناك سحب بيضاء، ورياح قوية دافئة من الشمال الشرقى، استمرت طوال اليوم، وفى المساء زادت لتصبح عاصفة رملية، وسقطت بعض قطرات من المطر فى السابعة مساءً، واستمرت العاصفة الرملية من الثامنة إلى العاشرة مساءً. كانت الأرض عبارة عن سريرة عادية، مع وجود رمال ناعمة فى بعض المواضع، ولا يوجد أى أعلام أو عشب جاف، وفى الصباح الباكر رأينا على البعد كثبانًا رملية تمتد على يميننا.

فى الليلة الماضية سرنا نحو أربع عشرة ساعة ونصف، ورغم هذا لم ينل التعب منا؛ فالإفطار وأربع ساعات نوم أعادونا جميعًا نشيطين مرة أخرى. وقد أراد محمد أن نبدأ مبكرًا، نظرًا لوجود منطقة غرود عسيرة تقع أمامنا، وكان من الصعب عبورها فى الظلام؛ لذا فبحلول الرابعة والربع صباحًا كنا على الطريق، حيث تمتد السريرة تحت أقدامنا، وتهب الرياح الشمالية الشرقية الباردة من خلفنا.

وبعد الثامنة صباحًا بفترة وجيزة شعرت بالرياح تلفح وجهي، جفلت مروعًا، فالرياح ليس من عادتها أن تغير اتجاهها فجأة، إلى جانب أن طبيعة الرياح لم تتغير؛ فهذه الرياح التي تواجهنا يجب أن تكون قادمة من الجنوب، ومع ذلك فهي ليست دافئة. كان هناك شيء غريب، نظرت عاليًا إلى النجوم، ولكن السماء كانت تكسوها السحب الداكنة بالكامل، أخرجت بوصلتي، وذهلت عندما اكتشفت أننا نتوجه صوب الشمال الشرقي، بدلاً من الجنوب الغربي، بدا واضحًا لي أن محمدًا قد "فقد رأسه" كما يقول البدو، وأصبح يقودنا إلى الاتجاه المعاكس للاتجاه الصحيح. كانت لحظة خطيرة، من تلك التي تتطلب لباقة وحذر في التعامل؛ فمن الخطر أن تقوض ثقة دليل الصحراء؛ لذا هبطت من فوق جملي، وامتطيت حصاني، وعدوت به إلى حيث يقود محمد القافلة.

وفي أثناء ذهابي لاحظتُ أن معظم رجال القافلة الذين ألفوا السير في هذه المنطقة، وهذا النوع من المناخ، شعروا أيضًا أننا نسير في الاتجاه الخطأ، لكن من آداب الصحراء أنه يجب ألا يجادل الدليل بأية حال؛ فدليل القافلة هو بالضبط مثل قبطان السفينة، وهو بكل تأكيد سيد القافلة، في كل ما يتعلق باتجاهها، ويجب أن يستشار أيضًا في مواعيد سيرها وتوقفها.

ومن حسن الحظ أنني كنت قد سألت محمدًا قبل أن نترك "العوينات"، عن الاتجاه الذي سوف نسلكه، وطابقت بوصلتي عليه، وبينما كنت أقترب من الدليل وجدته متجهمًا، ويفتقد ابتسامته المألوفة، وشعوره بالثقة بالنفس، أريته البوصلة، وأوحيت له بأننا نسير في

الاتجاه الخطأ، لم يقل شيئًا، لكنه مسح الأفق بتلهف بحثًا عن نجمه المفضل "الجدى"، لكن دون جدوى؛ فقد كان النجم القطبى يختفى خلف السحب.

وفى هذه اللحظة أطفأت العاصفة الرملية – التى بدأت تهب – مصباحه، كما لحقت القافلة بنا، ولاحظ كل فرد أننا ضللنا طريقنا. وتجمعت الإبل والرجال معًا، تضربهم العاصفة والرمال المؤلمة ، بينما جعلت الرياح من المستحيل على المرء أن يسمع صوته أو أن يقول شيئًا لأى رجل آخر.

تخلت ثقة محمد عنه تمامًا، واستطعتُ أن أرى أثر ذلك على وجوه الرجال، فقد كانوا جميعًا من رحالة الصحراء، ويعلمون معنى أن يضل المرء طريقه وسط السريرة حيث لا يوجد أثر لعلم أو طريق.

وقالت مجموعة " يجب أن نخيم حتى تصفو السماء"، لكننى كنت أعلم مدى خطورة هذه الفكرة، فهى تعنى أنهم سوف يمضون أربع أو خمس ساعات يتأملون مصيرهم، وينمو الإحباط واليأس فى داخلهم أكثر وأكثر؛ لذا قلت " لا حاجة بنا للتوقف؛ لأن بوصلتى يعول عليها، وقد اختبرتها أكثر من مرة، وطابقتها على الاتجاه الذى حدده لنا محمد، هذه الرياح تهب من الشمال"، جزمت بذلك فى هدوء وثقة بالنفس خلال إحدى فترات سكون العاصفة؛ لأنه كما كان الحال فى الأيام القليلة الماضية، فهى لو كانت تهب من الجنوب لكانت حارة، هذا هو الجدى، وهذا هو طريقنا"، وأشرت إلى حيث يجب أن يكون النجم القطبى.

فقال محمد مستجمعًا شجاعته "ربنا يحفظك، والله إن ما تقولـــه هو الصدق".

واقترب منى سنوسى بوحسان – الذى كان دليلنا إلى "الكفرة" – وبصوت عال أمَّن معقبًا " والله، ما تقوله هو الصدق". قالهـــا بثبـــات "لقد فكرت فى ذلك، إلا أننى لم أستطع الكلام، لأنه لم يكن لدى دليل؛ لأن الجدى كان قد اختفى خلف السحب".

كان ذلك يكفينا، فأشعلنا المصباح بصـــعوبة، وبمعاونـــة محمـــد وبوحسان، قدتُ الطريق.

وفى هذه الأثناء سأل صوت من الظلام " كم علينا أن نمشى؟ "

فأجاب بوكارا ضاحكًا " دع الرياح تلفح قفاك الأسود، وعنـــدها سوف تعرف".

وبعد بضع ساعات، أمسك محمد بيدى وأشار إلى كثبان رمليـــة أمامنا، وهتف بقوة قائلاً " الغرود، الحمد لله، ربنـــا كـــريم"، وعـــاد للابتهاج مرة أخرى.

وسرعان ما هدأت العاصفة تمامًا، وعادت السماء صافية، وحتى أكثر الرجال تشاؤمًا لم يعد لديه ما يقلقه، ولكن خبرتنا القليلة المستمدة من هذه العاصفة الرملية، برهنت على أن الأشياء الصـــغيرة أثنـــاء السفر فى الصحراء قد تكون لها أهميتها؛ فبوصلتى فقط هـــى التـــى أنقذتنا من هذا الموقف الخطير.

كان محمد متخوفًا من محاولة عبور الغرود فـــى الظـــلام؛ لـــذا خيمنا حيثما كنا.

الخميس ١٠ مايو: بدأنا في الرابعة والربع صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، ثم بدأنا مـــرة أخـــرى فـــى الرابعة والنصف بعد الظهر، وتوقفنا فى السابعة من صباح يوم ١١ مايو. قطعنا خلال هذه الأوقات نحو ٧٥ كيلومترًا، كان الجو صحوًا وصافيًا، مع هبوب رياح شديدة البرودة فى الصباح الباكر، معتدلـــة بعد ذلك، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجـــة مئويـــة. وكـــان اتساع نطاق الكثبان الرملية كيلـــومترين، وكانـــت رمالهـــا شـــديدة النعومة وخطرة فى بعض الأماكن، بعد ذلك دخلنا سريرة عادية.

بحلول الخامسة والنصف مساءً أصبح المكان مرصعًا برقع من الأحجار السوداء والبيضاء، مثل تلك التي كانت قبل "الكفرة". وفـــى الثالثة من صباح يوم ١١ مايو دخلنا نطاقًا من العشب الجاف الـــذى يمتد فوق رمال منبسطة وناعمة. وفى الرابعـــة والنصـــف صـــباحًا مررنا بحزام من الكثبان الرملية.

فى الصباح الباكر كنا على الطريق نعبر الغرود، وسرعان مـــا أدركنا مدى خطورة الخطأ الذى كنا سوف نرتكبه بمحاولة عبورهـــا فى الظلام؛ فقد كانت شديدة الانحدار ورمالها ناعمة بشـــكل غـــادر، وغاصت الإبل حتى ركبها، وكان على الرجال مساعدتها على السير، وتطلب الأمر منا ثلاثة أرباع الساعة لكى نعبرها. توقفنا فى التاسعة صباحًا ونحن جوعى للغاية؛ لأننا لم نأكل منذ غداء اليـــوم الســـابق، وكنا نحتاج للطعام أكثر من النوم؛ لأن ساعات الراحة القليلـــة التـــى حصلنا عليها فى أثناء الليل أنعشتنا تمامًا.

كان الجو لا يزال حارًا عندما بدأنا مرةً أخـــرى فـــى الرابعـــة والنصف بعد الظهر، ولكن النسمات التى كانت تهـــب مـــن الشـــمال

الشرقى لطفت ذلك الجو القابض، وطلب منى هارى بضع يردات من القماش الأبيض لكى يصنع منها عمامة؛ لأن حرارة الشـمس كانـت تؤثر على رأسه، وكنت سعيدًا بإعطائها إياه، رغم أنـه بـين التبـو والقرعان كان الشيوخ فقط هم الذين يرتدون الزى الأبيض.

فى هذه الليلة شعرتُ برغبة فى السير على قـدمى؛ فامتطيـت جملى أقل من المعتاد؛ ومنذ أن تركنا "العوينات" كنـت أسـير لمـا يتراوح بين ست وسبع ساعات فى الليلة، ولكن فى هذه الليلة سـرت تسع ساعات. تقدمنا على نحو جيد حتى الثالثة صباحًا، عندما شعرت فجأة أو سمعت شيئًا يحفُ بحذائى، فنظرت إلى أسفل ووجدت عشبًا، فقد غيرت الصحراء من مظهرها. كانت الإبل جوعى؛ لأننا رحلنـا عن "العوينات" ومعنا فقط طعام يومين لها، بأمل العثور على منطقـة رعى لها؛ لذا تركناها تأكل على سجيتها بدلاً من دفعها للسير أسرع.

وكان السير مرهقًا للجميع؛ فقد كان علينا أن نتأخر فـى النـوم حتى نتأكد ونحافظ على تقدم الإبل داخل نطاق الرعى، وهو أمر بالغ الصعوبة، وقد ركب محمد وهارى معظم الطريق بينما حمل حسـان المصباح، وقبل الفجر بقليل ترجل محمد وأراحـه. وعنـدما جمعنـا الإبل من أجل صلاة الصبح بدا الرجال مرهقين على نحو لم أرهـم عليه من قبل.

الجمعة ١١ مايو: بدأنا فى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعـد الظهر، وتوقفنا فى الثالثة والربع صباحًا - من يوم السبت الموافق ١٢ مايو - قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٤٢ كيلومترًا، ظل الطقـس صحوًا وصافيًا، وبلا رياح، وكان دافئًا طوال اليوم والليـل، بلغـت

درجة الحرارة القصوى ٣٩ درجة مئوية، كنا نجتاز نطاقًا من الرمال الناعمة التى تغطيها باقات من الأعشاب الجافة، والتى بدت مثل حقل من حقول الذرة اليانعة، وفى الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة مررنا بغرود عادية، وفى الواحدة دخلنا سريرة منبسطة تخلو من الأعشاب، وفى الثالثة والربع توقفنا عند تل من الحجر الرملى، بعد أن شعرنا أننا ضللنا طريقنا.

أمضينا اليوم فى النوم وتناول الطعام، وفى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر بدأنا وفى نيتنا أن نستمر فى السير طوال الليل، ولكن بحلول العاشرة مساءً أصبح الجميع مجهدًا يغلبه النعاس، حتى إن محمدًا امتطى جمله، وخلال الساعات القليلة التالية سقط نائمًا بين الفواصل، وبسبب تعبه لم ينظر خلفه ليصحح اتجاهه اعتمادًا على هدى النجم القطبى، وعندما يتجاهل الدليل "الجدى" فإنه يضل طريقه بالفعل، وشعرت أنا وسنوسى بوحسان بيقين أنه لا يسير فى الاتجاه الصحيح، لكننا لم نرد مجادلته مرة أخرى بعد الليلة السابقة.

فى الثالثة والربع صباحًا وصلنا إلى سلسلة من التلال وتوقف محمد تمامًا. وحتى هذه اللحظة كنتُ أسير خلف القافلة، وأتحقق من وقت إلى آخر من الاتجاه الذى نسلكه، فقد كنا نسير منذ العاشرة صوب الجنوب أكثر من ذى قبل. وعندما توقفت القافلة عدوت للأمام صوب محمد وسألته لماذا توقفنا؟! فقال وهو يشير أمامه "هذه الفتحة التى فى التلال لا أعرفها، كما لا أعرف طبيعة الأرض التى بعدها"، ومهما يكن خطؤه فقد كان صريحًا تمامًا.

لم أرد زيادة الشعور بالقلق لدى الرجل؛ لذا قلت ببساطة "دعنا نخيم هنا حتى الفجر؛ فجميعنا متعب هذه الليلة"، وما كدتُ أنتهي من كلامي حتى بركت الإبل ووضعت حمولتها على الأرض، لم أرَ أبدًا رجالاً تنام بمثل هذه السرعة؛ فقد لفَّ كل فرد نفسه سريعًا في جيرده واحتمى من الرياح الشمالية الشرقية الباردة خلف أية قطعة من الأمتعة.

أما محمد فقد ذهب إلى السلاسل ليلقي نظرة عليها، وتبعته، وقلت له ملمحًا " أظن أنك قد تبعت الجدي أكثر من اللازم"؛ بمعنى أنه كان يتوجه أكثر صوب الجنوب، لم أرد الإشارة إلى أنه غفا فوق جمله، فلم أرد أن أهز ثقته بنفسه وأضعف معنوياته، تمتم وهو يمسح الأفق بتلهف " ربنا يباركك، لابد أنني فعلت هذا؛ لأنه لا يفترض بنا أن نصل إلى التلال مبكرًا هكذا، لقد كنتُ أتوقع أن نصل إليها في الفجر، ولكن في الصباح ربنا سوف يجلب لنا الفرج".

كنت منزعجًا بعض الشيء عندما تركته وتوجهت للسير بضع دقائق، آملاً ألا نكون قد سرنا بعيدًا عن مسارنا الصحيح، لكنني كنت مجهدًا للغاية لأستمر في القلق؛ لذا سرعان ما غلبني النوم.

السبت ١٢ مايو: في الرابعة والنصف فجرًا سُمع صوت محمد وهو يؤذن للصلاة. فاستيقظنا سريعًا، وخلال ساعة كنا على الطريق، تقدم محمد القافلة، وانضممت إليه، كان لا يزال قلقًا، ولكن بينما كنا ندور حول التلال تنسم الصعداء وقال " ربنا كريم، من هنا يمتد طريقنا"، وأشار إلى الركن الشمالي الغربي من سلاسل التلال، وتوجهنا إليه. وبحلول التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا وصلنا

إليه ونصبنا مخيمنا. أرسلت الإبل إلى داخل التلال – مسافة كيلومتر أو كيلومترين – كي ترعى، وكان الرجال والإبل فى حالة سيئة بالفعل، وبدأ الماء الذى معنا ينفد.

بعد الظهر سبقنا محمد وهارى إلى التلال وصنعا أثرًا على الرمال بأحد قوائم الخيام لنتتبعه، وفى الخامسة مساءً تبعناهما إلى الكثبان الرملية، وبعدها إلى التلال، ولحسن الحظ أن الغرود لم تكن كثيرة، برغم أنها كانت وعرة بما يكفى، إلا أن الأرض التلالية التى تمتد بعدها هى التى أجهدتنا؛ فقد ظلت أقدامنا ترتطم بالصخور فى الظلام، ولا تحمى الأحذية البدوية من آلام هذا الارتطام. وبدا التصادم والإرهاق يزداد على وجه الخصوص فى ساعات الصباح المبكرة عندما أصابنا النعاس بصورة رهيبة، وكنا نسير بعين نصف مغلقة.

فى الليلة السابقة حاولت تجربة إطلاق طلقتين أو ثلاث من بندقيتى لأوقظ الرجال، وكانت الاستجابة جيدة؛ ففى كل مرة كانوا يستجيبون بتهليل عالٍ، ويسرعون من خطواتهم على الفور، ولكن فى هذه الليلة فشل هذا الأمر تمامًا. وفى نحو الثالثة صباحًا – أكثر الساعات ظلمة – كنت قد أفرغت بندقيتى بالكامل، ولكن دون أية استجابة.

على كل حال كان هناك تعويض بسيط، فى وسط هذا الامتداد المميت من التعب والكآبة، ففى الصباح الباكر بزغ الهلال كقوس فضى منظوم مع النجوم اللامعة التى توجد فوقه، قطعة فاتنة من المجوهرات السماوية، ثبت عينىَّ على جمالها ونسيت للحظة الرضوض التى أصابت قدمى المسكينة.

بعد فترة قليلة وصلنا إلى نطاق من العشب الجاف، كنا جميعًا مستعدين لترك الإبل ترعى لفترة، ولنمنح أجسادنا المنهكة فترة قصيرة للراحة، وفى الفجر توقفنا مرة أخرى لصلاة الصبح، وما كدنا ننهض من سجودنا حتى لف معظم الرجال أنفسهم فى جيرودهم وسقطوا على الرمال الحمراء الجميلة مثل الأحجار البيضاء، بينما سارت القافلة تتهادى، وانضم إلينا النائمون بعد فترة وجيزة، كنت آمل أن يمنحهم هذا النوم بعض الانتعاش.

فى هذا الصباح آلمتنى أوصالى بشدة، ولم أستطع إراحتها، رغم أننى جربت كل وضع ممكن فوق جملى، وكل طريقة ممكنة فى السير وسرعته، ولكن لم تُجدِ أى منها، بدت جفونى أيضًا كأنها مثقلة بالرصاص.

وفى السادسة صباحًا أسعدنا الحظ أن نمر ببعض رقع العشب الأخضر، ونصبنا مخيمنا بعد ثلاث عشرة ساعة من السير والعذاب، وكانت الأعين تحتقن بلون الدماء، والأجساد تحتجُّ بكل عضلة وعصب، وخلال نصف الساعة أصبح المخيم صامتًا.

الأحد ١٣ مايو: استيقظنا فى العاشرة صباحًا من أجل الإفطار، ثم عاد الرجال للنوم مرة أخرى، لكننى لم أستطع فعل ذلك، بدأنا مرة ثانية فى الخامسة والربع مساءً، وفى هذا المساء أصبحت الأمور أسوأ مما قبل؛ فالأرض ازداد تضرسها ووعورتها، وأصبح السير كارثة مؤلمة لكل من الرجال والإبل، وكانت الإبل باستمرار تتأخر خلفنا فى أثناء دوراننا حول وبين الكثبان والتلال الصخرية الصغيرة، نتيجة لعثورها على مقدار ضئيل من العشب الذى كانت

ترعى عليه. وكان من الصعب تمييزها وسط الرمال الحمراء المليئة برقع من الصخور الداكنة.

توقف الغناء مبكرًا فى هذه الليلة؛ فالأمر الأكيد أن الرجال كانوا مجهدين للغاية، كما أخبرنى زروالى أن محمدًا جاء وقال لــه إنه من الأفضل أن نخيم مبكرًا، ولانحاول السير طويلاً هذه الليلة. كان التقدم صعبًا للغاية، وكثيرًا ما كنا نغير من اتجاهنا لندور حول هذه النقــاط العالية والنتوءات الصخرية؛ لذا كان نواجه خطر أن نضل طريقنـــا، ولكن زروالى العالم لمدى كرهى لأى تأخير أخبر الدليل أننى أبغـــى مواصلة السير فى هذه الليلة.

وفى النهاية أصبح السير صعبًا للغاية، وكانت الإبل تتخلف عنــا باستمرار، وشعرت أنه لا فائدة من التقدم أكثر، ولو كنت فى حاجــة إلى دليل على أن الرجال قد نال التعب منهم لكان ماثلاً فى حقيقة أن حسان – الذى من الواجانجى – المعتاد على السير الشاق قد امتطـــى جمله فى بداية هذا المساء ولم يهبط من عليه.

وفى الحادية عشرة والنصف مساء خيمنا، ولففـــت نفســـى فـــى جيردى، وقلت للرجال ألا يزعجوا أنفسهم بتجهيز حماية لـــى، فأنـــا واثق من أننى لن أتحرك من موضعى الأول الذى سقطت فيه حتـــى الخامسة صباحًا.

استيقظت بظهرٍ متيبسٍ وأقدامٍ متألمة.

ورغم ذلك فإن نسمات الصباح الصـــافية والمنعشـــة، ومظهـــر الرجال المشغولين والمتلهفين على التقدم أنسانى آلامـــى الجســـدية،

وبرغم الآمال الجديدة التى جلبها الصباح، فإن الأمور لم تكن مشجعة كثيرًا بالنسبة لنا؛ فالأرض كانت وعرة للغاية، وبدا الرجال كما لـو أنهم قد فقدوا ثقتهم بمحمد وهارى، وكانت الإبل فـى حالـة سـيئة، ومخزوننا من الماء أوشك على النفاذ.

الاثنين ١٤ مايو: بدأنا فى السادسة صباحًا وتوقفنا فى التاسعة صباحًا، ثم عدنا للسير ثانية فى الخامسة والنصف مساءً لنتوقف فى العاشرة مساءً، قطعنا نحو ٣٠ كيلومترًا، كان الجو صحوًا وصافيًا. فى السابعة صباحًا هبَّت نسمة باردة من الشمال الشرقى، توقفت فى الظهر، كان المساء والليل هادئين، بلغت درجة الحـرارة القصـوى ٣٢ درجة مئوية، بدأنا والأرض تتكون من الرمال الناعمـة التـى تكسوها الأعشاب الجافة والخضراء، وبعد فترة وجيزة من بـدايتنا بعد الظهر تغيرت المنطقة لتصبح الأرض متموجة مع وجود أوديـة مليئة بالأعشاب الخضراء و"النيشا" الجافـة، وكانـت تلـك إحـدى الإشارات على أننا نقترب من "إردى". وفى الثامنة والنصف مسـاءً عبرنا منطقة تلالية امتدت نحو أربعة كيلومترات، ثم بعد ذلك مررنا بوادٍ كبير به أعشاب وبعض الأشجار.

عندما بدأنا فى الصباح نويت أن نستمر فـى التقـدم لأربـع أو خمس ساعات، ولكن سرعان ما أصبح الجو حارًّا للغاية وخيمنا فـى التاسعة صباحًا، وكانت الراحة لمدة أربع ساعات لها تأثير جيد علينا، ولم يذهب أحد إلى النوم بعد ذلك حتى تناولنا الإفطار.

وبحلول الخامسة والنصف مساءً أصبحت القافلة على الطريـق، وأصبح الماء الذى معنا قليلاً للغاية وسيئًا، وبـدت الإبـل ضـعيفة

ومجهدة. كنا متلهفين على الوصول إلى "إردى" بأسرع ما يمكن، وبعد فترة قليلة من بدايتنا عثر بوكارا وآرامى – ليس ذلك الشخص الذى ضل فى الصحراء واختفى، بل شخص آخر قتل رجلاً من قبل- على آثار "واران" كبير أو سحلية، وتتبعناها إلى جحرها. كان ممارسة القليل من العبث أمرًا جيدًا للترويح، حفرنا داخل الجحر، ولكن السحلية لم تكن فى داخله، تتبعنا آثارها إلى كومة من الصخور، وبعد عشرين دقيقة من الحفر أمسكنا بهذا الكائن.

ويستخدم البدو والسود دهن "الواران" كدواء للروماتيزم، ويقولون إنه إذا حمل شخص ما رأسه معه فإنه آمن من السحر الأسود، ويعلق جلده فى المنازل لإبقاء الثعابين بعيدة، و"الواران" لا يعض، لكن لديه ذيل مثل السوط يستخدمه فى القتال، وقد دبغ آرامى المخلوق من أجلى.

تتبعنا الآثار التى صنعها دليلنا، لكننا فقدناها أكثر من مرة فى الظلام، وأضعنا وقتًا كثيرًا فى محاولة العثور عليها، وأخيرًا بدأت تتذبذب أمامنا، ولاحظتُ أن محمدًا لم يكن واثقًا من اتجاهه. أمرت الرجال بالتخييم، وأطلقت طلقات فى الهواء، وبعد فترة وجيزة انضم إلينا محمد وهارى،اللذان أدركا أننى قررت التوقف، وأخبرنى الدليل أنه ليس واثقًا من الطريق فى هذه المنطقة فى الظلام، لكنه يعلم أننا لسنا بعيدين عن البئر.

وللمرة الأولى منذ أن غادرنا "العوينات" أتيحت لنا خمس ساعات من النوم المتواصل، وقبل الذهاب إلى الفراش تحدثتُ مع آرامى عن "إردى" وآبارها.

فقال "إن محمدًا دليل جيد في ضوء النهار، لكنه كهل ولا يستطيع الرؤية جيدًا في الليل، إلى جانب أنه لم يكن في هذه المنطقة منذ سنوات عديدة، فقد كان يجب أن نخيم بجوار أول بئر هذا المساء، لكننا ضللناها، والله أعلم"، قلت له ألا يقول شيئًا من هذا للرجال، وإلا سوف يزداد قلقهم ويلومون محمدًا.

أعددتُ حقيبة نومي وجلستُ أفكر، كانت تلك أكثر اللحظات المحبطة طوال الرحلة؛ فالرجال فقدوا ثقتهم، وعانوا من الحرارة كثيرًا، وكانت الإبل تضرب بشدة للسبب ذاته، والدليل لم يكن واثقًا من الطريق، وبدأ الماء ينفد ويفسد، وكان أي من هذه الأمور كفيل بأن يجعل المرء قلقًا، ولكن وجودها مجتمعة تحطم أعصابه تمامًا.

وبينما كنتُ أستعرض صعوبات الرحلة وأخطارها - حتى هذا الوقت - تذكرت أن أحدًا لم ير آرامي المجنون أو أخاه ملكوني الذي ذهب ليبحث عنه مرة أخرى، ووجدتني أتساءل عما إذا كان القدر ينوي أن يسلبني ما كنتُ قادرًا على إنجازه؛ فلو كان القدر ماكرًا، فقد تخير اللحظة الملائمة ليضرب ضربته، فإذا كنت قد أخطأت "أركينو" و"العوينات" لم يكن الأمر سيصبح قاسيًا، ولكن الآن بعد أن حققتُ إنجازي المتواضع، كنت أشعر أنه يجب أن أعود به للديار. وتساءلت ترى أتكون ليلة بلا نوم؟! ولكن الصحراء مارست سحرها مرة ثانية، وتعجبتُ أن أجد جفوني أصبحت أثقل، وأن النوم الذي جاء كان حلوًا للغاية.

الثلاثاء ١٥ مايو: استيقظنا في الرابعة فجرًا، وكنا لانزال غير متأكدين أين نحن؛ لذا تقدمت مع محمد وهاري لنستطلع المكان،

عندما بزغت فجأة أمامنا تــلال "إردى" الحمراء، أرضــيتُ نفســى بتفحصها بنظارتى المعظمة لأتأكد أنه لم يلتبس علينا الأمــر، وبعــد ساعة من ذلك انطلقنا صوبها، وقبل أن نبدأ ثار جدل أيهما أفضل أن نخيم فى التلال عند بداية الوادى الذى ينتهى عنده البئر، أم نهبط إليه. كان النزول صعبًا على الإبل، ورغم هذا فقد قررنا أن نهبط ونخــيم فى قاع الوادى، ففى حالة تعرضنا لهجوم مغيرين فسوف يكون لدينا مصدر للتزود بالماء.

وتدريجيًّا بدأنا فى تسلق ممر وعر بين جروف مــن الصــخور الحمراء، وفجأة خرجنا إلى قمة جرف عالٍ حيث يمتــد وادى "إردى" الذى كان منبسطًا تحتنا؛ وهو عبارة عن وادٍ ضــيق يبلــغ طولـــه عشرة كيلومترات تقريبًا، بينما لا يزيد اتساعه عن ١٠٠ متر، تحــيط به حروف حادة من الصخور الحمراء. وبعد السريرة الرتيبة الجرداء والصخور غير الصديقة التى كنا نجتازها منذ أن غادرنا "العوينـــات" تأتى تلك الأشجار والأعشاب الخضراء، لتوحى بكل ما تعنيه جملــة "واحة فى الصحراء"، وبينما كنا نقترب من البئر سبقنا محمد وهارى مرة ثانية ليستطلعا المنطقة؛ فالسود دائمًا حذرون عندما يصلون إلــى بئر؛ إذ إنهم لا يقتربون منها مباشرة، بل يرسلون رجــلاً أو رجلَــين أمامهما ليتأكدوا ما إذا كان هناك أحد بالفعل، وأنه ليس غريبًا أو على الأقل ليس عدوًا؛ لذا فالدليلان كانا لم يحددا الطريق الــذى يجــب أن نتتبعه فحسب، بل سيكتشفان أيضًا إذا ما كان يجب علينـــا أن نكــون متيقظين لأى هجوم مباغت عندما نقترب من البئر أم لا.

سلكنا طريقنا بجهد عبر ممر وعر مفضى إلى الوادى، ونصــبنا خيامنا عند بدايته، وكانت البئر تقع فى أقصى جزئــه الجنــوبى، ولا

يوجد طريق للوصول إليها بأمان من أعلى – دون وجــود خطــورة بالغة على الإبل – فيما عدا الطريق الذى هبطنا منه.

اشتركت الوجبة الهائلة من الأرز والخبز الطازج الذى أعــددناه مع الجو الرائع المحيط بنا فى أن تجعلنا جميعًا سعداء كما لو كنا فى حفل عرس، أما أفكارى السوداء فى الليلة الســابقة فقــد بــدت الآن كابوسًا منافيًا للعقل، على الرغم من وجود قدر كبير من الحقيقة بها؛ ففى الصحراء غالبًا ما تكون المسافة التى تفصل بين الأمان والراحة والكارثة لا تتجاوز فى اتساعها سُمك شعرة الرأس الواحدة.

بعد أن شربنا ثلاثة أكواب من الشاى الســاخن شــعرنا بكســل الرفاهية، وذهب الرجال إلى البئر ليسقوا الإبل وليجلبوا ماء للمخــيم، وعندما عادوا بدأت الحلاقة والاستحمام وغسيل الملابس، واســتعادة احترام الذات، والثقة، وعادت الحياة مبهجة من جديد.

وفى الخامسة بعد الظهر تسلقت حائط الوادى ومعى الثيودوليــت وجمعت بعض الملاحظات، بينما ذهب زروالى وسنوسى بوحســان وآرامى ليصطادوا "وادّان" أو خروفًا جبليًّا، لكنهم عادوا بخفى حنين. وعندما سألت آرامى عما إذا كان خطأ القناصين أجاب "والله، لا، فقد صوبوا على نحو صحيح، ولكن الله كان رحيمًا بالوادّان".

مضت ليلة المخيم فى إراحة الإبل والغناء والمــرح، وشــعرت أننى لا أحتاج إلى شىء من هذه الليلة سوى الأحلام السعيدة.

الفصل الثامن عشر

الدخول إلى السودان

«استيقظت مبكرًا كى أفتح صندوق الأفلام، وأُعيد ملء الكاميرات بينما كان الجو لا يزال باردًا. وفى السابعة صباحًا خرجت مع محمد وحماد لزيارة البئر».

وادى " إردى" الذى يعرف باسم "كركور" هو منخفض ضيق طويل ينساب بين التلال كالثعبان، ويجرى صوب الجنوب لنحو سبعة أو ثمانية كيلومترات، لينتهى عند جزء مسدود يشبه الجيب؛ حيث يقع البئر فى تجويف ظليل تحت الصخور، وهو ذو شكل شبه دائرى يبلغ طول محيطه نحو ستة أمتار، وتشبه هذه البئر تلك التى فى "العوينات"، وإن كنت أشك أنه بالإضافة إلى ماء المطر فإنها من المحتمل أن تعتمد فى تغذيتها على المياه الجوفية. وكان الاقتراب منها وعرًا، وإلى حد ما كانت خطرة فى التسلق، حتى إنه فى الليلة السابقة انزلق أحد الإبل الذى يحمل المياه وأصاب نفسه إصابة سيئة.

بعد أن تسلقنا للوصول إلى العين، استرحنا وتناولنا الشاى، ثم عدنا للديار تحت لهيب الشمس الحارقة، كان الوادى جميلاً بحوائطه شديدة الانحدار ذات الصخور الحمراء، بينما تتناثر الأعشاب الخضراء والأشجار عند سفوحه. وقد أخبرنى محمد أن هذا الوادى يعد من أصعب الأودية فى هذا الإقليم من حيث الدخول إليه؛ لذا فهو يعد أسهلها فى الدفاع عنه.

وعند الغروب تسلقت حوائط الوادى لأشاهد غروب الشمس الرائع ومشهد الضوء على الرمال الحمراء والصخور الوردية الملونة، كما حلقَ الرجال رءوسهم، وشذَّبوا لحاهم، وغسلوا ملابسهم ورتقوا، التى أصبحت مهترئة للغاية.

أنقذ عشب الرعى فى هذه المنطقة إبلنا، وكان من الحكمة أن نمضى هذا اليوم فى الراحة والتعافى. وأخبرنى محمد وهارى أنه اعتبارًا من الآن، لن يكون من الممكن السفر ليلاً؛ فقد كانت المنطقة كثيرة التلال، ولن تكون آمنة للسفر فى الظلام، وقد سلَّم كل البدو بمهارة محمد، بعد قيادته للإبل وسط الصخور شديدة الانحدار، للوصول إلى الوادى أمس.

فى المساء انطلق الكلب فى نوبة نباح، وشككنا أن أحدًا كان قريبًا منا؛ لذا أسرعنا بإطفاء النيران، وجمعنا الإبل معًا، وجهزنا بنادقنا، ووضعنا خفارة حول المخيم من الخارج، لكنه كان تحذيرًا كاذبًا، ومثل هذا الحذر الذى يشبه الحذر الذى نأخذه عندما نقترب من بئر ما، قد يبدو سخفًا عندما ينتهى الأمر، ولا يحدث شىء، ولكن فى المناطق المجهولة مثل هذه فإن القافلة التى لا تتخذه قد تكون حمقاء للغاية؛ فهجوم أفراد القبائل المعادية أو الخارجين على القانون أمر ليس بعيد الاحتمال.

الخميس ١٧ مايو: استيقظنا فى الرابعة صباحًا، وأصبحنا على الطريق بحلول الخامسة والنصف، كان التسلق للخروج من الوادى لا يقل صعوبة عن النزول إليه، وانزلق أحد الإبل، إلا أنه من حسن الحظ لم تنجم نتائج خطيرة، وعندما وصلنا إلى حدود الوادى ونظرنا

خلفنا، لاحظت الاختلاف بين الأودية فى هذه التلال وتلك التى فـــى "أركينو"، و"العوينات"؛ فهنا كان قاع الوادى علـــى المنســوب ذاتــه للسهل الخارجى، والمرء يدخل إليه من خلال المرور عبر ممر كمــا لو كان يجتاز بوابة، بينما فى الإقليم الذى كنا به الآن كانت الأوديــة عبارة عن منخفضات أسفل المنسوب العام للمنطقة، والمــرء ينــزل إليها من خلال الدوران عبر ممر صخرى.

وخلال ساعة خرجنا من الوادى، وانعطفنــا صــوب الجنــوب الشرقى؛ كنا فى منطقة جبلية من الصخور السوداء والحمراء، وكان جليًّا أننا لا نستطيع السفر فوق هذه الأرض فى الظلام. وفى التاسعة والنصف صباحًا هبطنا إلى واد كبير عبر ممر شديد الانحدار، وفيــه تعثَّر جملان وألقيا حمولتيهما، وكان أحدهما يحمل مياهًا، وكان قريبًا للغاية من أن تدق عنقه، لولا ذهن عبدالله الحاضر، الذى سحب سكينًا وقطع حزام السرج مما أنقذ الموقف. وانفتحت السدادة الخشبية لأحــد الفنطاسين وسكب ثلاثة أرباع الماء الموجود به، ومن حسن الحظ أن البئر التالية كانت على مسيرة ثلاثة أيام أمامنا، كما كان لدينا رصـــيد وافر لرحلة أطول. فحادثة مثل هذه قد تعد كارثة إذا ما كنا فى "الدفا" أو كما يسمى الطريق الطويل الخالى من المياه الممتد بين الآبار.

فى هذا الصباح حدث فجأة موقف خطير، وكاد أن يســفر عــن نتائج مهلكة لولا شىء من الحظ؛ فقد كان أحمد – الطاهى الذى قــدم معى من مصر – يمتطى جملاً بلا لجام، وسبق أن طلب من حميد – جمَّال بوحليجا – أن يزوده بلجام، إلا أن الأخير لكونه عليمًا بطــرق الإبل، رأى من الأفضل عدم فعل هذا؛ لأنه كان الأهم أن تكون الإبل

قادرة على الرعى على سجيتها، فقد كانت فى حاجة للطعام أكثر من حاجتها للتوجيه.

وفى هذه الأثناء رأى جمل أحمد باقة من العشب الجيد؛ فهرع إليها مباشرة، وفي الطريق مر أسفل شجرة كثيفة الأشواك، ولم يستطع الراكب أن يفر من البروزات الحادة الناتئة من الشجرة، فجرح وجهه جرحًا شديدًا، وتحت تأثير الألم، شرع أحمد فى لعن الجمل ومالك الإبل، وعلى الفور رد حميد بالمثل ولعنه قائلاً له ألا يلعن الشريف مالك الحيوانات.

وبالمصادفة كنت قريبًا منهما، وفى قرارة نفسى أثنيت على سلوك الجمَّال وولائه لسيده بوحليجا.

هبط أحمد سريعا من فوق جمله، والدماء تتدفق من وجهه، وذهب فى ثورة غضبه صوب حميد، وهرع كل من سنوسى بوحسان، وحميد الآخر، وسعد العجيلة ليأخذوا جانب شقيقهم البدوى، بينما وقف عبد الله بجانب أحمد، ليصبح المصريان كتفًا بكتف.

كانت لدى خبرة بمثل هذا الشجار من قبل، ونظرت سريعًا لأرى أين توجد البنادق، وشعرت براحة عميقة وأنا أراها مربوطة بأمان فوق ظهور الإبل، ولم يكن مع الرجال سوى العصى ليتقاتلوا بها، ورغم هذا كان من الضرورى اتخاذ موقف حازم قبل أن تصبح المشكلة أكثر خطورة.

عدوت بفرسى وسط الرجال، ودفعته بين الفريقين المتقاتلين، وبفظاظة أمرت أحمد وعبد الله أن يتراجعا، كانت أكثر اللحظات

صعوبة؛ ففى أحد الجوانب يقف رجالى وفى الجانب الآخر يقف رجال قافلتى.

نظر سنوسى بوحسان وحميد خلفهما، وفى جزء من الثانية رأيت أعينهما تركز على البنادق المعلقة، وكانت أية كلمة مشجعة منى للفريق الآخر قد تعنى كارثة؛ لأن البدو يفوقونا عددًا، وفى الجانب الآخر لم يكن الوقت ملائمًا لأُهين رجالى أمام البدو، حتى ولو كانوا مخطئين؛ لذا سألت الرجال فى كلا الجانبين بلا تحيز " ماذا تقصدون بتصرفكم هكذا مثل الأطفال؟ رجال مثلكم يجب أن يخجلوا مما يحدث!"

بدأ حميد فى التحدث " لقد أهاننى".

قاطعه أحمد " لقد هاجمنى عندما كنت أهبط من فوق جملى".

أعلنت بحدة " أنا لا أبالى مَنْ أهان مَنْ أو مَنْ هاجم مَنْ، جميعكم رجالى، ومن العار أن أراكم تتصرفون هكذا مثل جماعة من الأطفال".

وفى هذه اللحظة حضر زروالى، واستدرت إلى عبد الله ثم إلى سنوسى بوحسان، وقلت لهما بصرامة "وأنتما يا أكبر مَنْ فى الرجال سنًا، بدلاً من أن تُهدئا الموقف أجدكما تشاركان فى هذا الشجار المهين، لعلنى ارتكبت خطأً، كان علىَّ أن أختار رجالاً لقافلتى وليس صبية".

وفى هذه الأثناء بدأ كلا الجانبين يهدآن، ويفقدان نظرتهما المتوترة التى يتسم بها رجال على وشك أن ينخرطوا فى شجار.

ووجدت زروالى، الذى من المحتمل أنه توقع أن آخذ جانب أبناء بلدتى عبد الله وأحمد – وكان غير مسلح – يفعل شيئًا غير متوقع، فقد أمر العبد فراج قائلاً "ضع حميد على الأرض، سوف أجلده بسوطى".

وفى سرعة البرق قام فراج قوى البنية بإلقاء حميد بفظاظة على الأرض وشلّ حركته بركبتيه، وقبل أن أستطيع معارضة سوط زروالى، كان قد هبط عليه مرتين، ولكن فى هذا الوقت كنت قد ترجلت وأمسكت بذراع زروالى.

وقلت جازمًا "إنها ليست مسألة عقاب، نحن لا نعلم من المخطئ، سوف أتحقق من الأمر بنفسى، وأعاقب بيدى من يثبت أنه مذنب".

واستدرت للرجال وأمرتهم "اتبعوا الإبل".

وأمرت محمد وهارى، اللذين ظلا بلباقة بعيدين عن هذا الأمر، وأنا أشير بعصاتى "قودا القافلة".

تحرك الجميع، وسرت بمفردى، محاولاً الحفاظ – من أجل الصالح العام – على تعبيرى المتجهم الرافض، وتدريجيًا تحرك زروالى بالقرب منى وسأل مستنكرًا " لعل البيه ليس غاضبًا مما حدث؟ ربنا العالم أننى عندما استيقظت هذا الصباح، كان هناك شىء ثقيل يطبق على قلبى، وشعرت بكل تأكيد أن أمرًا بغيضًا سوف يحدث، وشعورى عكسه سلامك علىّ".

ولاحظت أننى أيضًا خامرنى شعور غامض، ولم يكن هناك سبب له؛ فكل شىء كان يمضى بنعومة وعلى نحو جيد، ورغم ذلك فقد كان هناك شىء يحزننى.

وخلال فترة وجيزة بدا الجانبان مثل الأطفال غير المطيعين، ولاحظت أن كلا الجانبين يختلسان النظر إليَّ، ليريا إذا ما كان غضبي قد زال أم لا، لكنني حافظت على أمارات التجهم حتى وقت الغداء.

أولئك الذين سافروا في الصحراء، ويعرفون البدو، سوف يدركون مدى احتمالات خطورة هذا الموقف؛ فكلمة واحدة قاسية يتم تأويلها كإهانة قد تعني إطلاق النار إذا كانت البنادق قريبة من اليد؛ لذا فلو كانت البنادق مع الرجال، وكنت بعيدًا بضع مئات من الياردات – على النحو المألوف – لكان هناك بكل تأكيد إطلاق نار، وكان من المحتمل أن يقتل البدو أحمد وعبد الله من ناحية، ومن ناحية أخرى ماذا كنت سأفعل؟! كمصري كنت سأثأر لأبناء جلدتي مهما كلفني الأمر.

لذا فقد كان حظنا جيدًا أن البنادق كانت مربوطة بالإبل، وكنت أنا قريبًا من الموقف.

قال زروالي "نحن قريبون من نهاية الرحلة، وعند هذه المرحلة عادةً ما يتشاجر الرجال".

ومع مرور الوقت تلاشت آثار هذه الحادثة الخطرة.

أصبحت الشمس شديدة الحرارة، وخيمنا في الوادي في ظل بعض الأشجار الصغيرة، ووجدت الإبل بعض الأعشاب الصالحة للرعي، بينما أكلنا واسترحنا. وقبل أن نبدأ بعد الظهر جاء محمد، وسنوسي بوحسان، وبوكارا، وحميد الجمَّال، ليطلبوا مني أن أسامح حميدًا لأنه سمح لغضبه بأن يتغلب عليه عندما تشاجر مع أحمد،

وعفوت عنه بكل سرور، وذهب إلى أحمد وقَبّل رأسه، ورد أحمد المجاملة، وعندها انتهى الشجار وفق أفضل التقاليد البدوية.

واصلنا هبوط الوادى الضخم لنحو ثلاث ساعات، وخيمنا بالقرب من مصبه فى الساعة السابعة والربع مساءً، وقبل فترة قصيرة من توقفنا رأينا فى المواجهة تلال "آجه" حيث تقع البئر التالية. كانت الأرض الممتدة أمامنا عبارة عن سريرة مستوية، وكان من المريح رؤيتها؛ ففى الصباح عندما كنا نهبط عبر الوادى بدا كما لو أن كل حقائبنا ستصبح قطعًا صغيرة، إذا ما كان هناك المزيد من هذه المنحدرات؛ ففى بعض الأماكن كان الهبوط شديد الوعورة؛ لذا كان من الآمن لنا أن ننُزِل حمولة الإبل، وأن يحمل الرجال الأمتعة ويهبطوا بها على الصخور شديدة الانحدار، والتى كانت تصل لنحو ثلاثة أقدام من صخرة إلى أخرى.

بزغ القمر الجديد ونحن نخيم، وكان اليوم التالى هو يوم عيد الفطر الذى يأتى بعد نهاية شهر رمضان، وجاء زروالى ليقول إن الرجال يبغون الاحتفال به وفقًا للعقيدة الإسلامية، ورحبت بذلك، طالما أن تلال " آجه " كانت على مرمى بصرنا، ومؤن المياه كانت وفيرة، بالإضافة إلى أن عشب الرعى الممتاز فى هذا الوادى كانت الإبل فى حاجة له.

نهضنا جميعًا مبكرًا فى اليوم التالى (الجمعة ١٨ مايو)، وارتدينا ملابس نظيفة للاحتفال بيوم العيد، وتبادلنا الأمنيات الطيبة، ثم تبعناها بصلاة العيد، كانت هناك نظرة تكسو كل وجه، وكأن الرجال يفكرون فى أولئك الذين تركوهم فى الديار.

أخرجت بعض الجنيهات المجيدية والجنيهات المصرية ووزعتها؛ حيث ذهبت العملات المعدنية إلى كل من محمد، وهارى، وحسان، وآرامى، الذين كانوا سيتركوننا قبل أن نصل إلى الحدود حيث الجنيهات المصرية متداولة هناك، بينما حصل الباقى على أوراق البنكنوت التى سيكونون قادرين على استخدامها فى "الفاشر"، وأعطيت زروالى عشرين خرطوشة من طلقات المسدسات وزجاجة عطر، بينما قسَّمت زجاجة العطر الأخرى بين الرجال، وتلقى بوكارا أحد غليوناتى وتبغًا ليستخدمها، وأعلن أنه لا يدرى ماذا يفعل ليرد كل هذا العطف الذى أبديته نحوه، وقال "لا أملك سوى جملى والملابس التى أرتديها، لقد أعطانى قيمة جملى تبغًا".

كان مخيمًا بهيجًا وقت الإفطار؛ فقد كان الرجال مسرورين بهداياهم، وكنت أستمتع برضاهم، وبعد الإفطار تمددنا جميعًا من أجل غفوة قليلة، إلا أننا نهضنا سريعًا وأجسادنا تحك بقوة نتيجة لهجوم النمل الأبيض.

فى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، كنا قد بدأنا السير، وبعد نصف الساعة من ذلك خرجنا من الوادى إلى السريرة، وفى مواجهتنا كانت تمتد سلسلة من التلال صوب الشرق والغرب وفى وسطها جبل كان يقع "أيسلنجة"، وإلى اليمين جبل " آجه " الذى كنا نتجه صوبه، وخبرنى هارى إنه توجد بئر أيضًا فى جبل " أيسلنجة"، ولكن كان من الصعب الوصول إليها، وكان الوادى الذى خيمنا عنده أبرز ما يميزه هو وجود شجرة عند الجانب الشرقى لمدخله.

كان يومًا حارًّا، وتحركنا ببطء لمدة ست ساعات، حتى وصلنا إلى حزام من الكثبان الرملية أوقف تقدمنا ليلاً.

السبت ١٩ مايو: بدأنا فى الخامسة والربع صباحًا، وتوقفنا تمامًا فى الثامنة مساءً، كانت هناك رياح شمالية شرقية حارة تهب من التلال، توقفت فى المساء، سرنا فوق رمال ناعمة شديدة التموج مغطاة بأعشاب جافة، وكلما اقتربنا من التلال كان تسطح الأرض يزداد مع وجود رقع من الصخور السوداء الصغيرة. وسرعان ما أصبحت الشمس حارة فى الصباح، كما تعرضنا لهبوب رياح حارة؛ لذا خيمنا فى التاسعة والنصف صباحًا فى ظل شجرة "تومتوم"، وكان ظلها السار ونتوءاتها من الثمار الحمراء تضفى شكلاً جذابًا فوق رءوسنا.

فى الثالثة والنصف بدأنا مرة أخرى على الرغم من الحرارة، على أمل الوصول إلى تلال "آجه" قبل حلول الظلام، وكان على الإبل أن تضرب حتى نبعدها عن ظل الشجرة، لتمضى تحت الشمس الحارة، وفى السابعة والنصف مساءً وصلنا إلى سفوح التلال، مع بزوغ الهلال الشاحب، وفجأة أطلق محمد تحذيرًا؛ فقد عثر على آثار حديثة لأقدام رجلين تقود إلى "ميردى"، وفى الصحراء فإن الشعور بوجود غريب على مقربة أمرًا يدعو لليقظة حتى يُثبت أنه ليس عدوًا، حُلّت البنادق سريعًا، ونزعت الأقمشة المليئة بالزيت التى كانت تسد خزائنها وعُمرت بالطلقات، وجمع الرجال الإبل التى كانت تنتشر هنا وهناك لترعى، وتقدم محمد، وهارى، وسنوسى بوحسان للأمام صوب الوادى ليستطلعوا الأمر، وبعد البحث الدقيق عادوا ليعلنوا أنه لا توجد آثار تقود إلى الوادى، ولكن هناك آثار حديثة تخرج منه. خيمنا عند مدخل الوادى الخالى من الأشجار والنباتات حتى نرى إذا ما اقترب أحدهم ليلاً، تناولنا عشاءنا على عجل،

وأطفأنا نيران مخيمنا، ووضعت الإبل والقرب فى منتصف المخيم، ورتبت الأمتعة حول حدوده، ووضعنا أربع نوبات للحراسة فى أثناء الليل، وذهبنا إلى مضاجعنا، ولكن النوم كان عسيرًا، بسبب حرارة الجوى الخانقة والترقب.

فى صباح يوم الأحد استيقظنا مبكرًا، واقتربنا من الوادى بحذر، ومررنا بآثار حديثة لأغنام ورجال، كنا على يقين أن أحدهم يخيم فى الوادى، لذا سبقنا محمد وهارى؛ لأن سكان هذه المنطقة كانوا من "القرعان"، ولا يوجد شخص آخر يتحدث لغتهم، وسرعان ما عادا ومعهما ثلاثة أفراد من القرعان، قابلتهم وفى وقار تبادلنا مراسم الأمان؛ حيث تقدم كل منا صوب الآخر وألقى ما كان معه من أسلحة " سيوفًا أو بنادق " على الأرض، وخاطبتهم بعبارات تحمل جلال الزمن " أقسم بالله أننا رجال مسالمون، وأننا لا ننوى بكم أى سوء، وأننا لا نعتزم سرقتكم"، ثم فعل فرد منهم بدوره الشىء نفسه، ثم انخرطنا فى أسئلة وإجابات مختصرة من كل جانب، من أنتم؟ متى جئتم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟ لأى غرض؟ ثم تصافحنا بالأيدى بصورة رسمية، والتقط كل منا أسلحته، وانسحب الجانبان.

حاولنا شراء خروف منهم، لكنهم رفضوا بيعه، وخلال فترة وجيزة رحلوا ثم عادوا ومعهم ثلاثة خراف، قدموها لنا على سبيل الضيافة، رافضين قبول أى ثمن لها، وردًّا على مجاملتهم أعطيتهم قماشًا أزرق، كانوا سعداء به للغاية.

أُرسلت الإبل للبئر لتشرب ولتحضر المياه للمخيم، بينما شغل الرجال أنفسهم بالإعداد لوليمة اللحم الكبيرة، وبعد الظهر التقطت

بعض الصور للمنطقة، وفى المساء جمعت بعض الملاحظات العلمية، وكان المصباح اليدوى " البطارية " الذى كنت أستخدمه فى قراءة الثيودوليت يفزع صبية " القرعان " فى البداية، ثم أصبحوا يسروا لرؤيته بعد ذلك.

ولعل وادى" آجه " جدير بأن يكون مشهدًا لصورة رائعة، وهو عبارة عن ممر طويل ضيق يمتد بين جروف عالية، تكثر به النباتات والأشجار، أكثر مما رأيناه فى هذه الأرجاء، وعند منتصفه يتشعب إلى فرعين أحدهما يمتد فى اتجاه الجنوب الغربى صوب البئر، والآخر يمتد فى اتجاه الجنوب إلى الصحراء الشاسعة، والبئر التى توجد عنده تشبه تلك التى كانت فى "إردى"، ولكن ماءها ملوث بشكل سيئ بفعل الأغنام والإبل، والوادى مليء بالطيور التى كان تغريدها العذب يجعل المرء يظن أنه أمام أحد أقفاص الطيور بحديقة الحيوان.

استيقظنا ولا تزال الدنيا ظلامًا، والنجوم تلمع فى السماء. وجاء القرعان ليودعونا، وبعد أن سرنا لمسافة صغيرة انحرف آرامى وحسان إلى الجنوب أكثر، وتركانا ليعودا إلى "العوينات" ومعهما جمل آرامى، بينما اتجهنا إلى أسفل صوب التشعب الشرقى من الوادى، وكانت جوانبه شديدة الانحدار تحمينا من الشمس، وفى الطريق رأينا ثلاثة غزلان، وحاول بعض الرجال مطاردتها، ولكن الحيوانات الفطنة تسلقت التلال واستطاعت الفرار. وأطلق حامد وهو من الزوىّ النار على أحدها وأخطأه، وحتى لا يسخر منه الآخرون، رفض الاعتراف بفشله الكامل، وأذكر ذلك بقوة قائلاً "بعون الله أصبته، لقد رأيت الدماء تسيل منه". ولم يكن الأمر يعنى كثيرًا طالما أنه كان لا يزال لدينا لحم متبقٍ من ضيافة القرعان.

سرعان ما أصبح الجو شديد الحرارة ورفضت الإبل أن تتقدم؛ لذا خيمنا فى ظل شجرة، إلا أنه سرعان ما اكتشفنا أن أفضل حماية من الشمس بين الصدوع الصخرية.

تركنا الإبل ترعى على سجيتها وهدأ الرجال ليستعدوا لوجبة الظهيرة، فذُبح خروفان وغرس لحمهما فى عصى، وقلبا ببطء فوق النار حتى يتم شواؤهما بالطريقة البدوية، كان مذاقهما لذيذًا. وفى أثناء إعداد اللحم، جرح سعد يده، ورأيت الدماء تسيل منه، وسألت من أين جاءت؟! فقال بوكارا "من غزال حميد، ومرة أخرى انطلقت الضحكات بين الرجال حول واقعة الصيد الفاشلة.

بعد الغداء ملأتُ ساعاتى، وسجلتُ قراءات البارومتر الجاف، وترمومترى درجة الحرارة القصوى والصغرى، ودونتُ مذكراتى، وفجاه جاء حميد يعدو نحونا وهو يقول إنه رأى سربًا من النعام قريب منا، قبضنا جميعًا على بنادقنا، ووقفنا مستعدين، وسرعان ما ظهر النعام، وكان عدده يتراوح بين الثلاثين أو الأربعين، إلا أن البدو كانوا غير صبورين وفتحوا النيران عليها، بينما كانت المسافة لاتزال كبيرة للغاية، فاندفع النعام إلى وادٍ آخر، والرجال يلاحقونه بحرارة، وأُطلقت العديد من الطلقات، ولكن سرعان ما عاد زروالى ليقول إنه لم يتم اصطياد أية نعامة.

وبعد فترة وجيزة ظهر حميد وهو يحمل نعامة صغيرة، ويتبعه سنوسى بوحسان، كان كلا الرجلين يطالبان بحق إصابة الطائر، ونظرًا لأنه كان مصابًا بطلقتين – رغم أن أيهما قد تكون أماتته – فقد حضرا إلىَّ لأحكم فيما بينهما، وسألت عن رأى الرجال الذين

شاهدوا إطلاق الرصاص، فأجمع الكل على أن طلقة حميد هى التى صرعت الطائر؛ لذا حكمت لصالحه.

أما حميد الآخر – الجمَّال – فقد كان ضئيلاً، حاد الملامح، لا يخشى حيوانًا حتى الثعابين، وقد فوجئ بنعامة فى أحد الأجزاء المغلقة من الوادى، وبعد أن فشل فى الهجوم عليها بالأحجار، اندفع صوبها وأمسكها من عنقها، وتصارع معها بشجاعة، لكنها رفسته فى جنبه بإحدى قدميها القويتين، وفرت – كنت أشاهد هذا القتال من خلال نظارتى المعظمة، وتكاد جوانبى أن تنفجر من الضحك – ثم قفزت النعامة حافة الوادى وهى تنظر خلفها باحتقار إلى حميد، الذى وقف يلعنها وينفض ريشها عنه، ثم سار فى مشية امرأة عجوز ويده تضغط على الجانب الذى أصابته النعامة.

وعندما عاد سألته على انفراد "هل أصابتك النعامة؟"

فأجاب سريعًا بعد أن رفع يده من على جنبه "آه، لا"

فسألته مرة ثانية "إذًا لماذا لم تعد بها؟"

فعلل ذلك بتفسير يحمل قدرًا من القناعة "كان علىَّ أن أتركها تذهب، فما هى إلا أنثى".

ولعل أحد أكثر الأمور التى ندمتُ عليها فى هذه المرحلة هو أننى لم أكن قادرًا على متابعة الصيد كما كنت أحب؛ فليلة السير بين"العوينات" و"إردى" تركتنى فى الصباح مجهدًا للغاية، لفعل أى شىء عدا تسجيل قراءات مُعداتى العلمية، ومحاولة اختلاس ساعة أو ساعتين من النوم قبل أن يصبح الجو حارًا للغاية، كما أن مؤننا من

الطعام بدأت تتناقص وتتناقص، ولم أستطع المكوث فى "آجه" حيث يوجد الكثير من الغزلان، والنعام، والخراف البرية؛ فندرة المياه جعلتنى لا أضيع وقتًا كثيرًا هناك؛ حيث إن البئر كانت شديدة التلوث بفعل الحيوانات. كما كانت بندقية الجيش المصرية القديمة التى معى، وبندقية الفرسان الإيطالية التى أهديت لى فى "الكفرة" تصلحان للاستخدام فى الدفاع عن النفس فقط، بينما فائدتهما كانت ضئيلة فى القنص من على مسافات بعيدة، خاصة بالنسبة للغزلان؛ لذا كان الصيد رفاهية أنكرتها على نفسى.

كان الجو شديد الحرارة، ولم نستطع البدء حتى الخامسة مساءً، وبعدها واصلنا السير فى الوادى البهيج لما يربو على الساعة، وبعد ذلك بدأنا فى تسلق التلال، وعندما وصلنا إلى القمة كنا نستطيع رؤية جماله بوضوح؛ حيث كانت التدرجات الخضراء من الأشجار والشجيرات تصنع شكلاً خلابًا فاتنًا يتناغم مع الرمال الوردية والصخور الحمراء للتلال التى تحرس الوادى، والأصوات الناعمة للحمام الذى لا يحصى عدده، والذى كان يحلق مع نسمات المساء الباردة، وغروب الشمس الرائع، بلونيه الأحمر والذهبى، لتكتمل هذه المجموعة التى ليس من السهل نسيانها، أوقفت حصانى، ومكثتُ نصف الساعة سعيدًا، وأنا ممدد فوق الرمال الناعمة أرتشف من بهجة هذه القطعة الصغيرة من الجنة، وسرعان ما حل الظلام، وبدا الهلال، ومن بعيد سمعتُ بدو قافلتى يغنون، نهضت على كره وعدت للطريق من جديد.

وسرعان ما أصبحنا فى منطقة مختلفة وعرة وشديدة التموج، تحيط بها تلال شديدة الوعورة، وكانت الإبل تعانى من ماء "آجه" الملوث، والرجال أيضًا. لذا خيمنا مبكرًا لهذا السبب، وبسبب أنها كانت منطقة من الخطر السفر فيها على هدى ضوء قمر ضعيف، فقد انعطفنا صوب وادٍ ذى رمال ناعمة يبعد نحو مائتى متر عن طريقنا، وخيمنا هناك.

استيقظنا يوم الثلاثاء٢٣ مايو، وكانت النجوم لم تغادر السماء بعد، وبدأنا مع شروق الشمس الرائع، تحركنا ببطء، نظرًا لكثافة الشجيرات والصخور المتناثرة، بالإضافة إلى أن محمدًا وهارى لم يطآ هذه المنطقة منذ عشر سنوات، لذا كانا يفتشان عن الطريق بحذر.

قلت لحميد الجمَّال بينما كنت أسير فى موضعى المفضَّل خلف القافلة "أحسب أن محمدًا يمتطى جمله وإلا ما تحركنا بمثل هذا البطء". فقال رفيقى الفطن بسرعة "يا بيه، الرجل أشيب الشعر يسير، فآثار أقدامه على الأرض".

ومرة أخرى أعجبت بقوة ملاحظة البدو، خاصة الجمَّالين، فقد عرف حميد خصائص آثار قدم كل فرد يسير فى القافلة، وبالطبع كان يعلم آثار أقدام كل جمل أيضًا.

فى يوم الأربعاء استيقظنا مبكرًا عن المعتاد، لتلهفنا على الوصول إلى بئر "عنبة"؛ فمياه "آجه" كانت أسوأ ما تذوقناه، وكانت آثارها على الرجال والإبل سيئة، وبعد ثلاث ساعات من السير وصلنا إلى حدود الوادى حيث تقع البئر، هبطنا إليها واكتشفنا من

آثار أقدام الأغنام، والحمير، والرجال الموجودة فى المنطقة أن المكان مأهول بالسكان، لذا سبقنا محمد ليقابل الرجال الذين يعيشون هنـاك، ويعطى ويتلقى الأمان، وسرعان ما خيمنا بجانب البئر، كـان المـاء ممتازًا، واستمتع الرجال والإبل بمذاقه.

كان هناك بالفعل مخيم كبير للبدو، به مئات الأغنـام، وبضـعة خيول، وبعد قليل حضر كل السكان يقودهم الشيوخ لتحيتنا، تصافحت معهم، ووزعت بعض العطر عليهم واضعًا القليل فى يد كل منهم.

بعد الظهر أحضروا خروفًا كضيافة، ومن بينهم امـرأة كانـت لديها حاسة تجارية قوية - عرضت زبدًا وسمنًا وجلدًا لتبيعـه لنـا، وأعطيناها فى المقابل جنيهات مجيدية وأقمشة. وفى المساء جمعـتُ بعض الملاحظات وكان البدو - سكان المنطقـة - مرعـوبين مـن الثيودوليت والبطارية، وبدأت شكوكهم تتزايد؛

حتى إن أحد الشيوخ دخل خيمتى وباغتنى وأنـا أفـتح حقيبـة المعدات العلمية التى كانت معى، وعندما شـاهدته أغلقـت الحقيبـة سريعًا، وقتها أدركت على الفور خطئى؛ فقد اسـتطعت أن أرى فـى وجه الأسود القاسى وعينيه الصفراوين اللتين كانتا تشـبهان عينـى الثعلب أنه يؤمن بأن معى ذهبًا فى الصندوق، وبينمـا كـان يغـادر خيمتى أمرت سنوسى بوحسان وحميدًا أن يقفا كحراس فى المخـيم، وأشرتُ لهما وأخبرت الشيخ ألا يسمح للنساء أو الأطفال بـالاقتراب من المخيم فى الليل، مخافة أن يرتكب رجالى خطأ ويطلقـون النـار عليهم، كانت مجرد إشارة إلى أننا متيقظون للغاية؛ لذا فلا أمل فـى مباغتتنا واستطعت رؤية الإشارة وهى تصل إلى مقصدها.

الفصل التاسع عشر

إلى فوراويا مع نقص المؤن

«وادى "عنبة" تكسوه الرمال الناعمة التى تنتشر فوقها الشجيرات الجافة والخضراء بالإضافة إلى الكثير من الأشجار».

نمت جيدًا فى الليلة السابقة، واستيقظت على جلبة امرأة بدوية، تتفاوض مع رجال قافلتى على مقايضة الصفائح الفارغة، وعرضت مقابلاً لها لبنًا ونوعًا من الشجيرات الجافة يسمونها "توباكو"، كما تلقينا خمس غنمات أخرى على سبيل الضيافة، وفى المقابل وزعت المزيد من الهدايا.

بدأنا فى الثالثة والربع ظهرًا تحت تشجيع الرياح الجنوبية الغربية الباردة، ولكن سرعان ما توقفت الرياح، ليصبح تقدمنا بطيئًا بسبب حرارة الجو، ومع ذلك فقد كان المساء أكثر برودة واستطعنا تعويض بعضٍ من الوقت الضائع، أما الليل فقد كان باردًا للغاية.

الجمعة ٢٥ مايو: استيقظنا فى الرابعة صباحًا، وبدأنا السير بعد ذلك بساعة وربع الساعة، كانت الأرض شديدة التموج والوعورة، ولم يكن هارى واثقًا من الطريق؛ لذا فقد تحركنا ببطء بسبب صعوبة السير وعدم تيقن الدليل من الطريق. وبعد التاسعة بقليل دلفنا إلى أحد الأودية الجانبية وخيمنا بعد ساعة من ذلك.

وجدت سنوسى بوحسان بينما كان يسير بجانبى يصوغ رأيه فى الدليل بصورة تعكس اعتزازه ببداوته، قائلاً " هؤلاء القرعان يتهادون مثل الإبل، فهم لا يسيرون مثل البدو الذين يطيــرون مباشــرة إلـــى هدفهم مثل الطيور".

عندما عدنا للطريق بعد الظهر، كانت الشمس لا تزال حارقـــة؛ لذا تحركت الإبل ببطء، وكان غناء الرجال أشبه بصـــوت موســيقى القرب المحطمة. ولعل ذلك مرده أيضًا إلى أننا كنا مجبــرين علـــى التحرك ببطء؛ لأن هارى زاد عدم يقينه من الطريق الذى كنا نســلكه عما قبل. وفى بعض الأحيان كنا نتتبع بعض الآثار التى خلّفها قطيع من الأغنام فقد افترضنا أنه متوجه إلى " باو"، ولكن فـــى الفواصـــل ضاعت تلك الآثار وسط نطاقات الصخور المهشمة.

بعد الخامسة بقليل دخلنا إلى وادٍ كبير – عرفنا بعد ذلك أن اسمه "كونى مينا" – يتشعب صوب الشرق والغرب، وكان ملىء بالأشجار الصغيرة، وقبل أن نصل إليه بقليل قابلنا أحد القرعان ومعـــه بضـــع غنمات، توجه نحوى وألقى سيفه ورمحه على الأرض وخلع نعليـــه، ثم تصافحنا مع تكرار قول " كيف حالك؟ طيبون"، فقد كانت تلك هى كل الكلمات العربية التى يعرفها.وبعد ذلك تحدث معه محمد وهارى، وعرفا أنه يوجد مخيم للقرعان فى الوادى الممتد أمامنــــا، وأن أحـــد تجار الماشية قد وصل للتو، قادمًا من "فادا" التى توجد فى "الواداى"، ومعه أغنام وأبقار فى يتجه بها إلى "الفاشر"؛ لذا سبقنا محمد وهارى واقتربا من أكواخ القش التى يتكون منها مخيم القرعان، بينما توجهنا صوب الوادى وخيمنا عند حدوده.

وسرعان ما جاء أحدهم وهو يعدو، طالبًا منا أن نعود إلى المخيم، ونبدأ مرة أخرى فى اليوم التالى. قدرت اقتراح الضيافة، إلا أننى شعرت أننا لا نستطيع أن نتراجع حتى ولو كيلومترين، شكرته على الدعوة وأخبرته أننا فى عجلة شديدة من أمرنا، وأنه يجب علينا أن نخيم فى الجوار انتظارًا لعودة دليلنا، وبعد ساعة من ذلك ظهر محمد محملاً بأخبار من "فادا" و" الفاشر"، حصل عليها من التاجر.

انشغلنا هذا المساء بفحص حقائبنا وإصلاح الأضرار التى لحقت بها، واكتشفنا أن كل الحبال التى معنا أصبحت بالية، وكذلك حقائب البدو المصنوعة من الصوف، وأننا نفقد الكثير من الوقت على الطريق فى إعادة التحميل ونقل الأشياء من جملٍ إلى آخر، ولكن عزاءنا أننا كنا نعلم أنه خلال أسبوعين سوف نصل إلى "الفاشر".

وفى ٢٦ مايو شاهدت أجمل شروق شمس لم أرَ مثيلاً له من قبل، كانت أشعة الشمس البيضاء المتألقة تنعكس على الصخور الحمراء والسوداء القريبة والتلال البعيدة فتجعل كل شىء رائعًا ومتميزًا، وسرعان ما تغير لون هذه الأشعة إلى الأحمر الدافئ المتقد، ثم نفذت الأشعة الذهبية عبر السحب الرقيقة وفاضت فوق كل شىء، بينما كانت الظلال الطويلة التى تلقيها الصخور والشجيرات على سطح الأرض أشبه بالرسومات السوداء على الرمال الصفراء، وبدت ظلال القافلة وهى تتحرك ببطء كرسم خرافى.

وسرعان ما أثبت أنه صباح شديد الوطأة فقد ارتفعت درجة الحرارة بصورة كبيرة.

فى صدر النهار انضم إلينا هارى، ومعه خروف مذبوح وهو الضيافة القادمة من مخيم القرعان.

تتبعنا آثار الإبل والأغنام، وسرنا من وادٍ إلى آخر إلى أن خيمنا فى أكبرها، كان به العديد من الأشجار الظليلة.

وكانت هناك دائمًا مشكلة سواء توقفنا تحت ظل شجر وعانينا من هجوم النمل الأبيض وكل أنواع الحشرات الضارة، أو نصبنا خيامنا فى الشمس الحارقة. وإن كنت أميل إلى تجربة حظى فى الظل، طالما أن الحشرات دائمًا معك، بينما تزيد درجة حرارة الشمس بنحو خمس أو ست درجات بعد الظهر. وكان الوادى الذى خيمنا فيه يدعى " كاب تيركو".

بدأنا مرة أخرى فى الرابعة بعد الظهر، فى ظل وجود نسمات جنوبية شرقية،جعلت السير غير ممل، كما كانت هناك أيضًا بعض السحب التى لطَّفت من حرارة الشمس. فسارت الإبل على نحو أفضل، وقرب الغروب مررنا بأسرة من القرعان تتكون من رجل وزوجته وطفل عارٍ، وبعد ذلك عثرنا على بئر، كان عمقها سبعة أمتار وماؤها كان جيدًا، على الرغم من أن جذور الأشجار القريبة من تلك البئر تعفنت فى داخلها وجعلت رائحتها كريهة.

خيمنا فى الثامنة مساءً – لحسن الحظ – فى منطقة خالية من الصخور والشجيرات؛ إذ زار مخيمنا فى الواحدة صباحًا أحد الضباع، ولولا يقظة حميد " الجمَّال " لنال من بركة – الفرس – الذى كان مربوطًا فى أثناء الليل؛ لذا لم يكن قادرًا على الدفاع عن نفسه،

إلا أن حميدًا أطلق دفعات من النار عليه، ومن خلال نظارتي المقربة رأيت جسمه الأسود وهو يجري بعيدًا في ضوء القمر المتألق.

الأحد ٢٧ مايو: بدأنا في الساعة الخامسة والربع صباحًا وتوقفنا في التاسعة والربع، ثم عدنا للتحرك مرة أخرى في الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٣٠ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٧ درجات مئوية، في الصباح كان الجو صحوًا وصافيًا وهادئًا، وفي منتصف اليوم هبَّت رياح جنوبية شرقية حارة توقفت بعد الظهر، كما ظهرت بعض السحب البيضاء. وفي المساء أصبح الجو دافئًا وصافيًا، ثم كثيف السحب مع سقوط بضع زخات من المطر في العاشرة مساءً. مررنا بأودية تكسوها الرمال الناعمة، مع وجود بعض تلال من الصخور الرملية المنخفضة التي يتراوح ارتفاعها بين عشرين وثمانين مترًا، وبعض رقع من الصخور التي تتخلل الرمال.

برهن هاري على عدم مهارته؛ فقد تنبأ بأننا سوف نصل إلى "باو" في هذا الصباح، ولكن عندما حل المساء لم نكن قد وصلنا إلى هناك بعد. لقد عرف الأماكن عندما رآها، ولكن إحساسه بالاتجاه كان خاطئًا، ولعل أسوأ ما في الأمر أن ماؤنا كان أوشك على النفاذ فيما عدا قربة أخيرة، وكانت ساخنة للغاية.

واصلنا السير حتى السابعة وخمسة وأربعين دقيقة، وعندها وصلنا إلى أرض صخرية كان من الخطر على الإبل اجتيازها حتى

فى ضوء قمر جلى، كنا عند بداية وادٍ كبير، الذى أعلن هـارى أنـه "باو"، إلا أننا لم نستطع تصديقه، كما أن الخبرة علمتنـى ألا أسـمح باستخدام آخر مؤننا من المياه ليس فقط عندما أرى البئر، بل عنـدما أقترب منه وأتأكد أنه يوجد به ماء صالح للشرب، وأصررت علـى عدم لمس آخر قربة فى هذه الليلة، وذهبنا إلى مضاجعنا بلا عشـاء؛ طالما كنا لا نستطع الطهى بلا مياه.

ورغم ذلك فقد كان عزائنا هذه الليلة الجميلة، تمددت فى الفراش أراقب مداعبة السحب للقمر، حتى غلبنى النعاس.

استيقظنا مبكرًا؛ فالمعدة الفارغة لا تشجع على النـوم طـويلاً، وقدنا الإبل كما لم نقدها من قبل، وكانت تبدو متعبة وضعيفة، وعندما يكون الرجال والإبل جوعى وعطشى تبزغ كل المسـاوئ الأخـرى للقافلة، لم يكن هناك غناء هذا الصباح، الصمت فحسب كان يـدفعنا نحن والإبل للأمام بقوة.

كان نزول الوادى وخطرًا؛ حتى إن ثلاثًا من الإبل ألقت حمولتها على الأرض، واضطر الرجال إلى حملها والهبوط بها إلى منسـوب الأرض ثم تحميلها من جديد، وفى النهاية رأينا بضعة خراف وكوخًا من القش أو اثنين، عندها توقفنا، وسمحت للرجال بأن يشـربوا مـن ماء القربة الأخيرة؛ لأنهم قد طلبوا ذلك أكثر من مرة هذا الصباح.

تقدم هارى ومحمد صوب الكوخين، وفى الوقت ذاتـه تحركـت القافلة لتهبط الوادى صوب البئر، وسرعان ما جـاء بعـض سـود القرعان والقبائل البدوية ليقابلونا. أطلقنا بنادقنا فى الهواء كالمعتـاد،

كما لو كان ذلك الأمر للتحية، ولكن فى الواقع كنا نعطـــى انطباعًـــا لسكان المنطقة عن مدى استعدادنا.

لاحظت - بالصدفة البحتة - أن كل من قابلنا - ســواء كـــانوا رجالاً أو نساء - كانوا من كبار السن، لم يكن هناك أى فرد صـــغير السن فيما بينهم، خاصة من النساء. ومع ذلك فلم أُلقِ لهذا الأمر بـــالاً إلى هذا الأمر باعتباره أمرًا استثنائيًّا، ولكن بعد فترة وجيزة اندهشت أن أرى مجموعات من الفتيات النحيفات الجميلات ذوات البشرة البنية أو السوداء، أنصاف العرايا، فى ملابسهن البالية، يتوافدن معًـــا فـــى مجموعات تتكون من ثلاث أو أربع فتيات، اســـتدرت إلـــى بوكـــارا وسألته من أين جاءت تلك الفتيات؟ فأجاب بوكارا وهو ينظر إلـــيهن بإعجاب شديد " والله العظيم، هذه الفتيات من القرية؛ فقد ظنـــوا أننـــا جئنا لننهب القرية ونسبى فتياتها ليصبحن إماء؛ لذا فبمجـــرد أن رأوا قافلتنا أرسلوهن خارجًا ليخفوهن. أما الآن بعد أن عرف الرجال أننا قافلة مسالمة، أبلغوا الفتيات أن يعدن".

وعندما كانت الفتيات تمر بحصانى كن يســقطن بحيــاء علـــى ركبهن كتحية، وفقًا لتقاليدهن هنا عند مخاطبة شخصٍ مـــن مرتبـــة أعلى؛ ففى هذه الجزء من العالم عندما يقابل المرء شخصًا أعلى منه مكانة فإن من اللياقة ألا يقف بل أن يجلس علامـــة علـــى التـــوقير. وواحدة تلو الأخرى سقطن الفتيات على ركبهن، وفى المقابل كنـــت أرد عليهن بتحية الإسلام "سلام الله عليكن ورحمته وبركاته"، وبينمـــا كن ينهضن مرة أخرى كانت الفتيات تنظرن فى حياء إلى رفاقى من البدو المعجبين بهن.

خيمنا فى نهاية الوادى بالقرب من البئر، وبعد ساعة من ذلك حضر شيخ المخيم ليحيينا، وناقشنا معًا الطريق إلى " الفاشر" والاتجاه الذى يجب أن نسلكه، وهنا بدا هارى مستغرقًا فى تفكير عميق، وقد تملكه الحزن؛ لأننا كنا بالقرب من وطنه، فقد عبرنا حدود الوادى الفرنسى الآن. كان قد تخلى عن حقوقه، وفرَّ هاربًا من الفرنسيين تاركًا كل ممتلكاته وأقاربه، وذهب إلى واحة "العوينات" المعزولة ليحيا فيها منفيًّا بإرادته.

كنا نعبر بيئة مختلفة تمامًا؛ فقد كان هناك العديد من الطيور المتنوعة بما فيها: الغربان، والبوم، والببغاوات، والحمام، بالإضافة إلى طيور أخرى لا أعرفها.

فى أثناء الليل قتلت الأسود حمارين، وأسر بعض المستوطنين أحد صغار هذه الأمور، وأرسلوا جلده إلى " فادا " ليباع هناك.

* * *

هناك العديد من سود القرعان وقبائل البدو فى " باو". وتتسم النساء بأنهن جميلات، يرتدين ملابس بسيطة للغاية، تتكون من قطعة واحدة من القماش تُلف بمهارة حول الجسم، ثم يُلف فوقها شريط صغير يستخدم كحزام يوضع بداخله سكين صغير، أو يلففن قطعة صغيرة من جلد الأغنام حول الجزء الأسفل من الجسم، ويُصففن شعورهن فى جدائل صغيرة، ويرتدين حليًّا من الفضة والعاج، ويضعن حلقات فى شعورهن، وعقودًا من الخرز والكهرمان، بينما يقتصر رداء الفتيات الصغيرات على مئزر بسيط من الجلد أو

القماش، أما الرجال فقد كانت بنيتهم الجسدية رائعة، حيث يسيرون عرايا فيما عدا قطعة من القماش تُلف حول عورتهم، ويحملون معهم رمحين أو ثلاثة بالإضافة إلى سيف وخنجر، وكان الشيوخ فقط هم الذين يرتدون ثيابًا بيضاء وعمائم كبيرة.

* * *

أعطينا النساء والأطفال بعض المكرونة، لكنهم رفضوا أن يأكلوها، وبدلاً من ذلك نظموا حباتها فى خيط، وصنعوا منها عقودًا ارتدوها فى زهو، وسرعان ما تحركت غريزة البدو التجارية، فصنعوا عقودًا من مخزون المكرونة القليل الذى معهم، وقايضوها بالزبد والجلد.

كان على محمد وهارى أن يتركانا هنا؛ فلم يستطيعا المجازفة بالتوجه جنوبًا أكثر من ذلك، ووجدت بعض الصعوبة فى العثور على دليل يقودنا إلى " فراويا"، لكننى نجحت فى النهاية. تلقينا خروفًا كضيافة وتعشينا مبكرًا يوم الثلاثاء، عازمين على أن نبدأ السير بقوة فى الصباح الباكر.

لم يقدم الدليل نفسه، وبدأت أشعر أن البدو يشكون فى قافلتى، إلا أنه ظهر فى الساعة الحادية عشرة مساءً، وفى التو أيقظت الرجال وأمرتهم بأن يجهزوا الإبل ويحملونها، قبل أن تتاح للدليل أية فرصة ليغير رأيه.

الأربعاء ٣٠ مايو: بدأنا فى الواحدة صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة والنصف، وبدأنا مرة أخرى فى الرابعة والربع بعد الظهر، وتوقفنا

فى السابعة والربع مساءً، قطعنا خلال هذه المدة نحو ٤٠ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٦ درجة مئوية، ظل الجـو صـحوًا وصافيًا، مع وجود رياح قوية ومتربة تهب من الجنـوب الشـرقى، وبعد الظهر تغير اتجاه الرياح لتصبح شمالية شرقية لتتوقـف فـى المساء، بدت المنطقة كالتى قبلها وإن تفاوت جمالها، كما خلت مـن الأودية الكبيرة والأشجار الضخمة. وفى الثامنة والربع عبرنا واديًـا صغيرًا يجرى شرقًا وغربًا.

عندما بدأنا فى الواحدة صباحًا، كان هناك قمـر جميـل جعـل الرؤية واضحة مثل النهار. وبدأ معنا كل من هارى ومحمد؛ لأنهمـا أرادا أن يعطيا انطباعًا للرجال فى "باو" أنهما سـوف يذهبان معنـا إلى "الفاشر"، لأنهما خشيا أن يكمن أحد لهما على الطريق، وخـلال ساعة كنا خارج الوادى وتوقفنا لنودع دليلينا اللذين كانا سيسافران – فى طريق عودتهما إلى "العوينات" – فى الليل فقـط، حتـى يتجنبـا اكتشاف أمرهما.

وبينما كنت أقف بعيدًا بعض الشىء عـن القافلـة فـى لحظـة وداعهما، لاحظت أن الصعوبات التى خضنا غمارها سويًا قد قرَّبـت كل منا للآخر. كان محمد طويلاً، منتصب القامة، ذا عينين ثـاقبتين، يتسم بثقة فى النفس أكسبته إياها حياة الصحراء، بالإضافة إلى إيمان راسخ بالقضاء والقدر، يقبل معه الإنسان كل ما قد يأتى. بينما كـان هارى ذا أخلاق نبيلة، كهلاً متواضعًا، دمث الخلق، ذا ابتسامة عذبة، وسلوك ساحر. تبدو عليه أمارات الكبرياء عند تحركه على الرغم من أنه كان يعانى من جرح فى قدمه اليسرى؛ لذا كان يجرهـا عنـدما يسير؛ كان أميرًا بطبيعته.

ولم يكن ذلك فراق رفقاء سفر فحسب، بل وداع أشقاء.

نسينا كلنا أننى رأس القافلة وهم أدلائى، ووضع هارى يده على كتفى وتحدث بنبرة مليئة بالمشاعر قائلاً " ربنا يكرمك ويعطيك القوة، هذا هو طريقك"، وأشار إلى فتحة فى التلال البعيدة، تمتمت ببعض كلمات لا أثق أنها لم تكن مرتعشة، واستدرت فى طريقى صوب قافلتى، واختفى هذان الجليلان بعيدًا فى ضوء القمر وصورتهما تدعو للشفقة فكلاهما منفى عن وطنه رغم أنهما قريبان من ديارهما.

توقفنا عند الفجر من أجل صلاة الصبح، وخيَّمنا فى الثامنة والنصف صباحًا، كانت هناك آثار أسود حولنا. عدنا للسير مرة أخرى مبكرًا بعد الظهر، لكن الرجال كانوا متعبين؛ فقد نالوا قسطًا ضئيلاً من النوم فى الليلة السابقة؛ لذا سرنا لمدة ثلاث ساعات فقط، بينما فرَّ هاربًا الخروف الذى أهدى إلينا ، وفى ضوء القمر سعى حميد وسعد خلفه يثغوان مثل الخراف لعلهما يجذبانه، لكن بلا فائدة.

الخميس ٣١ مايو: بدأنا فى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وعدنا للسير مرة أخرى فى الثالثة والنصف بعد الظهر لنتوقف فى السابعة والنصف مساءً.قطعنا ستة وثلاثون كيلومترًا. بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٧ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٥ درجات مئوية، بدأ الجو صحوًا وهادئًا، ومع حلول الظهيرة هبت رياح جنوبية شرقية، تغيرت لتصبح شمالية شرقية، وتوقفت قرب المساء. وقد اتسم كل من المساء والليل بالهدوء وبزوغ قمر كامل وبعض السحب البيضاء.

كان يومًا خاليًا من الأحداث المهمة.

بعد فترة قصيرة من بدايتنا المبكرة يوم الجمعة ١ يونيو غفا الدليل و" دارت رأسه"، وأصبحنا نتجه صوب الغرب بدلاً من الجنوب الشرقى، لم أتدخل حتى توقفنا لصلاة الصبح فى الخامسة صباحًا، وعندها سألته فى هدوء عما إذا كان ينوى السير صوب الغرب، اندهش لكنه اعترف بخطئه صراحة، ولحسن الحظ أننا لم نكن قد سرنا كثيرًا فى الاتجاه الخطأ.

فى السادسة والنصف صباحًا مررنا بتل يسمى "تاميرا"، وتوجد عنده شجرة جافة تعلم الحدود بين "الواداى" و"السودان"، ومن علامة الحدود هذه هبطنا إلى "وادى هوار"، وهو وادٍ كبير ملىء بالأشجار الضخمة، ويقال إنه يمتد صوب الغرب إلى "الواداى" – حيث يدعونه هناك باسم "وادى حواش" – وشرقًا إلى "السودان".

كانت تربة هذا الوادى شديدة الخصوبة؛ لذا يأتى إليه فى الخريف الرجال من "الواداى" و"دارفور" من أجل الرعى. خيمنا هناك خلال التوقف فى الظهيرة، ووجدنا بعض آثار الزراف، وبعد الظهر سرنا داخل منطقة زاخرة بالأعشاب الجافة العالية، كما لو كنا نسير وسط حقل كبير للذرة الناضجة.

أصبح رجال القافلة مرهقين، وبليت حتى ملابسهم الإضافية، وكانت الأحذية فى الرمق الأخير، بالإضافة إلى ذلك كنا نعانى بشدة من "الشِّبيط"، وهو عبارة عن أشواك كلابية صغيرة قاسية تنمو مع العشب القصير، وتتعلق بأى فرد يمر بها، وعندئذ يكون من الصعب انتزاعها.

سمعت بوكارا يصف لحميد الزرافة والفيل؛ فقال له إن الزرافة لها رأس جمل، وحافر بقرة، ومؤخرة حصان، بينما كانت الكلمات التى وصف بها الفيل غريبة جدًّا، وشديدة المبالغة.

السبت ٢ يونيو: بدأنا مبكرًا جدًّا؛ حتى نتأكد من وصولنا إلى "فراويا" فى هذا اليوم، وفى الخامسة صباحًا مررنا على يميننا بعلم "حجر كمرارا" وكان يبعد عنا بنحو ١٠ كيلومترات، وبعد ساعة أخرى مررنا "بحجر أردرو" وهو تل يبلغ ارتفاعه نحو ٨٠ مترًا وطوله ٢٠٠ متر، و"حجر" كلمة سودانية تعنى "الجارا" أو "التل الصغير"، ثم بدأنا النزول إلى وادى "فراويا". كان أكبر الأودية التى عبرناها وأكثرها سكانًا، ومعظمهم من قبيلة "الزغاوة"، بالإضافة إلى بعض البدو.

خيمنا فى التاسعة صباحًا بالقرب من أحد مخيمات البدو، وسرعان ما سمعنا أخبارًا مؤلمة بأنه لا يوجد طعام متاح فى "فراويا". وكان ذلك على عكس توقعاتى؛ لذا أصبحت فى عجلة لأن أجد رسولاً يحمل رسالة إلى حاكم " دارفور " الذى كان مقره فى "الفاشر"، أطلب منه أن يرسل لى مؤنًا وقماشًا من أجل ملابس رجالى التى أصبحت أسمالاً. وبعد الكثير من التردد الناجم بوضوح عن الخوف من رجالى، حضر لزيارتنا شيخ الزغاوة من المخيم القريب منا، يدفعه الفضول لزيارتنا، وكان تحت الحكم السودانى، فاقتنصت الفرصة، وعرضت عليه أن يأخذ ثلاثة جنيهات مقابل أن يحمل رسالة منى إلى سافيل باشا حاكم "دارفور"، وكان عرضنا سخيًّا، وبالإضافة إلى ذلك توعدته بأمور عديدة غير سارة إذا ما تردد أو

رفض قبول هذا الأمر، قلت لــه إنه يجب أن يبدأ مع بــزوغ فجــر اليوم التالى، وقد تذمر بعض الشيء بدعوى أنه ليست لديه أية دابــة ليركبها، رحل وسرعان ما عاد ليقول "إنه سوف يأخذ خطــابى إلــى "الفاشر"، وأنه ينوى الذهاب بحصان"، كان ذلك خبرًا جيدًا؛ لأننا لــم يكن لدينا سكر منذ ثلاثة أسابيع، واضطررنا إلى أن نحلى الشــاى - بقدر ما نستطيــع - بمسحوق البلح، كما نفد أيضًا ما معنا من دقيــق وأرز، بينما كان مذاق ما تبقى من مكرونة معنا - والتى كانت تعــد بالماء السيئ - بشعًا للغاية.

نقلت المخيم بالقرب من إحدى الآبار فى الوادى، وحاولت شراء خروف لأبهج رجالى، لكن الليل كان قد حل بالفعل، ولم يقتــرب أى من السكان المحليين من مخيمنا. فسقينا الإبل، وهدأنا نظــرًا لحلــول الليل، غير راضين تمامًا عن الحياة.

وفجأة أدهشنى أن أسمع صوت رجالى وهم يغنون فى سعادة كما لو كانوا قد عثروا على وجبة طعام جيدة، ناديــت علــى زروالــى وبوكارا وسألتهما علامَ هذا الغناء طالما أنه لا يوجد سكر أو طعــام، والأمور بصفة عامة غير مقبولة؟!

فأجاب زروالى " نستطيع أن نتنفس الآن، فقد دخلنـــا الســودان، وشعرنا أننا - أصبحنا أخيرًا - فى آمان".

فسألت "ممَّ كنتم مرعوبين هكذا؟ هل من الرحلة التى قمنا بها!؟

فأوضح بوكارا قائلاً " عندما كنا فى "الكفرة" قال لنا كل أقربائنا إننا نسير إلى حتفنا - عندما سلكنا هذا الطريق - كما قــالوا لنـــا إن

مصيركم كُتِب عليكم، ولكن من يدرى؟ ربما يحميكم الله"، وقد تساءلنا هل من المحتمل أن يكونوا على صواب؟ "

وقال زروالى " لقد سمعت فـى الكفـرة كيـف كـان الـبعض يشجعونك على أن تسلك هذا الطريق، بينما كانـت هـذه النصـائح ضدك؛ فمن أيدوك كانوا فى الحقيقة رجالاً حاقدين، كـانوا يتمنـون ببساطة ألا يروك مرة أخرى".

وفى هذا الوقت أيضًا كان زروالى - بعد أن أصبحنا قريبين من نهاية الرحلة - يشعر فى قرارة نفسه بحرية فى الحديث؛ لذا أخبرنى أن بيوت "الشدايدة" و"الجهيلات" من قبيلة زوىّ فى "هوارى" و"الكفرة" قد استاءوا بشدة من زيارتى الثانية، وعقدوا اجتماعًا ناقشوا فيه أيهما أفضل: أن يدمروا القافلة أم يحولوا دون رجوعى؟!

أدركت فى هذه اللحظة مدى الشجاعة التى كان يتمتع بها هؤلاء الرجال لكى يرافقونى فى هذه الرحلة عبـر طـرق غريبـة وغيـر معروفة ودون أى تذمر أو احتجاج، كنت بالفعل فخورًا بهم.

فى الثانية صباحًا أيقظنى حميد - الذى كان يتولى نوبة الخفارة- ليخبرنى بوصول الرسول، وأنه كان مستعدًا لأن يأخذ خطـابى إلـى "الفاشر"، كنت قد كتبت خطابين بالفعل، وكانا جاهزين تحت وسادتى، أحدهما إلى سافيل باشا والآخر إلى الضابط المسئول فـى "كوتـوم"، وهى عبارة عن قاعدة عسكرية متقدمة على الطريـق المتجـه إلـى "الفاشر"، أطلب منه أن يتأكد من وصول خطاب "الفاشر" إلى مقصده، كنت سعيدًا أن الرسول حضر مبكرًا؛ فكلما حصلنا على مؤننا الجديدة

مبكرًا كلما كان الجميع سعيدًا، وعدته بمزيد من الجنيهات إذا ما سلم الخطاب إلى "الفاشر" خلال أربعة أيام، وودعته بحرارة وراقبته وهو يعدو فى ضوء القمر ممتطيًا حصانًا قويًا إن لم يكن بريًا.

الفصل العشرون

نهاية الرحلة

«أبَى النوم أن يطاوعنى فى ليلتى الأولى بفوراويا؛ فقد كنت مستثارًا على نحو لم آلفه منذ أن ودعت الملازم باثر BATHER فى السلوم لأبدأ رحلتى؛ فالآن عدت للاتصال مرة أخرى بالعالم الخارجى، وانتهت الرحلة بالفعل على الرغم من أنه كان لا يزال هناك شهر أو أكثر قبل أن يصبح علىَّ أن أبدل قافلتى بوسيلة انتقال أخرى؛ فالواحتان المفقودتان "أركينو" و"العوينات" لم يعدا مفقودتين بعد الآن، كما أنه يمكن الآن - إذا كانت ملاحظاتى دقيقة كما آمل - رسم خريطة جيدة لهذا النطاق من الصحراء الليبية الممتد من "جالو" إلى "فوراويا"».

أمضينا ثلاثة أيام كاملة فى " فوراويا " محاولين التعود على المناخ الرطب الذى أصبحنا نواجهه؛ فالسحب الداكنة كانت تحوم فوق رءوسنا معظم الوقت، وكانت السماء تمطر كل يوم، كما كنا نحاول أن ننال كفايتنا من الطعام كى نبعد عن أنفسنا حالة الهزال التى كنا نعانى منها، حتى أتخم رجالى أنفسهم بلحم الضأن، ورغم هذا فقد كان نقص السكر اللازم لإعداد الشاى والمؤن الأخرى يقلل من استمتاعنا بهذه الولائم.

بعد ظهر يوم ٦ يونيو تحركنا صوب الجنوب، وتسلقنا ببطء للخروج من الوادى، وفى هذه الأثناء مررنا بالعديد من قطعان الأغنام والأبقار فى أثناء رحلة عودتها للديار، يتبعها فتيات نحيفات أو فتيان لا يرتدون شيئًا سوى مئزر يسترون به عوراتهم، أو عقود من الخرز.

كانت تلك البيئة تختلف تمامًا عن الصحراء التى عبرناها؛ فقد كنا نقطع دروبًا مطروقة، ونمر بقرى صغيرة تتكون من أكواخ من القش، ونساء يحملن الحطب، إلى جانب علامات العمران الأخرى.

وبالقرب من إحدى هذه القرى طلبت من القافلة أن تسبقنى إلى هناك، وأشرت لهم أين سنخيم، وتبعتهم بحصانى؛ فقد كانت هناك بعض النقاط المثيرة جغرافيًّا التى أردت أن أدون عنها بعض الملاحظات. وبينما كنت أسير على مقربة من المخيم سمعت صوتًا غريبًا يرتفع، كان عبارة عن مزيج من نحيب الرجال وغنائهم، وأول ما بدر إلى ذهنى أن يكون بعض رجال القافلة قد تورطوا فى مشاكل مع السكان المحليين؛ فنخست فرسى لأستحثه، وبينما كنت أقترب من المخيم بدأت أطمئن؛ فقد سمعت قرع طبول، ونساء تغنى، كنا بعد غروب الشمس مباشرة، وفى الغسق لم أستطع أن أميز تلك الحشود التى تتحرك صوبى، وسرعان ما وجدت أحد رجالى يسرع ليخبرنى أنهم قد تلقوا استقبالاً حارًّا من رجال القرية ونسائها، الذين أصروا على الخروج لاستقبال شيخ القافلة، ولم يكد ينتهى من إخبارى بهذا إلا ووجدت مجموعة من النساء صغيرات السن بعضهن يغنين وبعضهن يرقصن وهن يحطن بحصانى، الذى استجاب بما يليق

بحصان بدوى وبدأ يثب رقصًا، وأطلقت النساء زغاريدهن، وناقشنى البدو فى أمر إطلاق بنادقنا، وأفسح الجمع طريقًا لحصانى فسرت به مسافة قصيرة وتوقفت وعدت مرة ثانيةً على نحو أسرع ثم كبحت جماحه تمامًا، وفى هذا الوقت أخرجت بندقيتى، وعندما توقف الحصان تمامًا، أطلقتها – وفق تقاليد البدو – عند أقدام الصف الأول من الفتيات الجميلات، ففزع نصفهن بينما سُرَّ النصف الآخر، ثم أحاط ست منهن بحصانى وهن يدرن حولى وأعطيننى "الشبال" وهو عبارة عن قول مع انحناءة مفاجئة من الرأس يلوحن خلالها بخصال شعورهن فى اتجاهى، كما يفعل النساء فى جنوب أوروبا بإلقائهن للزهور، وفى المقابل وضعت أصابعى على جبين كل فتاة، وحملت بندقيتى عاليًا فى الهواء، ودرت بها فوق رءوسهن وأنا أصيح " أبشر بالخير"، وبعد هذا اتخذنا شكل موكب وتوجهنا صوب المخيم، وفى اللحظة التى رآنى فيها البدو قادمًا ومحاطًا بكل هؤلاء الفتيات أطلقوا بنادقهم فى الهواء احتفاءً بهذه المناسبة؛ فالبدوى فارس بكل معنى الكلمة، وتلك هى فكرته عن الاحتفاء بالنساء، وبعدئذ وزعت بعض العطر على الفتيات اللائى انصرفن بعد ذلك فى سعادة بالغة، وكانت أكثر ليالى المخيم بهجةً.

وفى اليوم التالى وصلنا إلى "أم بورن"، التى تبعد نحو ٣٨ كيلومترًا عن "فوراويا"، وخيمنا بالقرب من إحدى الآبار، وفى صباح اليوم التالى استيقظت مبكرًا على صوت الماشية والأغنام التى جاءت للسقى، وبعد ساعة وجدنا سوقًا نشطة تُقام بطول مخيمنا؛ فقد نصبنا خيامنا بغير عمد بالقرب من إحدى الأشجار الضخمة التى تعد بمثابة مركز منطقة السوق، والتى كان النساء فقط هن اللائى يشاركن

فى أنشطتها؛ حيث كن يحضرن الزبد، والجلد، والحصير، والذرة، والقطن، والملح، ويقايضن فيما بينهن دون استخدام النقود، وفى الوقت ذاته يرقد الرجال فى راحة ولا يفعلون شيئًا، وبينما كنت أتأمل هذا المشهد – الذى لم أشاهد مثيلاً له فى أية قرية أخرى من قرى السودان – لا أدرى لماذا وجدتنى أتساءل هل يا ترى حال هؤلاء النساء السود أفضل أو حال الإماء فى ديار البدو؟! فهن هنا يقمن بكل الأعمال: من العناية بالماشية والأغنام، إلى أداء الأعمال المنزلية، وإعداد الطعام، وصنع شراب "المريسا" المفضل لرجالهن، إلى تولى شئون السوق، أى كل شىء. بينما الإماء فى المقابل يكلفن بواجبات محددة، وقد تتاح لهن بعض أوقات الفراغ. وبينما كانت هذه الأفكار تدور فى خاطرى، شعرت أننى ألمح شيئًا مختلفًا فى نبرة صوتهن عندما يتحدثن ويضحكن، لا تملكه الإماء، ربما كان الأمر يتعلق بالشعور بالحرية حتى ولو كان يصاحبها الكد والعمل الشاق.

مكثنا فى "أم بورن" لمدة يومين، وفى هذه الأثناء زارنى عبدالرحمن جيدو وكيل "المحمديين" وزعيم قبيلة "الزغاوة"، وأحضر معه غنمًا ودجاجًا على سبيل الضيافة، وفى اليوم التالى حظينا بترحيب رسمى؛ إذ حضر الوكيل مع حاشية من الأتباع فوق ظهور الخيل، يقرعون الطبول، وكانت أسرة المحمديين – فى أثناء غياب سيد الديار – قد أرسلت لنا وجبة غداء مكونة من العصيدة، والخضراوات، والفطائر، وشراب المريسا.

كانت المرحلة التالية لرحلتنا عبارة عن خمسة أيام من السفر وصلنا فى نهايتها إلى "كوتوم" التى تبعد نحو ١٢٩ كيلومترًا صوب

الجنوب، وظل الجو – بصفة عامة – جيدًا على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة وسقوط بعض الأمطار.

سافرنا كالمعتاد فى الصباح الباكر، والأصيل المتأخر، وعبرنا دروب مطروقة صالحة للسير تمامًا تمر بأرض كثيرة التلال مغطاة بعشب جاف وأشجار صغيرة، وفى الفواصل كانت هناك بعض الرقع التى سبق حرقها تمهيدًا لزراعتها.

وفى اليوم الثالث عاد الرسول الذى أرسلته إلى "الفاشر" ومعه رفيقان، وإن كان اللقاء محبطًا بعض الشىء؛ فقد تطلب الأمر منه خمسة أيام ليصل إلى مقصده بدلاً من أربعة، ولم يحضر الرد على الخطاب الذى أخذه، قائلاً إن الرد ينتظرنى بحوزة أحد الجنود عند بئر " موتاريج"، التى تبعد نحو اثنتى عشرة ساعة سيرًا من المكان الذى كنا فيه، وكان مع الجندى أيضًا بعض المؤن لنا، لكنها كانت ذات نفعٍ محدود نظرًا لقلتها.

عندما خيمنا فى هذه الليلة كان يتبقى لدينا القليل من الطعام للعشاء؛ لذا أرسلت دليلنا بأقصى سرعة بعد العشاء، وأمرته أن يظل راكبًا طوال الليل حتى يصل إلى "موتاريج"، وهناك عليه أن يخبر الجندى أن يحضر إلينا بأسرع ما يمكن.

وفى صباح اليوم التالى بدأنا التحرك قبل الرابعة، وخلال ساعة جاء الرجال يهرولون نحوى ويخبروننى أن هناك جنديًا يمتطى جملاً قادمًا نحونا، وخلال دقائق تسلمت خطابًا من السيد تشارلز دوبويى – نائب حاكم دارفور فى غياب سايفل باشا، الذى استقال من الخدمة –

وكان معه بعض المؤن القليلة من الأرز والدقيق والشاى والسكر، وكنت مسرورًا على وجه الخصوص أن أضع يدى على مؤن من السجائر.

فأنا لم أدخن منذ أن غادرنا " إردى"؛ فقد أدركت فجأة وأنا فى "العوينات" أنه لم يتبقَ سوى بضع سجائر، وعندها بدأت فى وضع قواعد صارمة لنفسى، تقضى بسيجارة واحدة فى اليوم بعد العشاء، كان أمرًا شاقًا للغاية أن أنتظر طوال اليوم من أجل فترة التدخين القصيرة تلك، وكان الأمر أسوأ عندما كانت تأتى تلك اللحظة؛ فقد كنت أنزوى فى أحد الأركان المخفية وأشعل السيجارة الثمينة وأحميها بعناية بالغة من أى نسمة هواء قد تسرع من اشتعالها، وعندما نفدت هذه السجائر القليلة، لم يتبقَ لى سوى الانتظار والذكريات، والآن - أخيرًا - ثأرت من الانتظار فقد ظللت أدخن حتى التهب حلقى.

حتى إن بوكارا، من أجل حفنة من السجائر التى وصلت حديثًا، وضع طربوشه الأحمر فوق حصان الدليل وفعل القليل من المرح العابث - إلا أن المرح العام الخالى من القيود الذى صاحبه الغناء والرقص كان عندما خيمنا فى الاستراحة الحكومية فى "ماراهيج"؛ حتى إن العريف ظن أنه قد أصابتنا لوثة ما، بعد أن رأى الرجال وهم يضعون أقماع السكر على الأرض ويسودون حولها رقصة همجية، وسأل " لماذا كل هذا الصخب؟ " فأجابه عبد الله "لأنه منذ ما يقرب من الشهر لم يكن لدينا سكر، والآن سوف نحلى شاينا من جديد؛ فالمرء لا يدرك قيمة السكر هذا حتى تأتى اللحظة التى لا يستطيع فيها الحصول عليه"، هزَّ العريف رأسه وابتسم قائلاً " إننا لم

نكن نعلم أن لديكم نقصًا شديدًا فى المؤن، يجب أن أعود فى الحال إلى "كوتوم"، وأحضر لكم المزيد منها"، وقبل أن يرحل كان كريمًا للغاية لأن يذهب إلى أحد المعسكرات القريبة ويحضر لنا خروفًا وزبدًا، وكان علينا أن نسدد ثمن هذه الأشياء للمعاون فى "كوتوم"، نظرًا لأن البائع رفض أن يقبل أوراق النقد المصرية، وبعد ذلك رحل العريف ومعه خطاب منى إلى السيد دوبويى، والمعاون "نائب الحاكم فى كوتوم".

وبقدر ما كانت المؤن التى أحضرها إلينا جيدة بقدر ما نفدت سريعًا، وأصبحنا فى حاجة ماسة للمزيد منها؛ لذا قررت أن نرحل على الفور، وقضينا فترة الظهيرة فى استراحة حكومية عند بئر"ماراهيج"، وفى المساء توقفنا بعد بضعة كيلومترات منها؛ فقد كانت الإبل فى حالة سيئة جدًّا، وكانت ظهور وجوانب بعضها متقيحًا للغاية وينزف، حتى إن جملين منها رفضا التحرك حتى أنزلنا الأحمال من عليهما.

وفى المساء أمطرت السماء لمدة ساعة، لكنها لم تستطع أن تخمد عزائمنا؛ فقد غنى الرجال ورقصوا حول النيران الكبيرة، وذكرتنى الرطوبة ورائحة العشب المبلل هذه بسيرى فى الريف الإنجليزى.

فى صباح اليوم التالى بدأنا مبكرًا، بهدف التوقف عند بئر "ميتاراج" فى الظهيرة، وبالفعل تغدينا فى الاستراحة القريبة من تلك البئر وتلقينا زيارة من شيخ الميتاراج الذى أحضر لنا بعض الدجاج على سبيل الضيافة، وطلب منا أن نتوقف هذه الليلة حتى يستطيع أن يضايفنا كما ينبغى فى اليوم التالى، إلا أننى شعرت بضرورة أن

نتقدم بأسرع ما نستطيع؛ فقد كانت حالة الإبل تزداد سوءًا، وكان علينا أن نترك إحداها مع شيخ القرية، واتفقنا معه على أنه إذا تعافى الجمل يمكن أن يحصل على ربع ثمنه عند بيعه، أما إذا توفى فإنه لن يتحمل أية مسئولية.

وبعد ساعة ونصف الساعة من تحركنا فى اليوم التالى، ظهر جندى آخر على ظهر فرس، وأحضر معه خطابًا من معاون "كوتوم" وكمية قليلة من الأرز والسكر، وقد استقبلناه شاكرين؛ لأننا للمرة الثانية كنا نعانى من نقص المؤن، كما نفد كل ما معنا من سكر للشاى. أعطيته خطابًا ليعود به إلى "كوتوم"، وبعد فترة قصيرة خيمنا فى أحد الأودية الصغيرة فى "بوا".

بعد الظهر، عاودنا السير من جديد، وسرعان ما بدأت السماء تمطر مع هبوب رياح شديدة من الجنوب الشرقى، ورأيت أنه قد يكون من الحكمة أن نخيم حتى تنتهى العاصفة، إلا أنه عندما تطلعت إلى المنطقة التى تمتد أمامنا من خلال منظارى المعظم اكتشفت صفًا من الأكواخ المصنوعة من القش تمثل حدود "كوتوم"، وأمام هذا المشهد قدنا إبلنا أسرع.

وسرعان ما بدا فريق من الأفراد الذين يمتطون الجياد يقترب منا، وعندها هلل البدو فى ابتهاج. وكان ذلك من أكثر المشاهد السعيدة التى رأيتها منذ عدة أسابيع، فقد كان رياض أبوعقلا أفندى، وناصر الدين شداد أفندى، اللذان يعملان معاونين فى كوتوم يتقدمان فصيلة من عشرة جنود بالإضافة إلى القاضى ورجال الدولة الرسميين، وأعيان "كوتوم".

صافحتهم جميعًا بحرارة، وبمرافقتهم تحركـت القافلـة صـوب القرية، وبينما كنا نقترب، كانت نساء المركز اللائى يرتدين الملابـس البيضاء يقرعن الطبول ويحيوننا بالغناء والزغاريد. استقر بنا المقـام بجوار الاستراحة وداخلها، وحضرت النسـاء مـرة أخـرى ليقـدمن تحياتهن فاصطففن فى صف طويل ثم غنين ورقصن كثيـرًا ليـرفهن عن البدو الذين يرافقونى، والذين طلبوا الإذن لهم فى إطلاق بنـادقهم ليعبروا عن امتنانهم لتلك المجاملة. وبالطبع لم أستطع الـرفض وبـدأ بوكارا فى أداء مراسم سفع خف الفتيات، إلا أن النساء السودانيات لـم يعتدن هذا السلوك البدوى فى التعبير عن التقدير مثـل الفتيـات فـى الصحراء الشمالية؛ لذا فإنهن جزعن قليلاً مـن البـارود الـذى كـان يومض عند أقدامهن، لكنهن تقبلنه بنفس رحبة، ثم بدأ صـف النسـاء بالكامل يتمايل ويتراقص على إيقاع الطبول، بينما قام فرد تلو الآخـر من رجالى بأداء "رقصة التكـريم". كـان اسـتقبالاً بـديعًا بالفعـل، وسـروره شتت - مثل السحر - الإرهاق والتعب الناجم عن الرحلة.

وتلا ذلك مزيد من الحفاوة، فقد أحضر لنا المعاونـان - علـى سبيل الضيافة - أربعة خراف، وزبدًا، وخضـروات طازجـة، ولا مجال للحديث عن السكر الذى قدم لنا، وأمضينا ليلة سعيدة للغاية.

بدا وصولنا إلى "كوتوم" - فى هذا الوقـت بالـذات - للسـكان المحليين كأنه حضور ميمون؛ لأننا وصلنا مع أول سقوط أمطار فى الموسم.

توقفنا هناك لمدة يومين، واحتفى بنا المعاونان بكرم بـالغ فـى غياب المفتش السيد آركل الذى كان فى " الفاشر".

وفى إحدى المرات حضرنا مباراة في كرة القدم بين فريقين من الجنود، كانت مبارة قوية أكثر من كونها تُلعب بمهــارة. وحــدث أن حاول لاعب أن يضرب الكرة بقوة لكنــه أخطأهـــا وقـــذف بحذائـــه السودانى عاليًا فى الهواء، ولم تكن المودة بين الضباط والرجال الذين يلعبون طيبة؛ لذا كان من الشيق رؤيتهم وهم يلعبون معًا.

فى هذا المساء تناولت العشاء مع رياض أفندى وناصـــر الـــدين أفندى، وكانت أول وجبة أتناولها فى منزل منذ أن تركت "الكفـــرة"، وقد أعطانى مضيفاى جريدة مصرية لأقرأها، كانت هى أول ما أراه من جرائد منذ ما يقرب من ستة أشهر.

تركنا " كوتوم " فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ يونيـــو، مبتهجين بالضيافة الكريمة التى حظينا بها والوداع الحار الذى ودعنا به أصدقاؤنا. وكانت رحلتنا إلى " الفاشر " التى اســـتغرقت يـــومين، بمثابة نزهة؛ حيث شعرنا جميعًا بالإثـــارة والابتهـــاج؛ لأننـــا عـــدنا للاتصال بالعالم من جديد.

ولكن بينما كنت أتوجه للفراش يـــوم ١٨ يونيـــو أدركـــت مـــع شعورى بالأسف أن هذا هو آخر يوم لى فـــى الصـــحراء الحقيقيـــة. وفكرت كيف أننى ســـوف أفتقد رجالى وإبلى، القفـــر والجمـــــال، الخلوة والصحبة، أو قل فى كلمتين: الصحراء وحياتها، شـــكرت الله – سبحانه وتعالى – لأنه قادنا عبر الرمال الواسعة غير المطروقـــة، ووجدتنى أضيف دعاء – نصف حزين – بأن أعود إليها مرة أخرى؟

أصدرت أوامرى بأن نبدأ مبكرًا فى صباح اليوم التالى، ونتيجـــة لتلهف رجالى بالغوا فى فكرتى عن كلمة " مبكرًا"، ولكننى كنت أنـــا

نفسى مستثارًا، ولم أمانع فى أن نصبح على الطريق بحلـول الثانيـة والنصف.

وقبل ثلاث ساعات من الوصول إلى " الفاشر" خيمنا حتى نستعد لدخول المكان، فحلّقنا جميعًا وارتدينا أفضل ملابسنا - فقد كان السيد دوبويى قد أرسل لنا فى " كوتوم " مؤنًا مـن الملابـس البيضـاء - وأصبح رجالى قادرين على الظهور مرة أخرى فى ملابـس لائقـة، واحتشدوا حول بقايا المرآة التى كانت معى ليشاهدوا كيـف يبـدون، نُظفت البنادق، ورتبت الحقائب - التى كانت فى حالة رثـة - قـدر الإمكان، وتمنيت لو أستطيع فعل أى شىء للإبل أيضًا؛ فقـد كانـت نحيلة ومظهرها يدعو للرثاء، ولكـن الراحـة والعنايـة بظهورهـا المتقرحة كانت هى كل ما تحتاج إليه، ولـم يكـن لـدينا الوقـت أو الإمكانات لنمنحها إياها، وبرغم هذا يبدو أنه قـد أصـابتها عـدوى التلهف التى أصابتنا، فتقدمت إلى الأمام فى سرعة. وارتدى عبـد الله وزروالى ملابسهما الحريرية، وتحركـت القافلـة بابتهـاج صـوب مقصدها.

وبمجرد أن وصلنا إلى ضواحى الفاشر، ارتفع الهتاف والتهليـل من كل مكان فى القافلة؛ فقد كان هناك موكب مـن الرجـال الـذين يرتدون الزى الكاكى يتجه نحونا، نخست بركة واسـتجاب الفـرس مرحبًا؛ فقد رأى الأحصنة قبلنا، فانتصبت أذناه واندفع نحوها.

تقدم السيد دوبويى فوق حصانه، ليقابلنى وتصـافحنا بحـرارة، وتكررت التحية من الضباط المصريين والإنجليز الذين كـانوا مـن فريقه، وذهبنا بعد ذلك إلى منزلـه كجزء من الكرم الذى قدمه لـى

ولرجال قافلتى، وهناك قام البمباشى أنداس بأخذ الإبل المرهقة دون إبطاء، وقدم لها الطعام والماء والرعاية الصحية لجروحها التى كانت فى أمس الحاجة إليها. كما قام الضباط المسئولون عن المحطة اللاسلكية بكرم بإعلامى بالتوقيت الدقيق لجرينتش من باريس من خلال الإذاعة. وكنت سعيدًا للغاية أن أكتشف أن الكرونومتر[٤٢] الخاص بى تأخر ٢٣ دقيقة و٢٣ ثانية فقط خلال ثمانية أشهر.

مكثت ضيفًا على السيد دوبويى لمدة عشرة أيام حظيت خلالها بحفاوة بالغة من الضباط والمسئولين التابعين للحامية العسكرية، بالإضافة إلى كل من بنى وطنى والإنجليز ووجهاء البلدة، وأُغدقت علىّ الحفاوة، وقدم لنا بتلهف كل نمط من المساعدة التى كنا فى حاجة إليه.

عدت إلى الحضارة مرة أخرى، واستمتعت برفاهيات الحياة مرة ثانية، خاصة الفواكه والخضروات؛ فعندما يخضع المرء لرجيم قاسٍ فى الصحراء ينظر إلى هذه الأشياء على اعتبار أنها رفاهيات وليس ضروريات. وكان هناك على وجه الخصوص نوع من البرقوق مدعاة فخر الميجور سميث SMITH، وكان حلو المذاق بطريقة غريبة، لم أذق مثله فى أى مكان آخر.

فى النهاية جاء اليوم الذى يجب أن أترك فيه رفاقى فى رحلتى من "الكفرة"، وعندما حضر لغرفتى فى هذه الليلة كل من بوكارا وأخوه وحميد وسنوسى بوجابر ليودعونى، كانت لحظة تزخر

---

(٤٢) هو جهاز ميقاتى لقياس الزمن بدقة بالغة. "المترجمان"

بالمشاعر الحقيقية، وتزدحم بالذكريات؛ فهؤلاء الرجال القساة الـذين جاءوا من الصحراء، انفجروا فى البكاء، وبللت الدموع عينـىَّ أنـا أيضًا؛ فقد كنا معًا فى السراء والضراء، وأصبحنا أصـدقاء أوفيـاء، ولم أكن أتمنى أفضل منهم: صحبة فى رحلة إلى إقليم ناءٍ، أو أكثـر قدرة، أو شجاعة، أو وفاء.

قرأنا الفاتحة، وكان صوت تلك الآيات المقدسة يمتـزج بنشـيج بوكارا، وصافحت كلاً منهم، وافترقنا على وعد بأن نلتقى يومًا - كما تمنيت - فى هذه الصحراء التى أحببتها بمثل ما أحببتهم.

كان يتبقى لى رحلة واحدة أخرى بالإبل إلى "الأبيض" التى تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر فى اتجاه الشرق، ومن هناك أخذت القطـار إلـى الخرطوم، ومنها إلى الديار فى القاهرة، والتى وصلتها فى الأول من أغسطس عام ١٩٢٣.

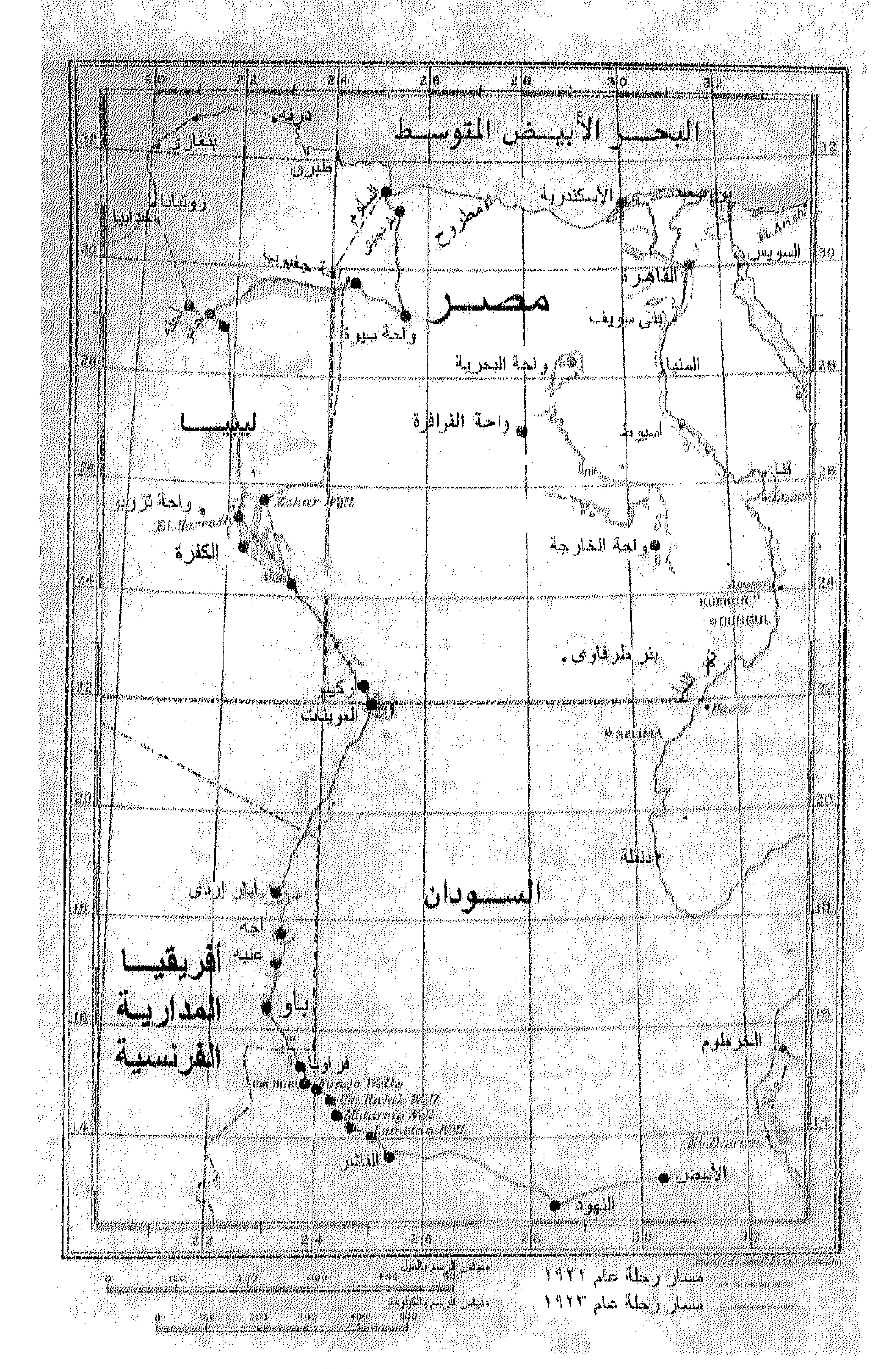
كنت بعيدًا عن الديار نحو سبعة أشهر وثلاثة وعشـرين يومًـا، قطعت خلالها ٢٢٠٠ ميل، عابرًا الصحراء باستخدام القافلة.

وحددتُ فى النهاية موقع آبار "زيغن"، والتى كانـت تبعـد فـى الخرائط عن موقعها الصحيح بنحو ١٠٠ كيلومتر، وواحة الكفرة التى كانت الخرائط عن موقعها الصحيح بنحو ٤٠ كيلومترًا.

كما نجحت فى النهاية فى تحديـد موضـع واحتـى "أركينـو" و"العوينات" المفقودتين على خريطة الصحراء الليبية.

ملحق

بخريطة الرحلة والصور



١- خريطة الرحلة.



٢- أحمد محمد حسنين بك.

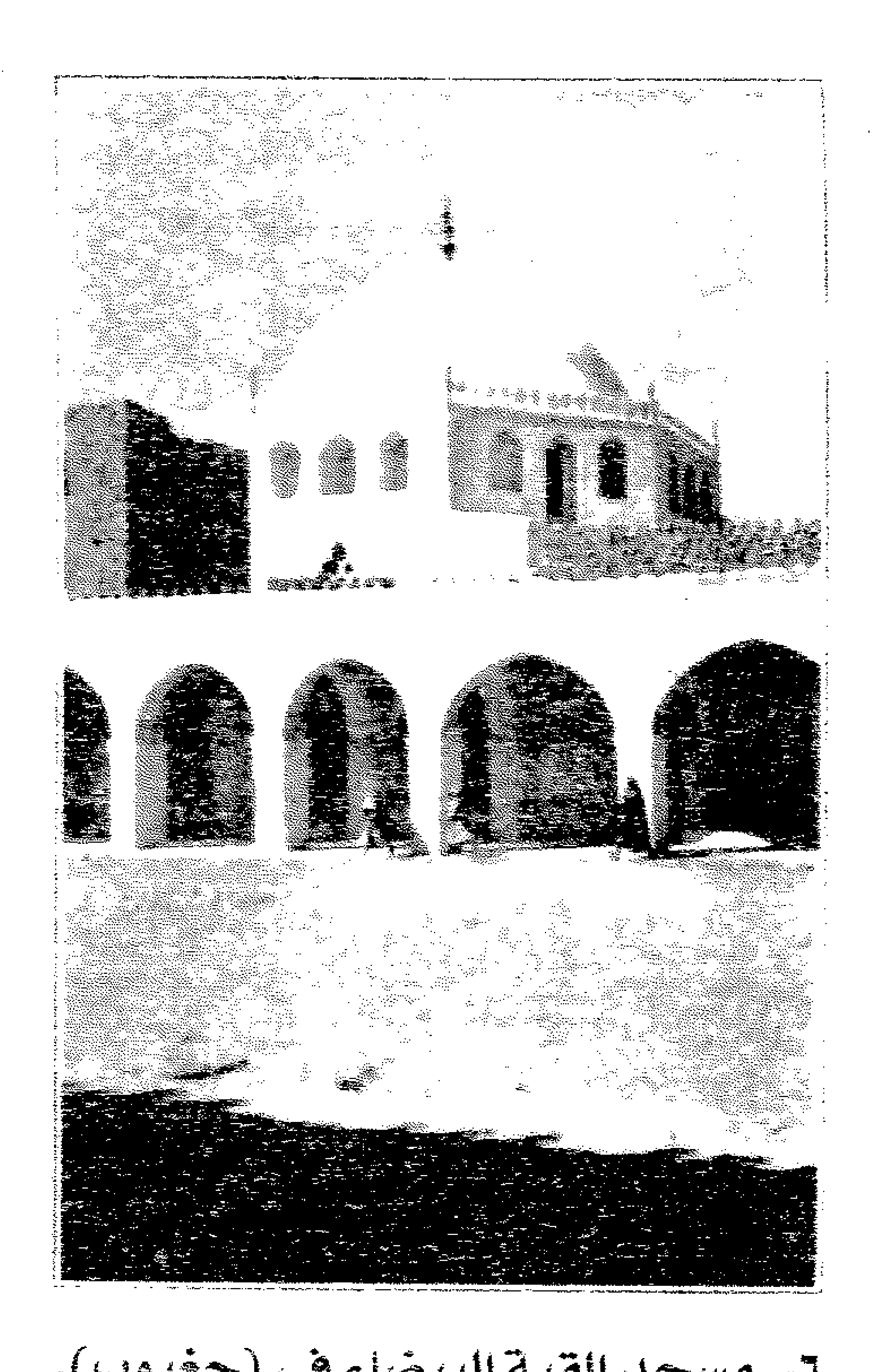
٢- واحة سيوة إحدى أقدم الواحات فى شمال أفريقيا.



٤- مدخل ضريح السنوسى الكبير.



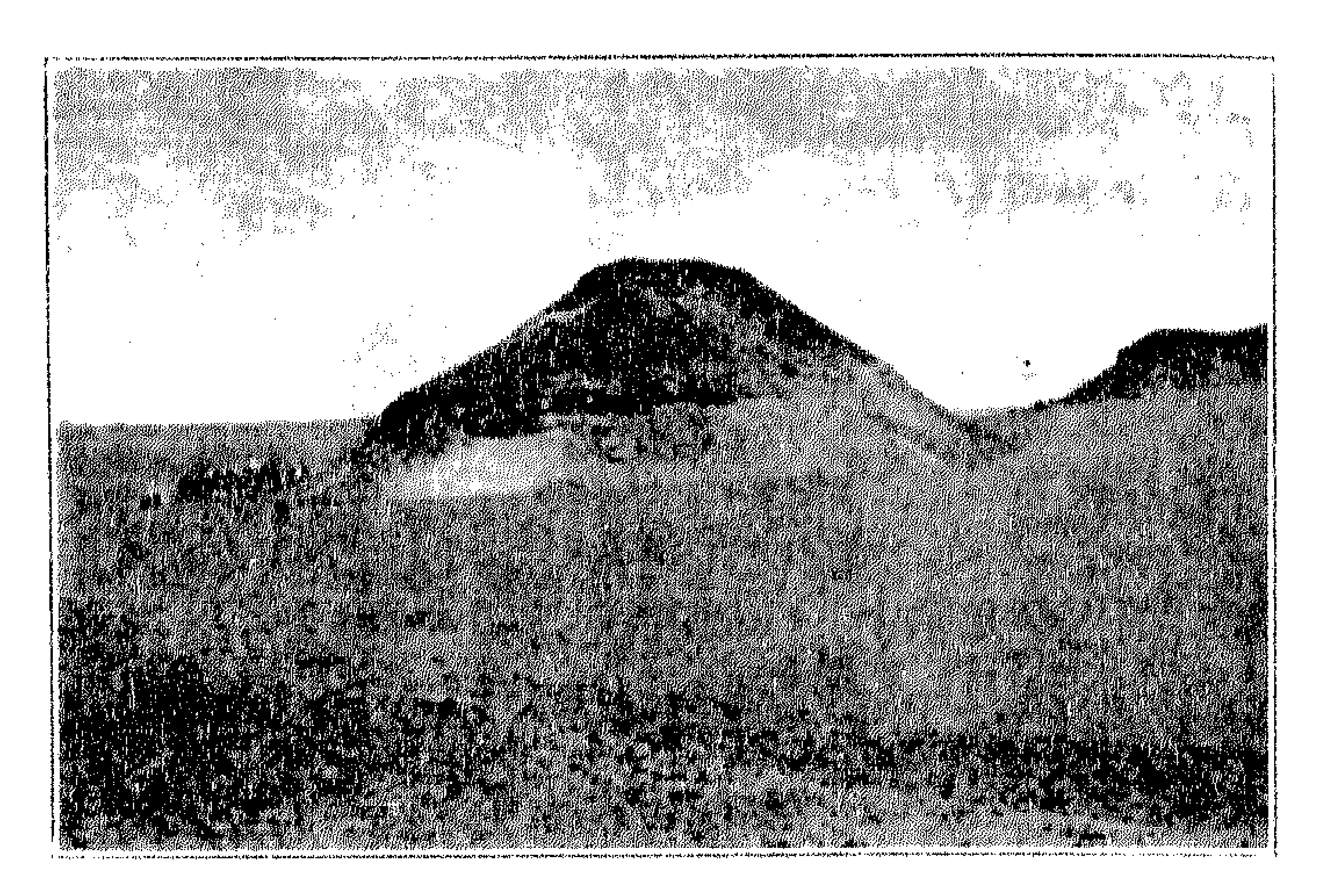
٥- السيد إدريس السنوسى رأس الطريقة السنوسية.



٦- مسجد القبة البيضاء فى (جغبوب).



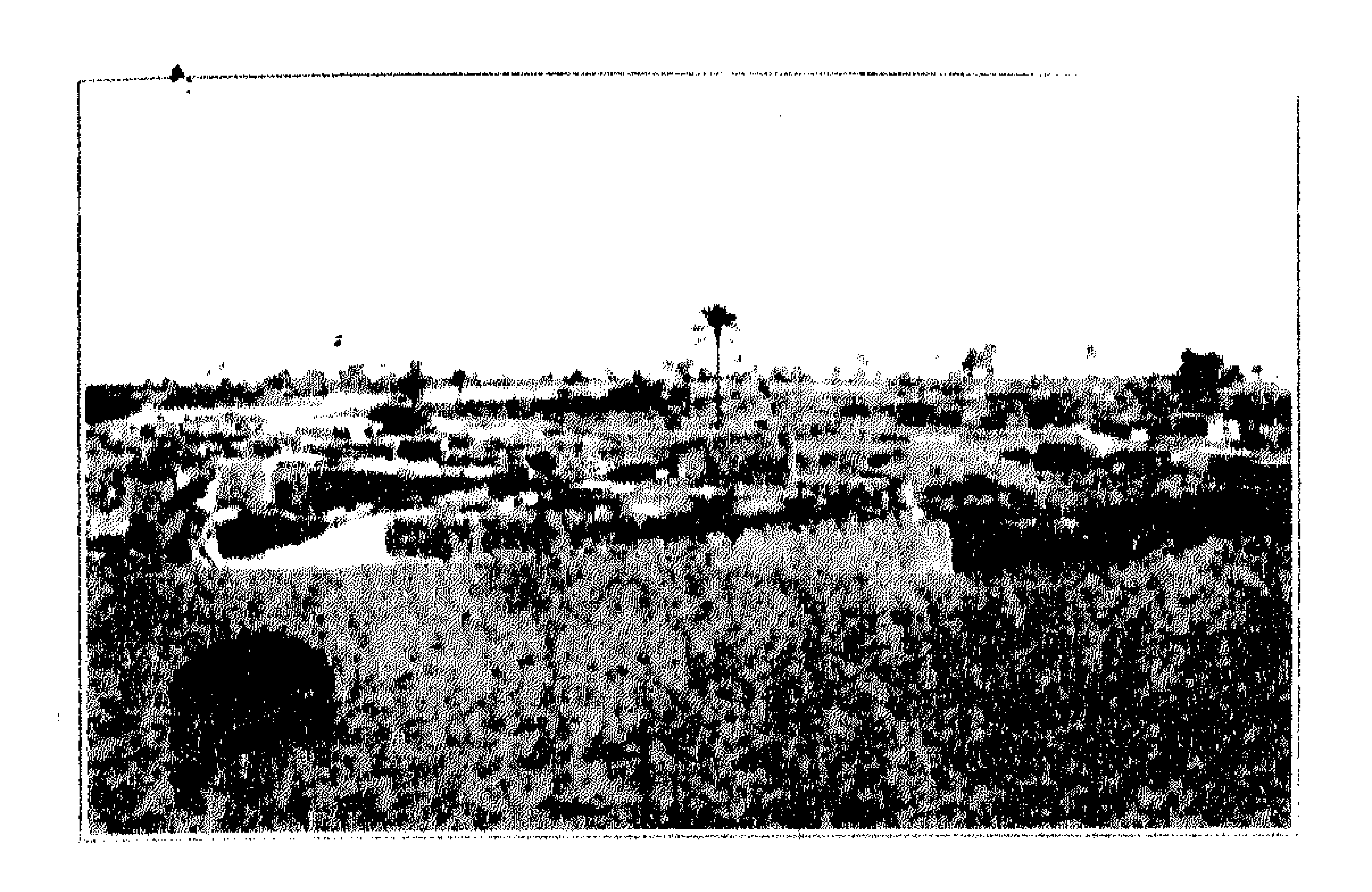
أحد أورقة مسجد (جغبوب).



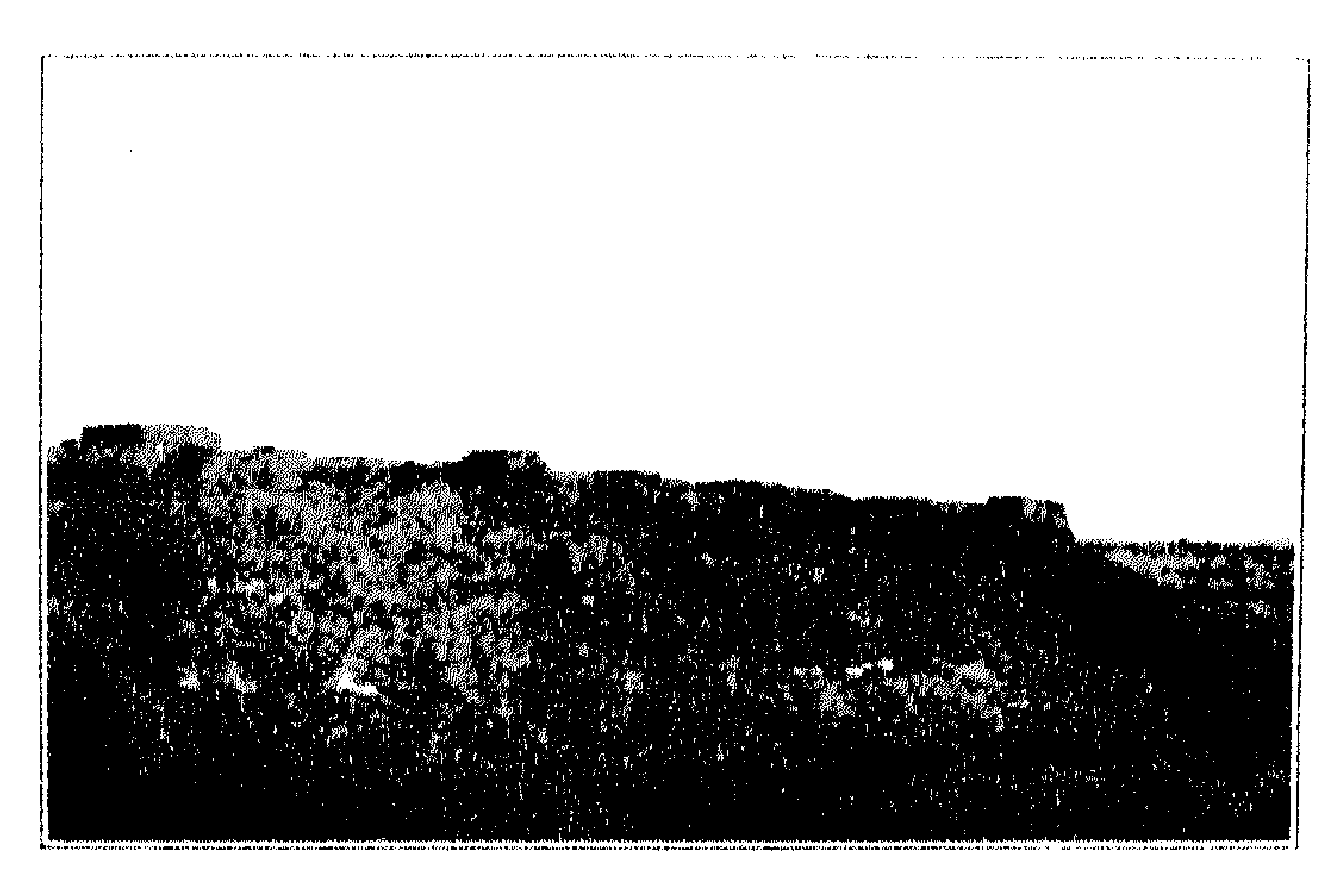
٧- الهواريا (علم الكفرة).



بقايا غابة متحجرة توجد فى الطريق إلى (جالو).



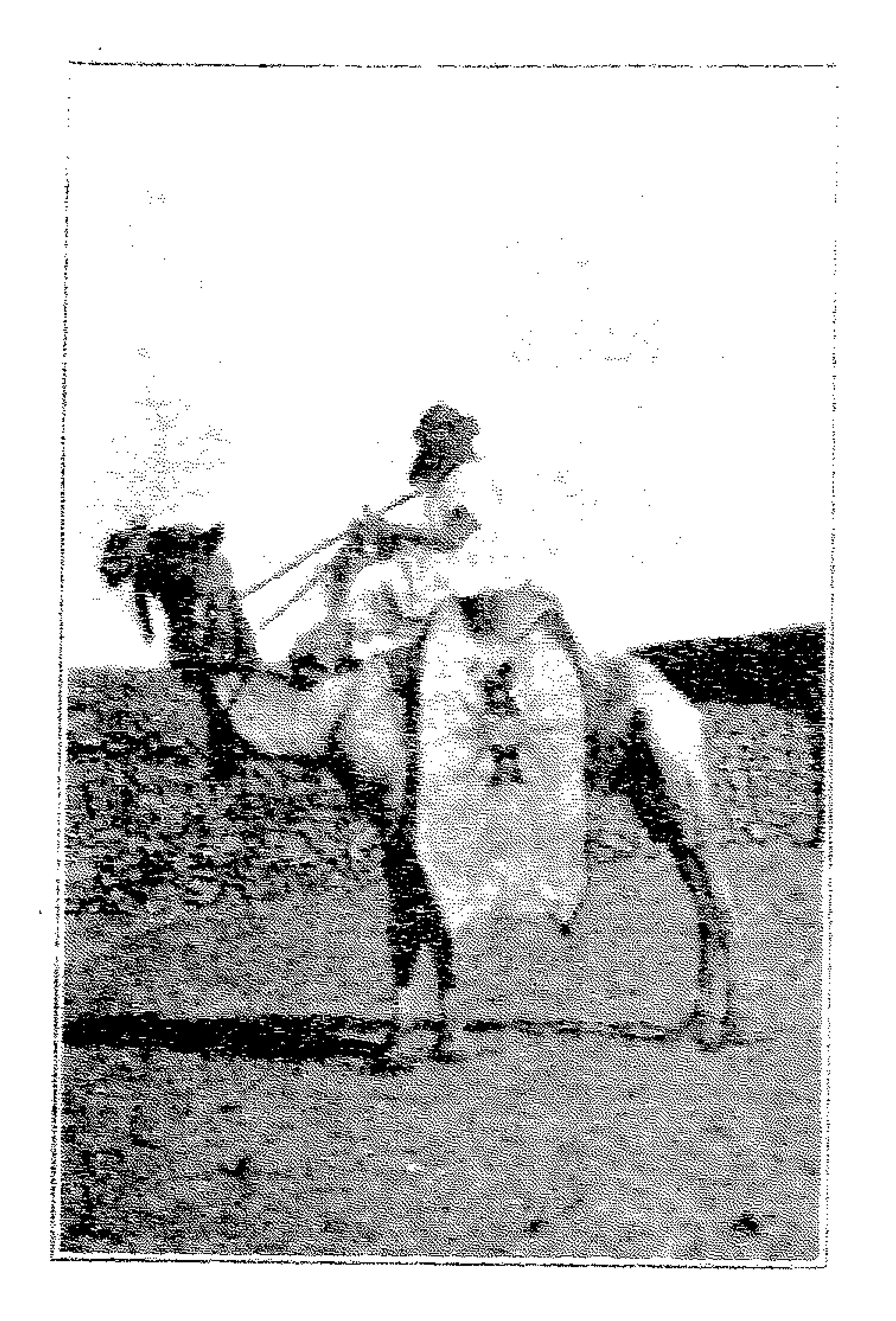
٨- (واحة جالو).



(التاج) مركز قيادة السنوسية فى الكفرة.



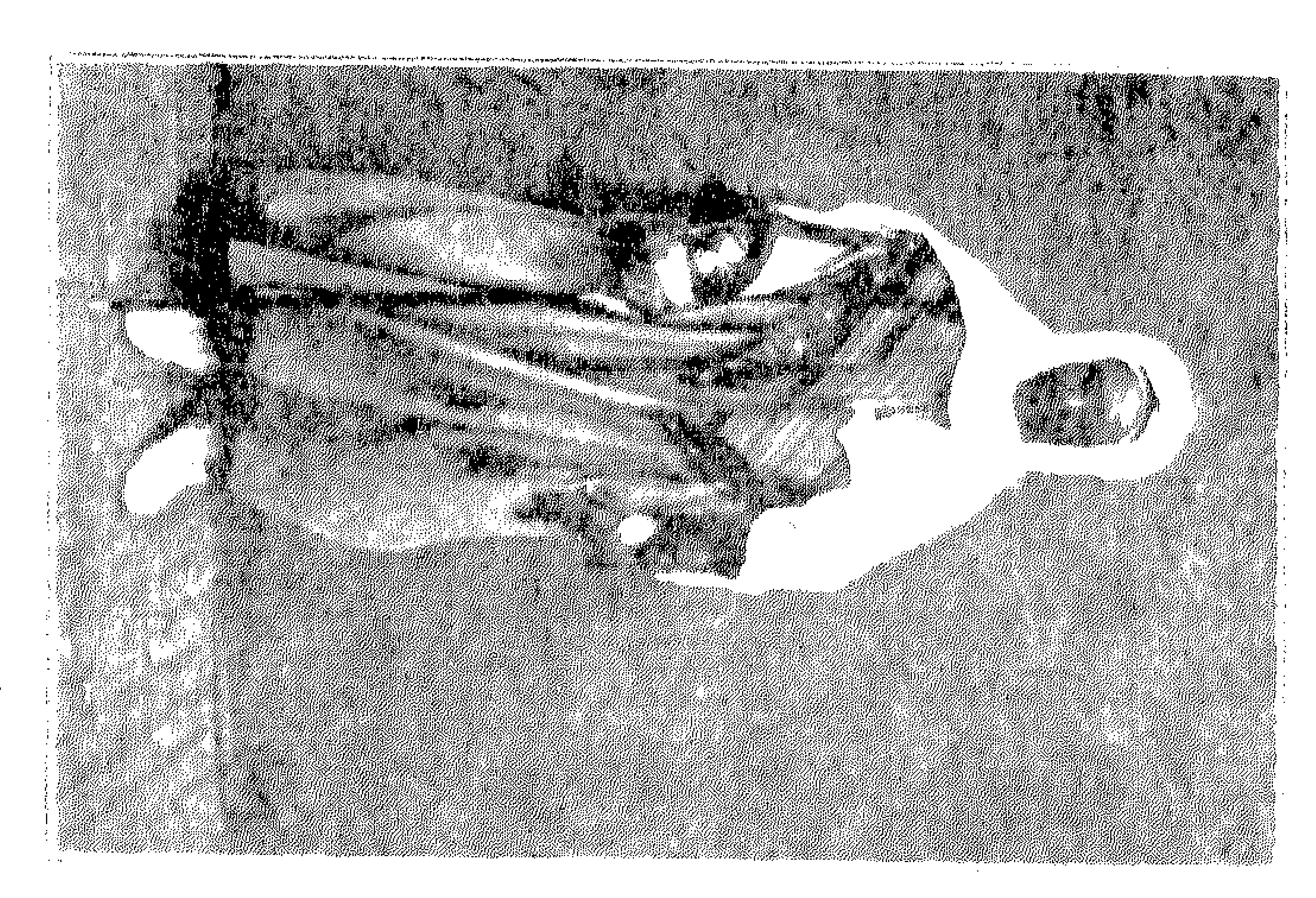
٩- أحد أفراد (التبو) مع جمله.



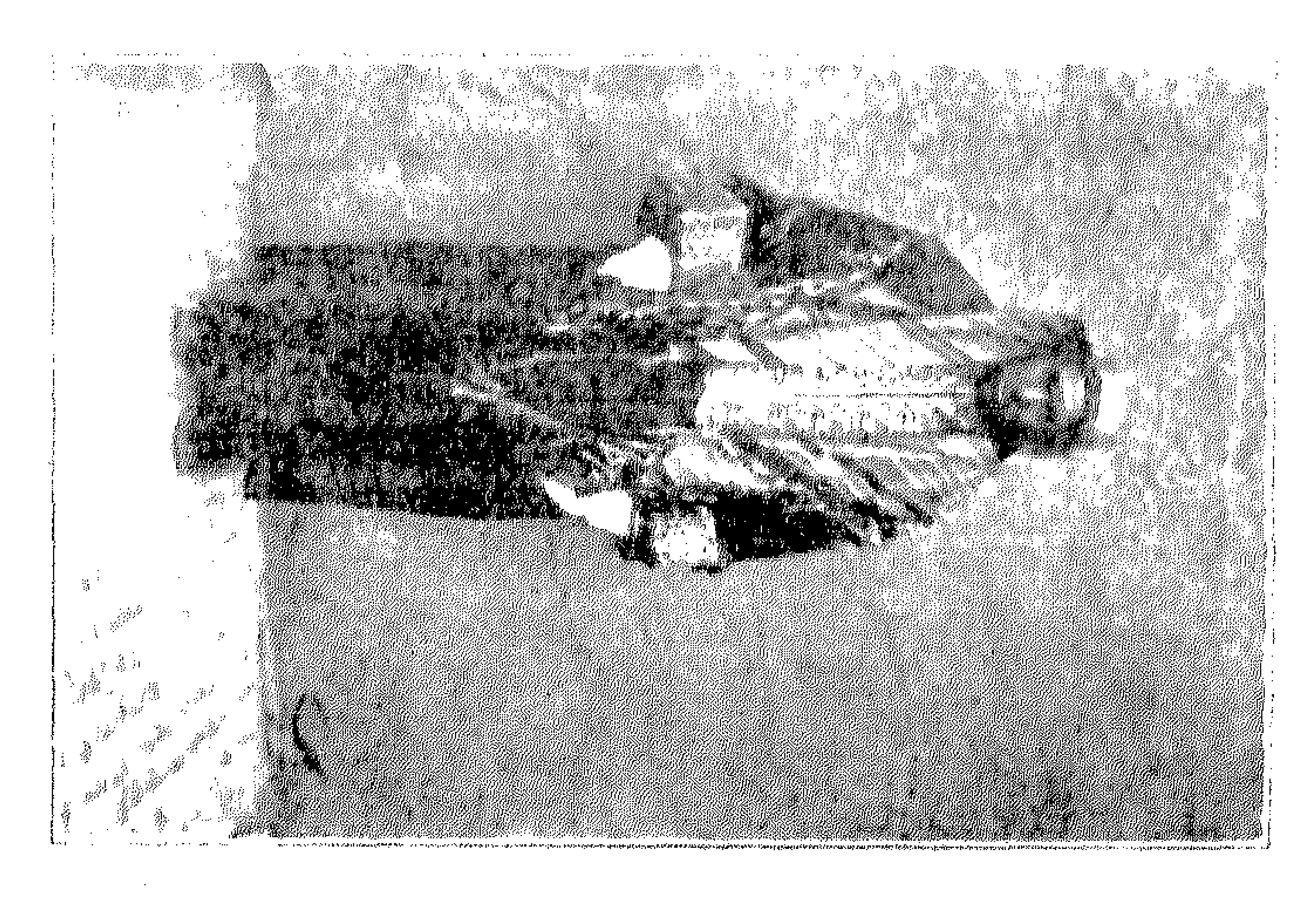
أحد الجمالين معصوب الوجه.



١٠- الابل وهى تعبر الكثبان الرملية.



الأمير السنوسي في الكفرة.



ابن حاكم الكفرة.



١٢ـ ملك العوينات الشيخ هارى.



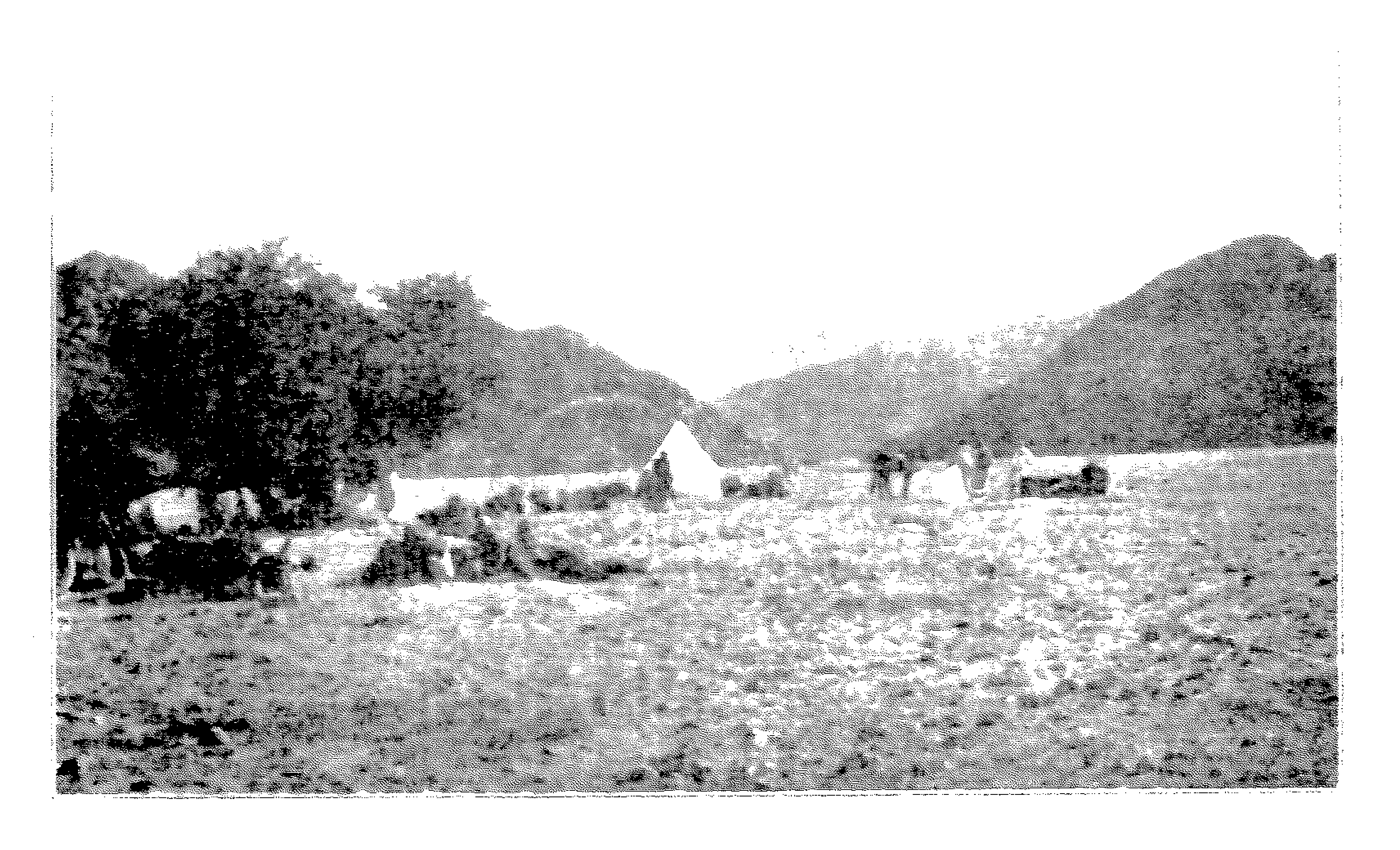
السيد محمد العبيد.



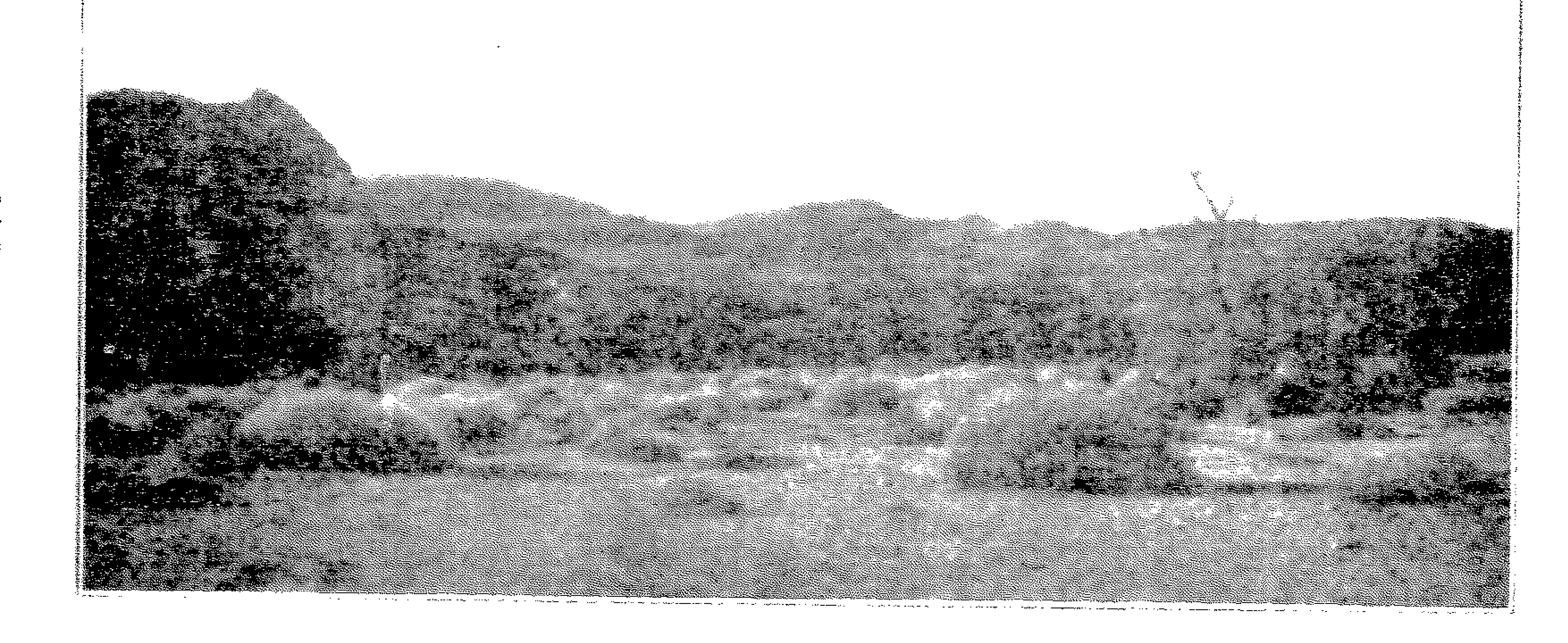
١٣- سيدى حسنين (الوكيل)



أعضاء مجلس واحة الكفرة.



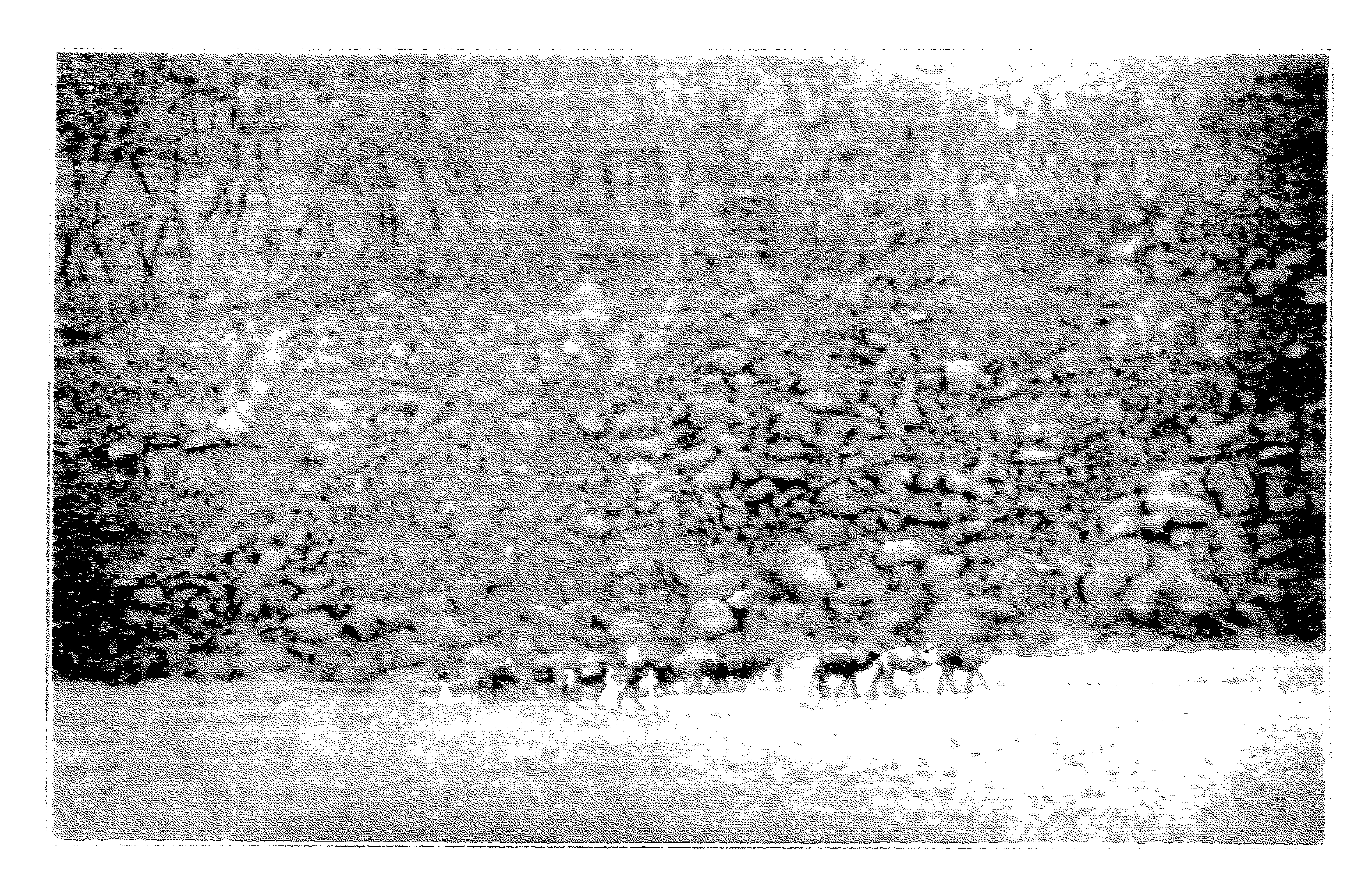
١٤- منظر للصحراء من فوق تلال أركينو.



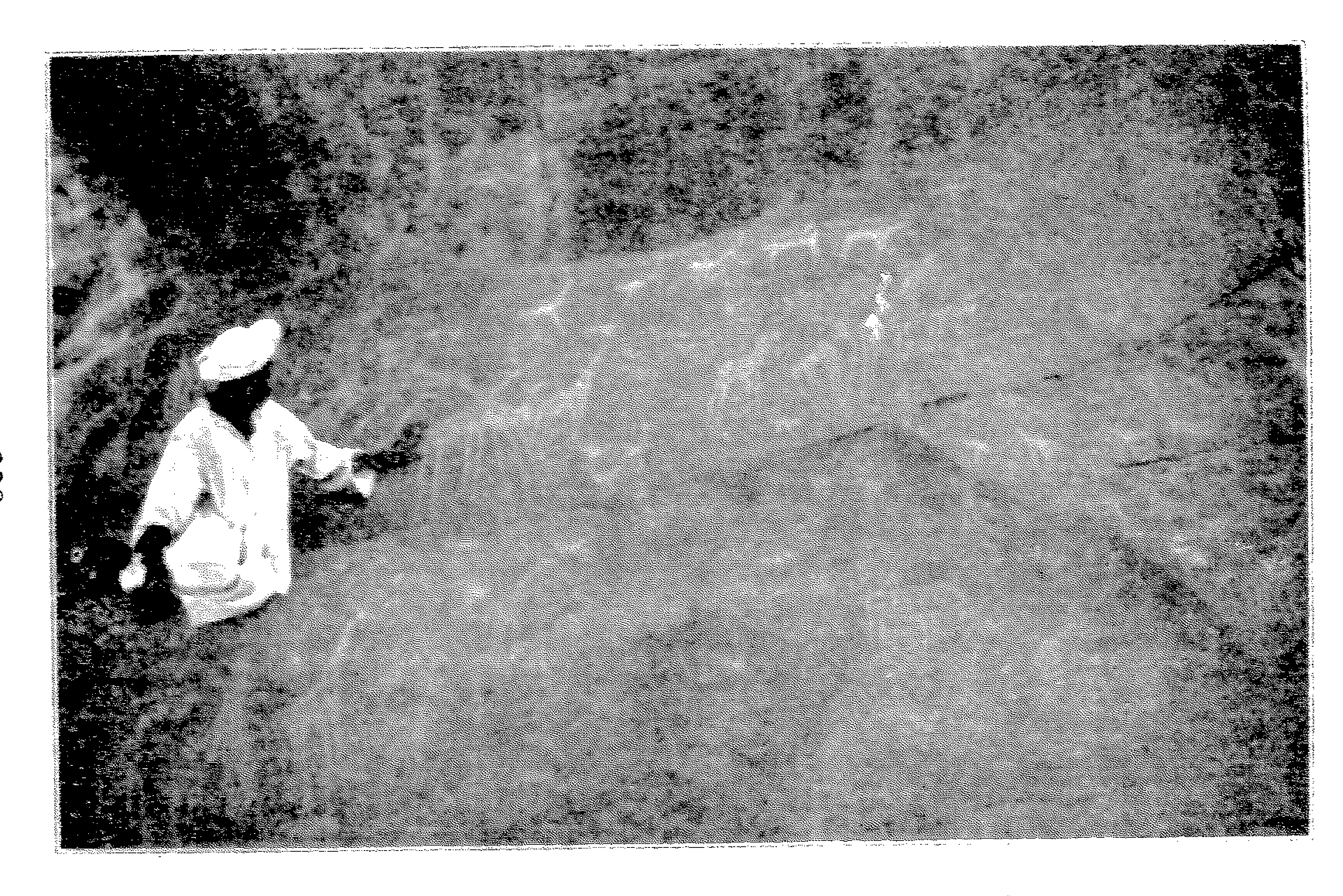
١٥- وادى العوينات.



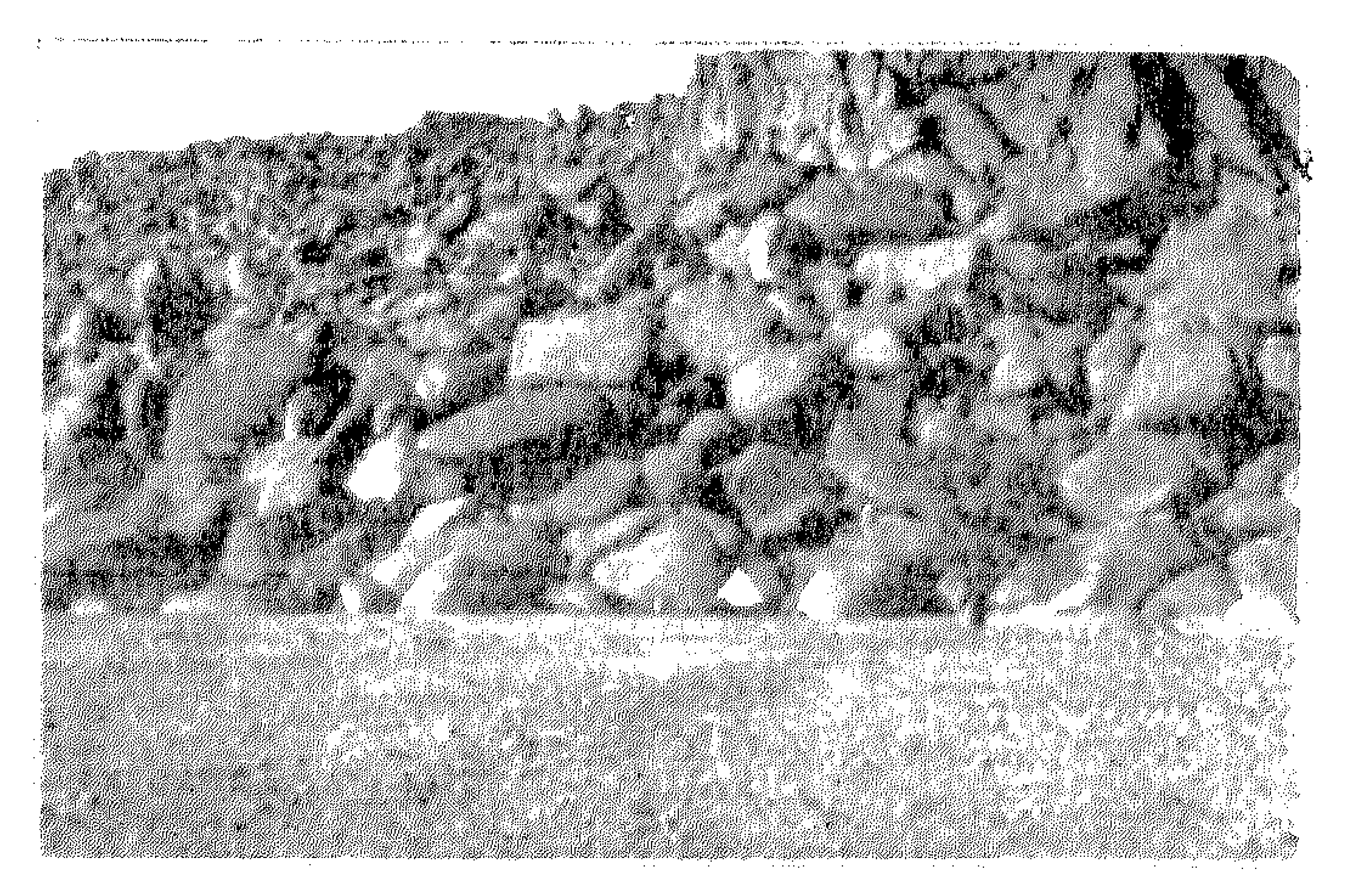
١٦- القافلة فى طريقها إلى واحة العوينات.



١٧ - القافلة تقترب من سفوح تلال واحة العوينات.



١٨ - بعض الرسوم البدائية التى اكتشفها فى العوينات.



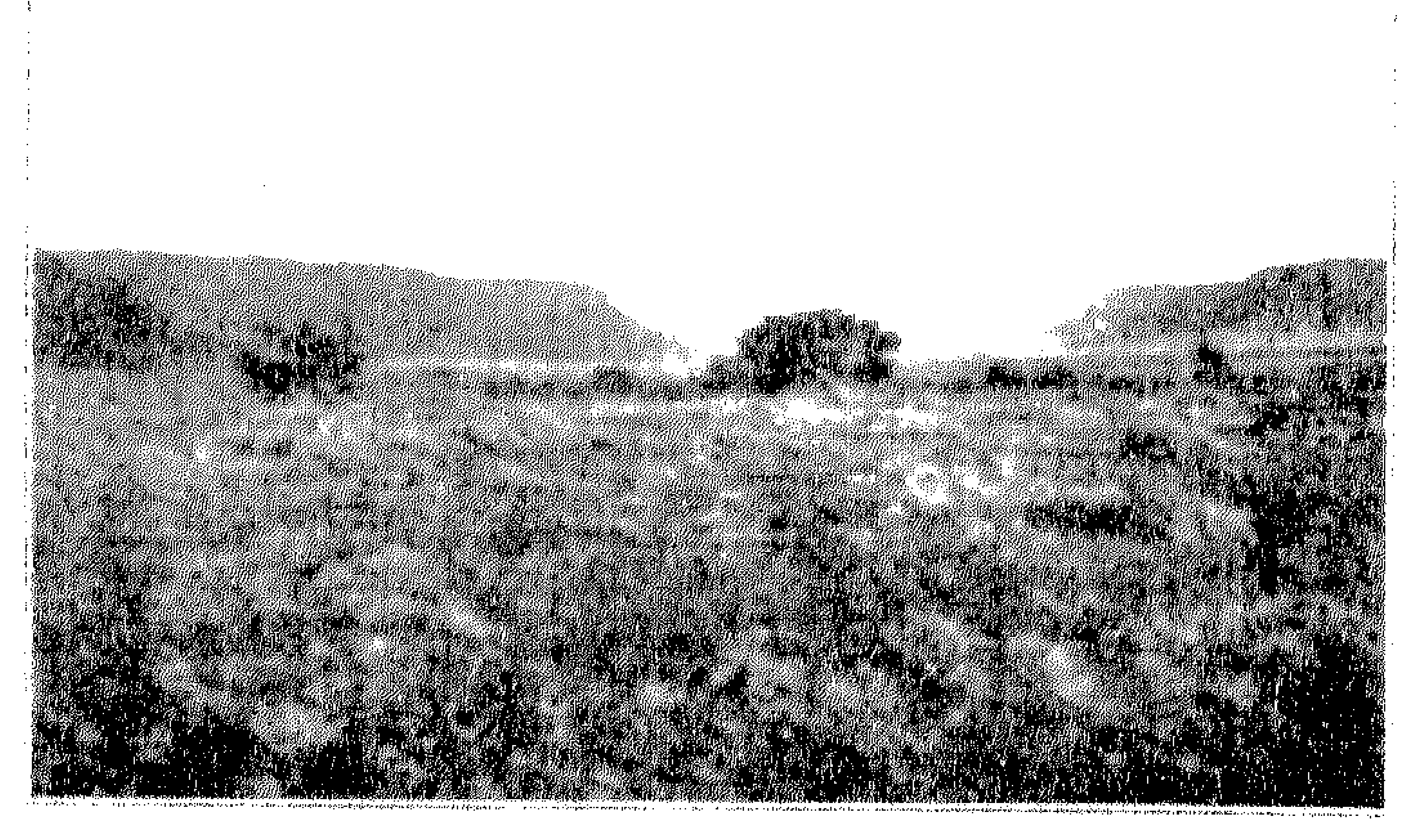
١٩- تلال العوينات.



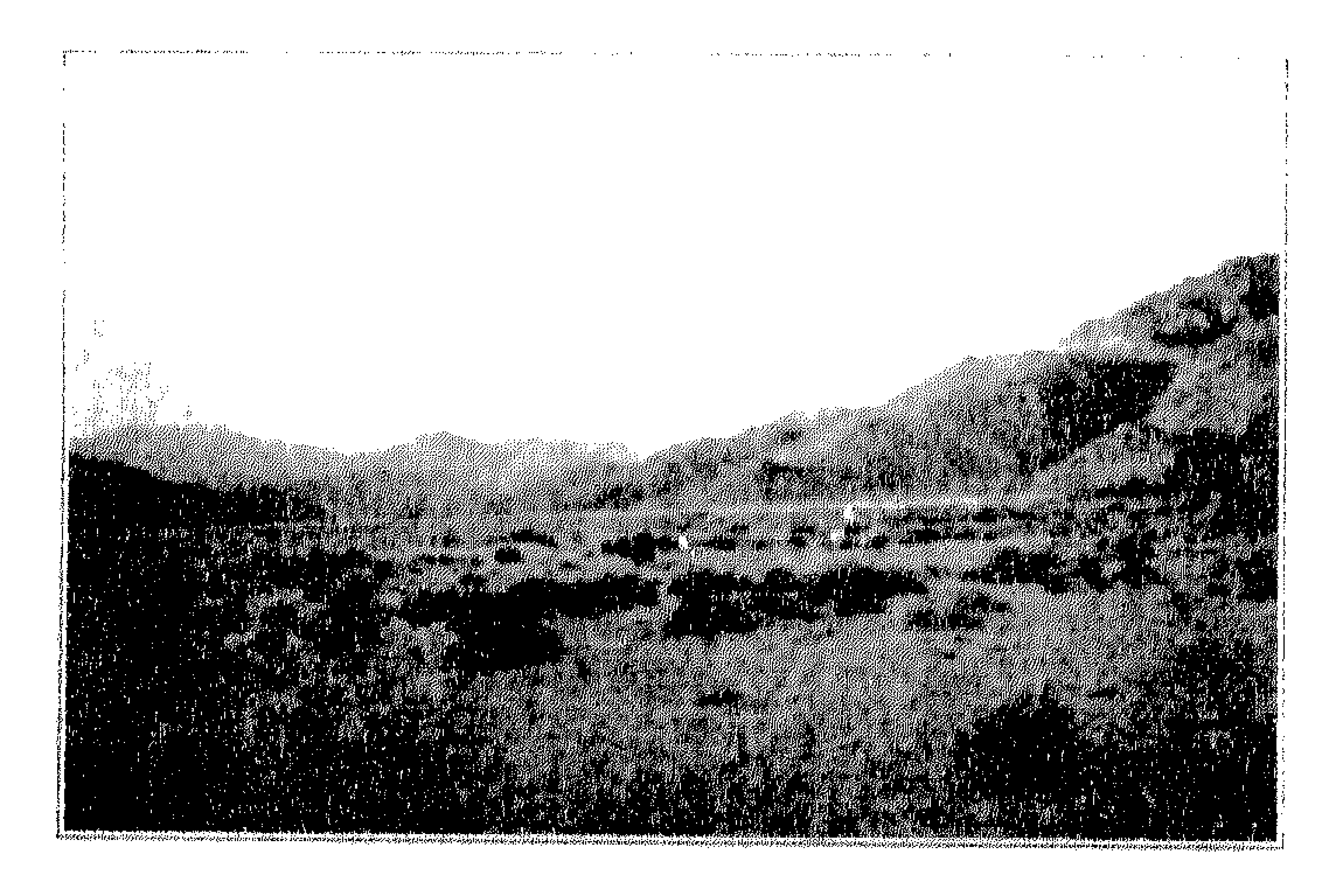
مخيم المستكشف عند سفح جبل العوينات.



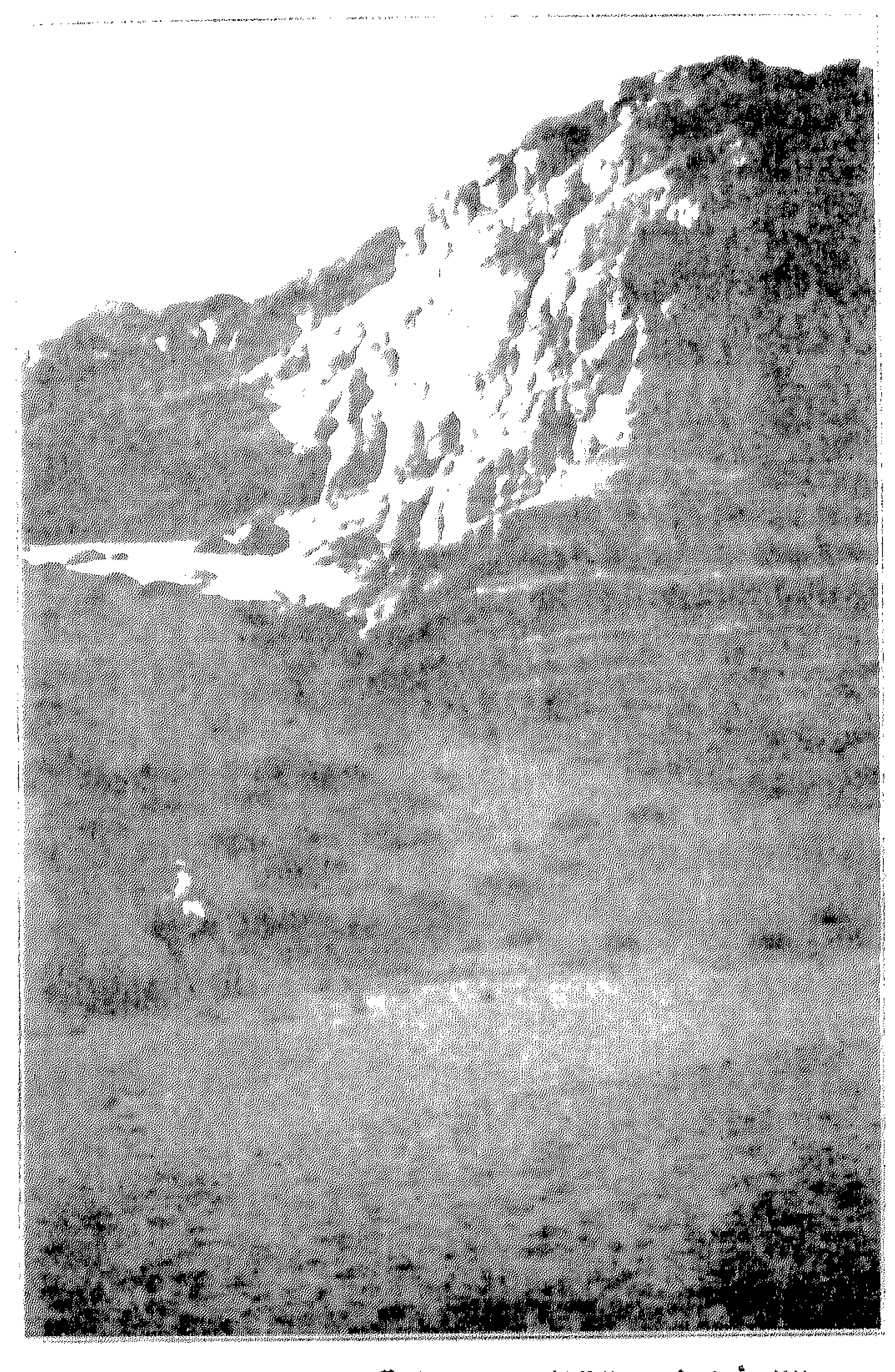
٢٠- بئر المياه الموجود فى واحة العوينات.



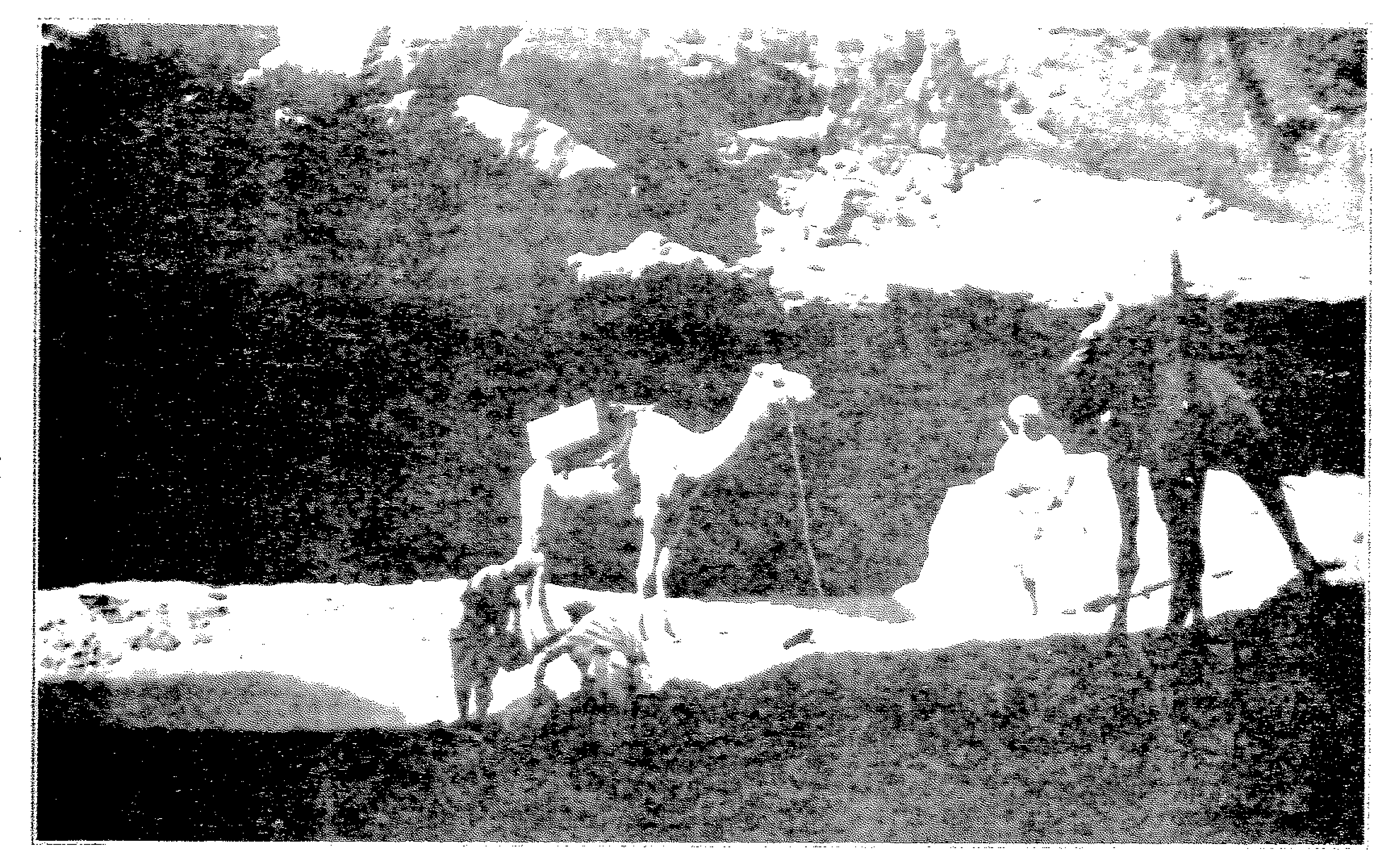
٢١- وادى إردى.



وادى أركينو.



٢٢- أول شجرة تظهر عند الاقتراب من وادى اردى.



٢٣- بئر اردى.



٢٤- إحدى نساء الزغاوة.



أسرة بدوية.

المؤلف فى سطور:

أحمد محمد حسنين بك

- من مواليد بولاق عام ١٨٨٩م.
- تخرج فى جامعة أوكسفورد عام ١٩١٤م.
- بدأ حياته العملية فى وزارة الدفاع؛ حيث عمل سكرتيرًا خاصًا للجنرال ماكسويل قائد قوات الجيش البريطانى فى مصر .
- انتقل للعمل فى وزارة الداخلية عام ١٩١٦.
- عمل سكرتيرًا أول بسفارة مصر بواشنطن عام ١٩٢٣م.
- تدرج فى مناصب القصر ليصبح فى سنوات معدودة الأمين الثانى للملك فؤاد، ورائد الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد، ثم بعد ذلك صار أمينه الأول عندما أصبح ملكًا، ثم رئيسًا لديوانه الملكى.
- توفى فى ١٩ فبراير ١٩٤٦ أثر حادث سيارة فوق كوبرى قصر النيل.
- كرّمته العديد من المحافل العلمية المحلية والعالمية، كما حصل على العديد من الأوسمة والنياشين من مصر ودول العالم المختلفة منها: وسام سان لازار "إيطاليا"، ميدالية الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية للرواد "بريطانيا"، الوشاح الأكبر: نيشان محمد على "مصر".

المترجمان في سطور:

د. عبد الرحمن سعد حجازى

- من مواليد كرداسة بالجيزة عام ١٩٧١م.
- تخرج في قسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٩٣م.
- نال درجة الدكتوراه فى أطروحه بعنوان "الخطاب السياسى فى شعر تميم بن المعز والمؤيد فى الدين الشيرازى: دراسة أسلوبية" عام ٢٠٠٤م.
- يعمل حاليًا مشرفًا مساعدًا على التصحيح اللغوى بالمشروع القومى للترجمة، بالمجلس الأعلى للثقافة منذ عام ١٩٩٧ حتى الآن.

صدر له:

- مصر فى ردائها الفاطمى، مجلة المحيط الثقافى، "المجلس الأعلى للثقافة" القاهرة، ديسمبر ٢٠٠١م.
- نشأة الموشحات (تفسير جديد)، مجلة جذور، النادى الأدبى الثقافى بجدة، المملكة العربية السعودية، العدد ١١، شوال ١٤٢٣هـ = ديسمبر ٢٠٠٢م.
- ترجمة ديوان أشعار من عالم اسمه الصين "مختارات من شعر آى تشينغ"، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٣م.
- الخطاب السياسى فى الشعر الفاطمى: دراسة أسلوبية، القاهرة ٢٠٠٥م.
- له تحت الطبع كتاب "بلاغة التأويل".

أمير نبيه تادرس

- من مواليد القاهرة عام ١٩٧٠م.
- تخرج فى قسم الجغرافيا، جامعة الزقازيق عام ١٩٩١م.
- حصل على تمهيدى الماجستير فى الجغرافيا من جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م .
- التحق بالعمل بوزارة الثقافة عام ١٩٩٧م.
- عضو لجنة اتصال مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى أعوام: ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١م.
- عضو لجنة مراسم مهرجان القاهرة السينمائى الدولى أعوام: ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤م.
- يعمل حاليًا باحثًا بقطاع العلاقات الثقافية الخارجية "بوزارة الثقافة".
- يتولى الإشراف على وحدة معلومات قطاع العلاقات الثقافية الخارجية إلى جانب عمله.
- مثّل جهة عمله فى العديد من المحافل الثقافية فى مصر، وشارك فى العديد من المناسبات الثقافية الدولية التى نظمت فى الدول الأجنبية من بينها: بولندا، بلغاريا، كوريا الجنوبية، الصين، كندا، سوريا.
- صدر له فى إطار المشروع القومى للترجمة ديوان أشعار من عالم اسمه الصين "مختارات من شعر آى تشينغ" عام ٢٠٠٣م.

المراجع فى سطور

طلعت الشايب

- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ورئيس تحرير سلسلة «آفاق عالمية»، وعضو مجلس تحرير مجلة «أدب ونقد» - حاصل على جائزة اتحاد كتّاب مصر فى الترجمة - ٢٠٠٣.
- ترجم ٣٠ كتابًا من بينها:
- صدام الحضارات (صمويل هنتنجتون) - حدود حرية التعبير (مارينا ستاج) - المثقفون (بول جونسون) - الحرب الباردة الثقافية (ف.س.سوندرز) - الطفولة فى السيرة الذاتية العربية (تيتز روكى) - التحدى (مهاتير محمد).

- كما ترجم عددًا من الأعمال الروائية العالمية من بينها:

فتاة عادية (للأمريكى آرثر ميللر) - الملاك الصامت (للألمانى هينرش بول) - عاريا أمام الآلهة (للهندى شيف كومار) - الحرير (للإيطالى اليساندرو باريكو) - البطء (للتشيكى ميلان كونديرا) - بقايا اليوم (للياباني كازو إيشيجورو) - الخوف من المرايا (للباكستاني طارق على) - مكتوب (للبرازيلى باولو كويليو).

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

-١	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
-٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
-٣	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
-٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
-٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
-٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
-٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
-٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
-٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
-١٠	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
-١١	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
-١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
-١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
-١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
-١٥	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
-١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
-١٧	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
-١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
-١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
-٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
-٢١	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
-٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
-٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
-٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
-٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
-٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
-٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
-٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
-٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
-٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
-٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
-٣٢	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
-٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
-٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
-٣٥	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
-٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥- فن التراجم والسير الذاتية — أندريه موروا — أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي — مجموعة من المؤلفين — عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢) — رينيه ويليك — مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية — رونالد روبرتسون — أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف — بوريس أوسبنسكي — سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع» — ألكسندر بوشكين — مكارم الغمري
٨١- الجماعات المتخيلة — بندكت أندرسن — محمد طارق الشرقاوي
٨٢- مسرح ميجيل — ميجيل دي أونامونو — محمود السيد علي
٨٣- مختارات شعرية — غوتفريد بن — خالد المعالي
٨٤- موسوعة الأدب والنقد (جـ١) — مجموعة من المؤلفين — عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية) — صلاح زكي أقطاي — عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل (رواية) — جمال مير صادقي — أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧- نون والقلم (رواية) — جلال آل أحمد — ماجدة العناني
٨٨- الابتلاء بالتغرب — جلال آل أحمد — إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩- الطريق الثالث — أنتوني جيدنز — أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠- وسم السيف وقصص أخرى — بورخيس وآخرون — محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق — باربرا لاسوتسكا - بشونباك — محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر — كارلوس ميجيل — نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة — مايك فيذرستون وسكوت لاش — عبد الوهاب علوب
٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة — صمويل بيكيت — فوزية العشماوي
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني — أنطونيو بويرو باييخو — سري محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى — نخبة — إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا (مج١) — فرنان برودل — بشير السباعي
٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني — مجموعة من المؤلفين — أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠) — ديفيد روبنسون — إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة — بول هيرست وجراهام تومبسون — إبراهيم فتحي
١٠١- النص الروائي: تقنيات ومناهج — بيرنار فاليط — رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح — عبد الكبير الخطيبي — عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣- قبر ابن عربي يليه آياء (شعر) — عبد الوهاب المؤدب — محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجني (مسرحية) — برتولت بريشت — عبد الغفار مكاوي
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع — جيرار جينيت — عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسي — ماريا خيسوس روبييرامتي — أشرف علي دعدور
١٠٧- صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر — نخبة من الشعراء — محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي — مجموعة من المؤلفين — محمود علي مكي
١٠٩- حروب المياه — جون بولوك وعادل درويش — هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي — حسنة بيجوم — منى قطان
١١١- المرأة والجريمة — فرانسس هيدسون — ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ — أرلين علوي ماكليود — إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد — سادى پلانت — أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع — وول شوينكا — نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده — فرجينيا وولف — سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق) — سينثيا نلسون — نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام — ليلى أحمد — منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر — بث بارون — لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى — أميرة الأزهرى سنبل — بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط — ليلى أبو لغد — مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية — فاطمة موسى — محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان — جوزيف فوجت — منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية — أنيل ألكسندرو فنادولينا — أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب أوهام الرأسمالية العالمية — چون جراى — أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى — سيدرك ثورپ ديفى — سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة — ڤولفانج إيسر — عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية) — صفاء فتحى — بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن — سوزان باسنيت — أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة — ماريا دولورس أسيس جاروته — محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية — أندريه جوندر فرانك — شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى — مجموعة من المؤلفين — لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة — مايك فيذرستون — عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) — طارق على — طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة — بارى ج. كيمب — أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت — ت. س. إليوت — ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا — كينيث كونو — سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر — چوزيف مارى مواريه — كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف — أندريه جلوكسمان — وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية) — ريتشارد ڤاچنر — مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار — هربرت ميسن — أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية — مجموعة من المؤلفين — نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل — أ. م. فورستر — حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى — ديرك لايدر — عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) — كارلو جولدونى — سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) — كارلوس فوينتس — أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) — ميجيل دى ليبس — على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان — تانكريد دورست — عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية — إنريكى أندرسون إمبرت — على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس — عاطف فضول — أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية — روبرت ج. ليتمان — منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الانجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية، المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبين	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	روموار جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	آى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩-	ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية القلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرية السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد التنة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديسًا (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	آرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صموئيل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠- توجهات بريطانية – شرقية	السير روناك ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دي ثربانتس	على عبد الرءوف البمبي
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر في عهد محمد على	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحي أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير رويرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافي	أجنر فوج	شوقي جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	علي إبراهيم منوفي
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيري إيجلتون	فخري صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسيني	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	مني قطان
٦١٥-	موجز الأحداث التي وقعت في بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيريني	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولي	عايدة الباجوري
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعي
٦٢١-	النوبة المعبر الحضاري	وليم ي. آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	آي تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازي
٦٢٣-	نوادر جحا الإيراني	سعيد قانعي	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥-	الجرح السري	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق علي منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدي محمود المليجي
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسي
٦٣٠-	سيرتي الذاتية	أحمد بللو	صبري محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقي المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا	دولوروس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روي ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوي
٦٣٥-	التثبيت والتكيف في مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعي
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وررن	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعي
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشي
٦٤١-	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدري عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حانيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	يان هاتشباى وجوموران إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	ميراث الترجمة: حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى

٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	ماساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات القوة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	ثمر عاروري
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنًا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد
٧٥٩-	النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود

٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة ( )	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف)	خواجة الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	جون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جلال عبد المقصود
٧٨٣-	العولمة والرعاية الإنسانية	فيك جورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤-	الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	هاجين	منى الدروبى
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	مونيك برنتو	جيهان العيسوى
٧٩١-	العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢-	دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريفيس	رءوف وصفى
٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف اليمبى
٧٩٦-	آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى
٧٩٧-	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨-	الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد وداڤيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن

٧٩٩- سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١- نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣- التغير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤- سوسيولوجيا الدين	دانيل هيرفيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦- الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديفيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢- تأمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)	أنى إرنو	نورا أمين
٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦- العدو الأمريكى	فيليب روچيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠- ميراث الترجمة: هملت (مسرحية)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١- هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢- فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤- لغة الدراما	دافيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥- ميراث الترجمة: عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦- ميراث الترجمة: عصر النهضة فى إيطاليا (جـ٢)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧- أهل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨- ميراث الترجمة: النظرية النسبية	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠- رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١- ميراث الترجمة: تطور علم الطبيعة	ألبرت أينشتين وليو پولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣- الفلسفة الألمانية	فرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤- كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور
٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوربان	علاء عزمى
٨٣٦- بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى

٨٣٧-	عناكب فى المصيدة	ناتاليا فيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨-	فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩-	أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين فان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠-	الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١-	هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢-	منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣-	من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤-	دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥-	غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦-	الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧-	الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨-	ميراث الترجمة: تاريخ الدولة العربية	يوليوس فلهوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩-	سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠-	الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١-	ميراث الترجمة: الطب التجريبى	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢-	العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣-	العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤-	العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥-	فهم الاستعارة فى الأدب	جيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦-	القضية المريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثسكو ماركيث يانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧-	نادجا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨-	جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩-	السياسة فى الشرق القديم	إيف شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠-	مصر وأوروبا	القاضى فان بملن	لطيفة سالم
٨٦١-	الإسلام والمسلمون فى أمريكا	جين سميث	محمد الخولى
٨٦٢-	بيغاء الكاكادو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣-	لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤-	أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥-	فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦-	رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧-	المهمة الاستوائية	ديفيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨-	الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩-	تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠-	عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١-	عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢-	كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى
٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد

٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات فى الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنرى جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع فى العربية	موريتس شتينشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٣٩٢ / ٢٠٠٥

المجلس الأعلى للثقافة



هذا الكتاب رحلة فريدة قام بها أحمد محمد حسنين بك (١٨٨٩ - ١٩٤٧)، الذى درس وتخرج فى أوكسفورد، وتدرج فى مناصب القصر بعد ذلك ليصبح الأمين الأول للديوان الملكى فى عهد الملك فاروق وأحد رموز الدولة خلال فترة حكمه. وكان فى صباه شغوفًا بالسفر والترحال، حتى إنه عرض على الملك فؤاد فكرة عبور الصحراء الغربية للبحث عن واحات مفقودة فى وسط الصحراء لا يعرف أحد عنها شيئًا، فأعجب الملك بالفكرة، وأمر بأن تتحمل الخزانة المصرية كل نفقاتها. وفى عام ١٩٢٣ بدأ رحلته من "السلوم" على ساحل البحر الأبيض المتوسط، واتجه صوب الجنوب فوق ظهور الإبل إلى أن وصل فى النهاية إلى مدينة "الأبيض" فى "السودان"، واستغرقت رحلته سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا ، قطع خلالها مسافة ٢.٢٠٠ ميل تقريبًا، ونجح خلالها فى اكتشاف واحتين مفقودتين لم يصل إليهما أى رح[...] قبل، كما نجح أيضًا فى رسم خريط[...] المنطقة الممتدة على طول رحلته، والتى [...] هناك أيضًا أية معلومات عنها من قب[...] منحته الجمعية الجغرافية الملكية البر[...] نوط الرواد عن هذا الإنجاز، كما وجه[...] العديد من الجمعيات الجغرافية فى دو[...] المختلفة دعوات لإلقاء محاضرات عن [...] وما صادفه فيها ، وما عثر عليه ، وما [...] خلالها، وقد ذكر كل هذا بالإضافة إلى [...] أخرى عديدة فى هذا الكتاب.

